الجمهوريـة الجزائرية الديمقراطية الشعبيـة

وزارة التعليـم العـالـي والبحـث العلمـي

كليـة الآداب والعـلوم الإنسـانية

قسـم الأدب العـربي

مذكرة لنيل شهادة الماجستير

التّخصص: اللغة والأدب العربي

الفـرع: النّحو العربي

إعـداد الطالبة: نصيرة زيد المال

الموضوع:

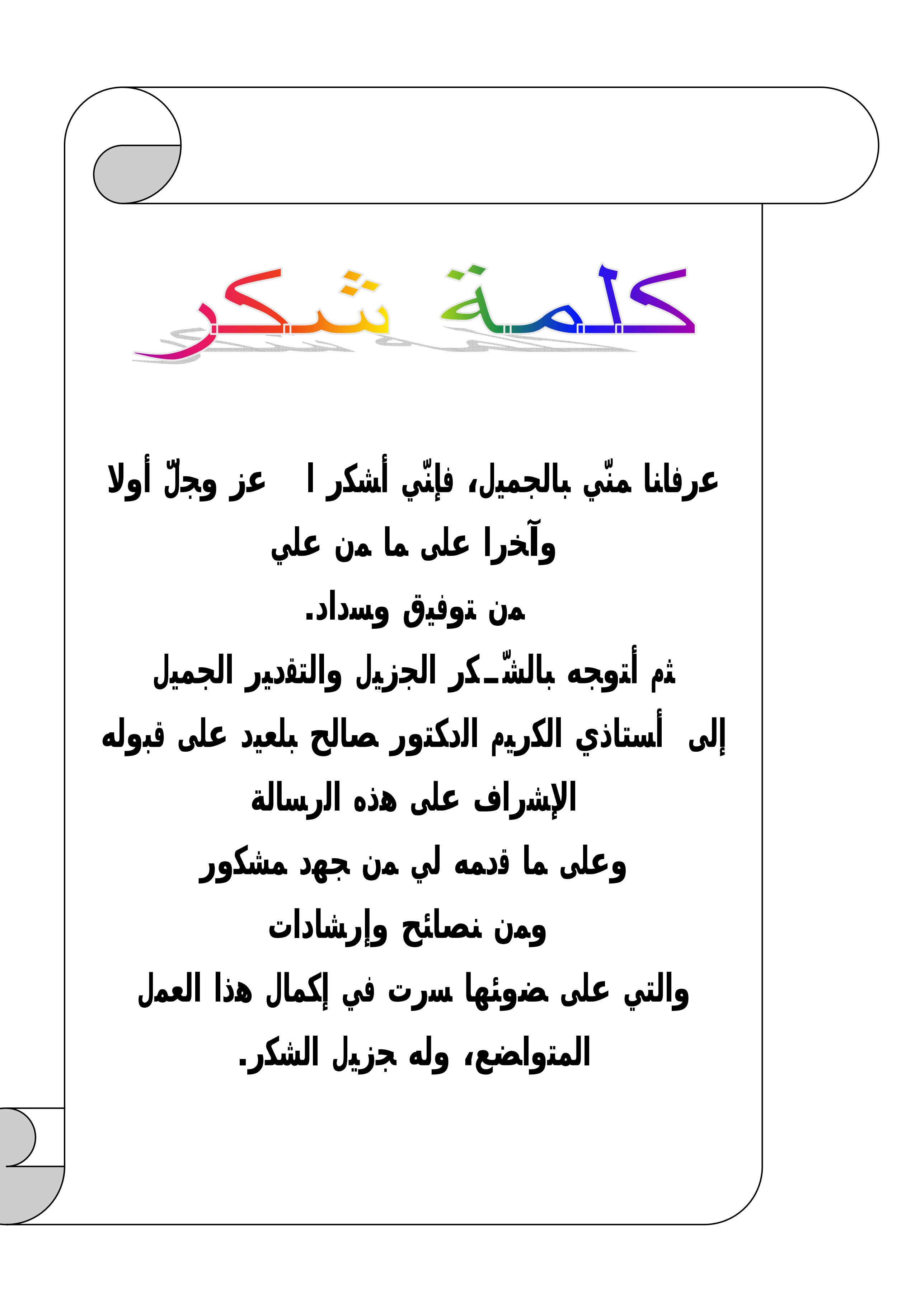
خصائص لغة ابن قيم الجوزية من خلال كتـابه (مفـتاح دار السـعادة)

لجنة المناقشة:

أ. د / محمد يحياتن: أستاذ التعليم العالي............. جامعة تيزي وزو	رئيسا
أ. د / صالح بلعيد: أستاذ التعليم العالي...............جامعة تيزي وزو	مشرفا ومقررا
د / خالد عيقـون: أستاذ محاضر صنف أ............جامعة تيزي وزو	ممتحنا
د / ذهبية حمو الحاج: أستاذة محاضرة صنف ب......جامعة تيزي وزو	ممتحنا

تاريـخ المنـاقشة: 15 مـارس 2011 م.


بسم الله الرحمن الرحيم



كلمة شكر

عرفانا منّي بالجميل، فإنّي أشكر ا عز وجلّ أولا

وآخرا على ما من علي

من توفيق وسداد.

ثم أتوجه بالشّـكر الجزيل والتقدير الجميل

إلى أستاذي الكريم الدكتور صالح بلعيد على قبوله

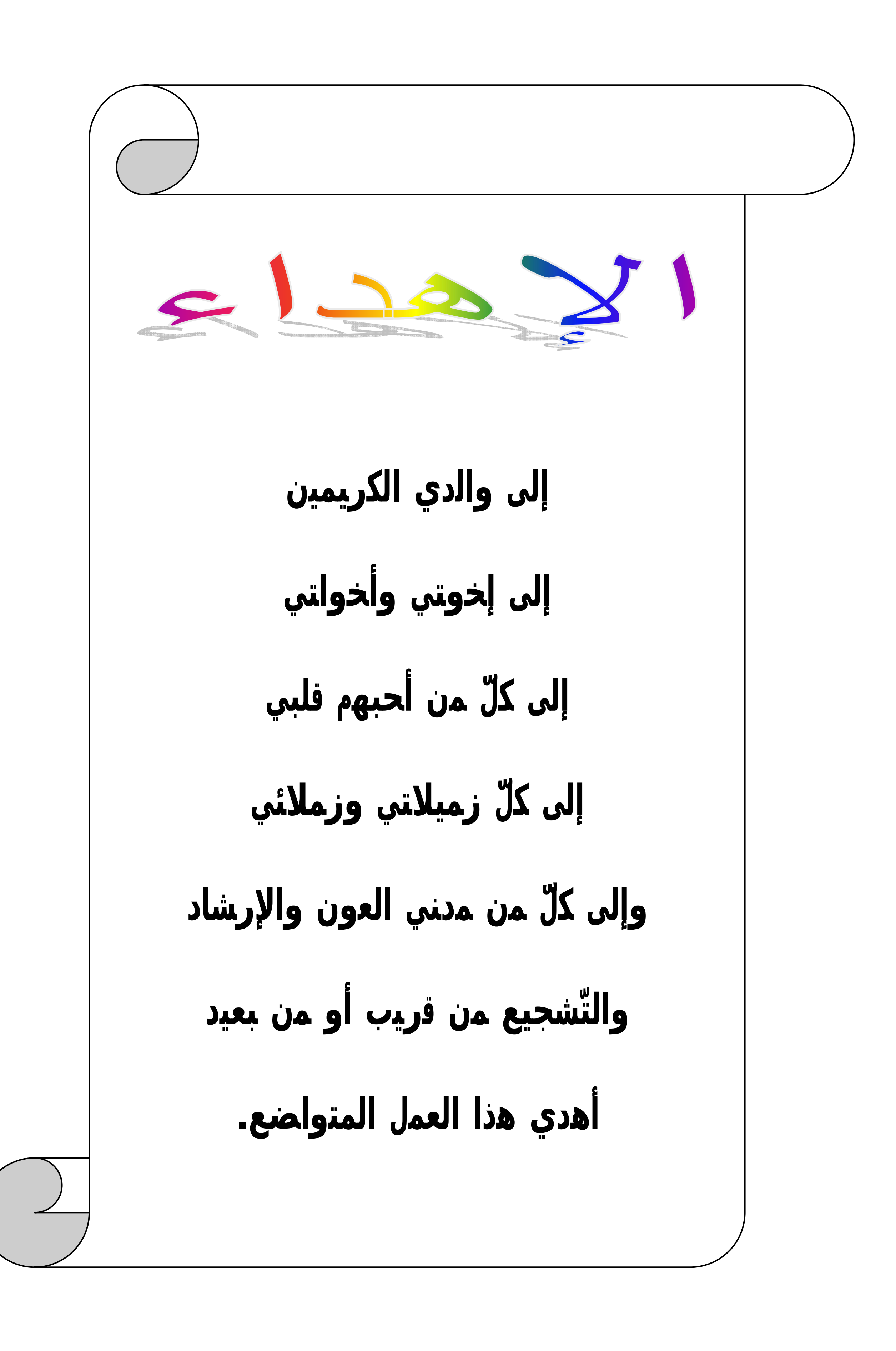
الإشراف على هذه الرسالة

وعلى ما قدمه لي من جهد مشكور

ومن نصائح وإرشادات

والتي على ضوئها سرت في إكمال هذا العمل

المتواضع، وله جزيل الشكر.



الإهداء

إلى والدي الكريمين

إلى إخوتي وأخواتي

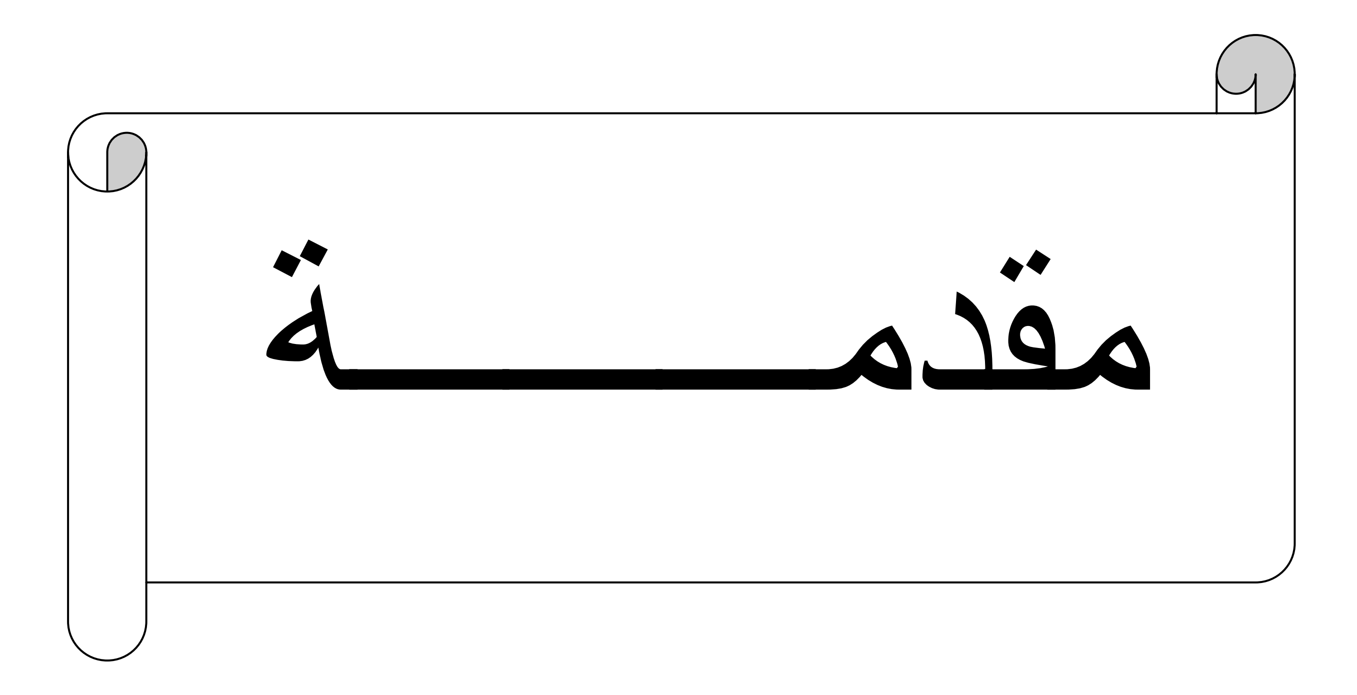
إلى كلّ من أحبهم قلبي

إلى كلّ زميلاتي وزملائي

وإلى كلّ من مدني العون والإرشاد

والتّشجيع من قريب أو من بعيد

أهدي هذا العمل المتواضع.


مقدمــــــــة

مقدمـــة: لـقد كان العالم كله قبل الإسلام غارقا في الجهل، لا يعرف مبدع هـذا الكون، فأنكر الناس الخالق، وترتب على هذا أن عمت الفوضى وكثر الفساد، ولم يكن العرب أسعد حظا من غيرهم قبل الإسلام، بل كانوا أكثر الأمم تمزقا وتفرقـا وشـركا با ، وشاعت فيهم العادات الرذيلة، وكان العالم العربي يموج بالفوضى والاضـطراب كما كان غيرهم، ولقد حاول بعض المفكرين أن يتوصلوا إلى نظرية متكاملـة لهـذا الكون، غير أن هؤلاء لم يتوصلوا إلى نظرية في الدين متكاملة، ذلك لأنهم لم يعرفوا نعمة الوحي، فأصبح الناس في حاجة إلى من ينقذهم من هذا الهلاك، فـأنعم ا علـى العالم عامة، وعلى العرب خاصة، بسيدنا محمد ﷺ ليخلصهم مما هم فيـه، فجـاء بكتاب من عند ا مشتمل على كل الفضائل المنجية في الدنيا والآخرة، ومن خلال هذا الكتاب عرفنا ا وصفاته، وعرفنا علاقة ا بالإنسان، وأن العبادات التي كلفنا ا بها ميسورة لنا، كما دعا ا سبحانه وتعالى، في كتابه العزيز إلى الاعتصام بحبل ا ونبذ التفـرق، فقـال ا تعالى: **واعتصموا بحبل ا جميعا ولا تفرقوا** (آل عمـران: 103). ولقد ألهم ا جماعة من أولى المعارف والنهى، وذوي البصائر والحجـى، أن صرفوا إلى هذا الشأن طرفاً من عنايتهم وجانباً من رعايتهم، فشـرعوا فيـه للنـاس مواردا، ومهدوا فيه لهم معاهداً، حراسةً للقرآن الكريم من الضياع، وحفظاً لهذا المهـم العزيز من الاختلال؛ لأنّ كتاب ا سبحانه وتعالى لا تنتهـي عجائبـه، ولا تنقضـي غرائبه، ولا يمل مع كثرة الترداد، وهذه التفاسير للقرآن الكريم بكاملها علـى كثرتهـا والكتب التي ألّفت في مختلف علومه لا يدركها الحد، ولا يصل إليها الحصر، فلـيس عجيبا أن تستمر المؤلفات لاقتطاف الثمرات من كلام ا ، أو استخراج الحكم والفوائـد من كتب السابقين عن القرآن الكريم، أو توضيح ما غمض من أقوالهم، أو تقريب مـا غـرب عن علومهم، أو استدراك ما نـدّ عنهم.

ولمّا كان للقرآن من أهميـّة ومكانة عظيمة علية، صنعت فيه التصانيف، وأُلفت فيـه التآليف، وكـان من بين تلك المتـون المختصرة، والكتب المحررة المشتهرة، كتـاب: (مفتاح دار السعادة) لابن قيم الجوزية، ولا يخفى على أحد حجم التراث العظيم الذي تركه ابن القيم رحمه ا ، والذي أصبح مرتعاً خصباً لأهل العلم سواء كان من العلماء أو طلبة العلم، أو الباحثين أو الـدعاة أو المفـكرين.

تتكون مدونتنا (مفتاح دار السعادة) من ثلاثة أجزاء، قام بتحقيقها علي بن حسن بن علي بن عبد الحميد الحلبي الأثري، وقام بمراجعتها فضيلة الشيخ بكر بن عبد ا أبو زيد، وقامت بطبعها دار ابن القيم، ودار ابن عفان.

وتتجلّى أهمية الموضوع التي دفعتني إلى اختياره فيما يلي: إن العلاّمة ابن القيم كانت له اليد الطولى والقدم الراسخة في دقائق الاستنباط، لما كان يتمتّع به من جودة الفكر ودقّة النظر، الأمر الذي مكّنه من تفهم روح الكتاب والسنة، والاستشراف على أسرار الشريعة الإسلامية الغرّاء، وكان يعرف بفيض علمه، وسعة اطّلاعه، وتبحره في الفقه الإسلامي، حتى صار من العلماء الأعلام، وأئمة الإسلام الذين لا يشقّ غبارهم، وكان أول ما شدني إليه ما قرأته من مقالات في كتابه مفتاح دار السعادة، وقد وجدت فيه من سحر البيان وجمال اللغة، ما افتقدته عند كثير من الأدباء الذين قرأت لهم؛ خاصة المحدثين منهم، وهو من صفوة الأئمة الذين رفعوا أساليب العربية إلى مستوى الجمل القرآنية، شأنه شأن نوابغ الأدب كالمبرد والجاحظ وغيرهم، فحبب ذلك إلى نفسي الكتابة عنه؛ إذ وجدت أنه أديب ممتاز بأسلوبه وبيانه، لما حباه ا تعالى من قوة العبارة وصلابة الحجة، والاطّلاع الواسع من خلال عكوفي على كتابه، فما أعجبني فيه هي لغته المتميزة، ولقد أعمل ابن القيم فكره الفذّ، وأجال قلمه البليغ وعلمه الواسع في مناقشة مسائل عدة، وقد اتخذ القوس باريها، فأشبع فيها البحث، فلم يترك لقائل مقالا، ولا لمتكلم كلاما، ووضع الحقّ في نصابه بلسان مبين المنهج مطّرد السياق، وقد أيده ا بسداد الرأي ونفاذ البصيرة.

والكتاب المسمى بـ (مفتاح دار السعادة) كتاب نفيس، وفيه من بدائع الفوائد وفرائد القلائد ما لا يوجد ذلك لسواه، وفيه من البحوث ما يستقصي كل عام إلى فنّه واسمه مطابق لمسماه، ولفظه موافق لمعناه؛ فإن فيه من الإفادة ما يحدد إلى دار السعادة، ومن أجل هذا عقدنا العزم بمشيئة ا على أن يكون عنوان بحثنا (**خصائص لغة ابن قيم الجوزية من خلال كتابه مفتاح دار السعادة**).

ولما كان للعلم لغة يؤدى بها ولا حياة له بدونها، يلتقي عندها العلماء، ويعول عليها الطلاب، وعلى أساسها يقوم الشرح والدرس، ويعتمد التأليف والنشر، تسير بسير العلم وتقف بوقوفه، ولا سبيل لأن توجد في أمة جاهلة، ولا لأن تحيا في بيئة لا تغذيها

ولا تنميها، ولما كانت لغة العلم صنيع أهله، يصطلح عليها العلمـاء فتصـبح لغـتهم الخاصة، ولكل عالم لغة تميزه عن غيره، وكلما تقدم البحث فيها نمت وتحددت، وعليه نتساءل: ما طبيعة لغة ابن قيم الجوزية؟ هل هي لغة علمية أم أدبية؟ أم هـي مـزيج بينهما؟ وما هي خصائصها؟ وما طبيعة الجمل التي يستعملها؟ هل هي جمـل بسـيطة يفهمها القارئ؟ أم هي جمل معقدة لا يفهمها إلا اللبيب؟ وما هي خصـائص أسـلوبه؟ وما هي السمات التي امتـاز بها عن غيره؟ وما هي أهدافه التي سعى لتحقيقها ومدى موافقتها لروح الإسلام ومبادئه؟ وبماذا تميز منهجه الذي اتّبعه لتحقيق هذه الأهـداف؟ وما هي طريقته التي سلكها في معالجة المسائل العلميـة؟

ومن الفرضيات المتعلقة بالبحث، نـقول: ربما تكون لغة ابن القيم لغة علمية، وربمـا تكون أدبية، ولها خصائص أسلوبية ولغوية، وربما يكون ابن القيم اتخذ لنفسه منهجـا خاصا يميزه عن غيره.

وإن المنهج الذي يتناسب مع هذا النوع مـن الدراسات، هـو المنهج الوصفي التحليلي النقدي، الذي يقوم على وصف الظاهرة وتحليلها، ومن ثم إصدار الأحكام التـي تبـين قيمتها؛ لأن الوصف هو عماد الدراسات اللغوية الحديثة، والذي يعنى بوصـف البنيـة اللغوية، وبيان وظيفتها الإبلاغية في الآن نفسه، انطلاقا من أن اللغة نظام شامل يظهر على هيـأة أنظمة صغرى، يؤدي التفاعل بينها إلى تحريك جهاز اللغة.

وأما بنية البحث فقد أقمتها كما يلي: مقدمة، عرضت فيها سبب اختياري للموضـوع والإشكالية، وما تحمله من فرضيات، ثم تمهيد، وتحدثت فيه عـن البيئـة السياسـية والعلمية والاجتماعية؛ لأن دراسة هذه المقومات الثلاثة للبيئة ضرورية للباحـث؛ لأن الإنسان نتاج البيئة، وهو كذلك مجموعة من المواهب الطبيعية، والصفات المكتسبة من البيئة العامة والبيئة الخاصة، ولا يمكن جحد أثر الظروف السياسية والنهضات العلمية والحالات الاجتماعية في صبغ الأفراد والمجتمعات صبغة خاصة، وتلـوين أهـدافهم واتجاهاتهم تلوينا يتناسب والظروف التي يحيون فيها.

وقسمت البحث إلى بابين:

الباب الأول: **ابن القيم والحياة الفكرية في عصره:** وهي الدراسـة النظريـة، وفيـه فصلان:

الفصـل الأول: **لمـ ـحة عن حيـاة الإمام ابن القيم:** وفيه مبحثان:

المبحث الأول: الاتجاهات الفكرية: وتطرقت فيه للحديث عن حياة ابن القـيم: حياتـه اسمه، نسبه، مولده نشأته، وفاته.

المبحث الثاني: ابن القيم وجهوده العلمية: وخصصته للحديث عن ابن القيم وجهـوده العلمية: شيوخه، تلامذته، آثاره، علمه، مؤلفاته.

الفصـل الثاني: **ابن القيم ومفتاح دار السعادة**: وفيه مبحثان:

المبحث الأول: **مفتاح دار السعادة، أهميته ومنهجه**: وخصصته للحديث عن أهمية هذا الكتاب، ومنهجه.

المبحث الثاني: **أهمية الكتاب وقيمته العلميـة**: وخصصته للحديث عن أهمية الكتـاب وقيمته العلمية، وذكرت بعض المآخذ عليه.

الباب الثاني: **خصائص لغة ابن قيم الجوزية من خلال مفتـاح دار السـعادة**: وهـي الدراسة التطبيقية، وفيه فصلان:

الفصل الأول: **خصائص أسلوب ابن القيم من خلال مفتاح دار السعادة**: وفيه ثمانيـة مباحث:

المبحث الأول: وخصصته للحديث عن الاستطراد، وهي خاصية عـرف بها ابن القيم واشتهرت في أبحاثه.

المبحث الثاني: وتحدثت فيه عن أسلوب الحوار؛ حيث استخدم ابن القيم أسلوب الحوار في غالب مناقشته لخصومه.

المبحث الثالث: وخصصته للحديث عن الأسلوب الأدبي، ففيه السجع وسائر المحسنات والذي ظهر جليا، وبصورة واضحة في مقدمة كتابه، أو مقدمات بعض أبحاثه.

المبحث الرابع: وتطرقت فيه للحديث عن الأسلوب العلمي**،** على أن ابن القيم يتحـرر تماما في أسلوبه من قيود الصناعة اللفظية، وذلك حين ينـاقش المسـائل العلميـة، أو يتناول لب الموضوع**.**

المبحث الخامس: وخصصته للحديث عن السجع، وتبدو عباراته جزلة قويـة تمتـاز بالوضوح والبعد عن الغرابة، ويتميز بطول النفس والمقـدرة الفائـقة في الإقنـاع**.**

المبحث السادس: وخصصته للحديث عن المعرفة اللغوية؛ حيث يبدو في أسلوبه أثـر ثقافته الواسعة.

المبحث السابع: وخصصته للحديث عن المعرفة النحوية؛ حيث كـان ابـن القـيم إذا عرض لمسألة متصـلة بالقـواعد النحوية، صال فيها وجال، كأنه عالم متخصص مع حـسن توجيه.

المبحث الثامن: وتحدثت فيه عن الاقتباس من الشعر؛ حيث اسـتطاع ابـن القـيم أن يستحضر من الشعر ما يتناسب مع الموضوع الذي يتكلم فيه، حتى يقع استشهاده فـي موضعه، ووضعه في مناسبات من عباراته توافـقه وتليـق به.

الفصـل الثاني: **خصائص لغة ابن القيم من خلال مفتاح دار السعادة**: وفيـه أربعـة مباحث:

المبحث الأول: وخصصته للحديث عن الخصائص الصوتية والإيحاءات الدلالية: فـي علاقاتها الإفرادية والكلمية والتركيبية: تناولت فيه بالتحليل الظواهر الصـوتية التـي تفرزها الحروف في علاقاتها مع الحروف التي تسـبقها أو تتلوها، ومدى انسجام كل حرف مع الحرف الذي يـسبقه أو يلحـ ـقه مـن خـ ـلال الكلـ ـمة أو التركيـب. والانسجام الصوتي بين التراكيب في مفتاح دار السعادة، وكذا انسجام الفواصل.

المبحث الثاني: خصصته للحديث عن النظام الصرفي: تناولت فيه خصائص الكلمـة مفردة من خلال تسجيل بعض الظواهر البارزة: كالترادف، توظيف كلمـات القـرآن الكريم، ونظام الاشتقاق...

المبحث الثالث: خصصته للحديث عن نظام التراكيب، وهو بحث في خصائص الجملة عند ابن قيم الجوزية، وتسجيل بعض الظواهر اللغوية البـارزة كالتقـ ـديم والتـأخير الذكر والحـذف، مشاكلة الأساليب القرآنية...

المبحث الرابع: خصصته للحديث عن الخصائص البلاغية، وتطرقت فيه للحديث عـن أسلوب الالتفات، على أن ابن القيم يكثر من الالتفات في نصوصه.

وفي الأخير خاتمة، وجمعت فيها النتائج التي توصلت إليها من خـلال هـذا البحـث والتي كان بعضها إجابات عن بعض الإشكالات التي طرحها البحث.

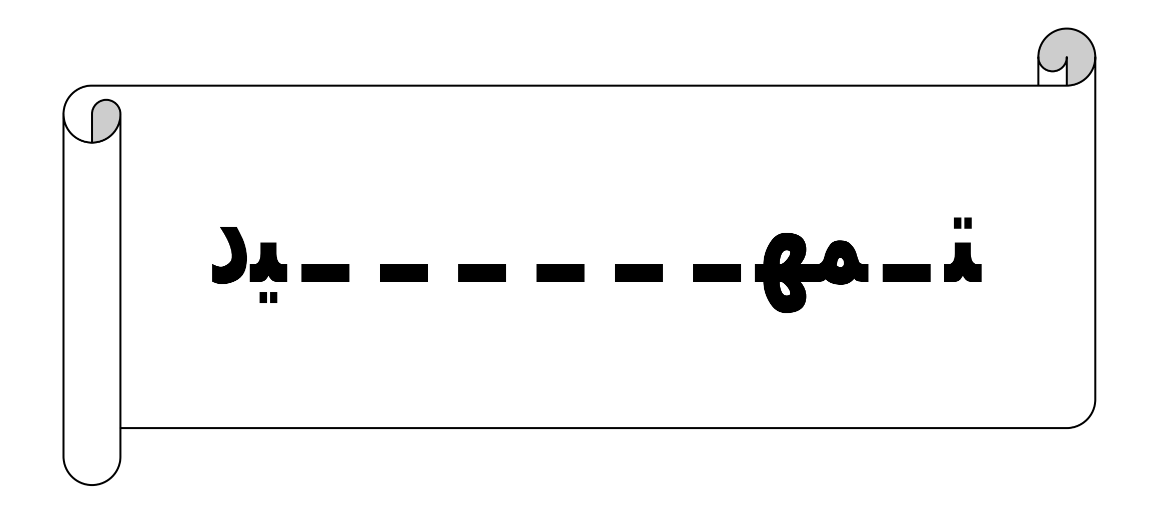
واعتمدت في هذا البحث على جملة من المصادر والمراجع، وكذا الدراسات التي بحثت في أدب ابن القيم، وتناولت بالدراسة مؤلفاته، ومن بينها: (ابن قيم الجوزية، عصـره ومنهجه وآراؤه في الفقه والعقائد والتصوف) للدكتور عبد العظيم عبد السلام شـرف الدين، وكتاب: (القواعد الفقهية المستخرجة من كتاب أعلام الموقعين) لفضيلة الشيخ أبي عبد الرحمن عبد المجيد جمعة الجزائري، وكذا كتاب (موارد ابن القيم في كتبه) لفضيلة الشيخ بكر بن عبد ا أبو زيد، وكذا كتاب (ابن القيم وحسه البلاغي في تفسير القرآن) للدكتور عبد الفتاح لاشين.... وما يلاحظ في هذه المؤلفات اهتمـام هـؤلاء الباحثين بدراسة شخصيته دون التعرض للجانب اللغوي لابن القيم، وهو جانب مهـم في نظري، ولعل السبب في ذلك أن شهرة ابن القيم الأصولية غلبت شهرته اللغويـة؛ لأنه لم يخلف كتابا في الدرس اللغوي على النظام المعهود في بيئة اللغويين، ولكن هذا لا يمنع من التطرق لهذا الجانب، خاصة ونحن لمسنا شذرات لغوية في كتبه، ونخص بالذكر كتابيه: (بدائع الفوائد) و(الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان) فهـو في البيان والبديع ويدخل علم البيان في معظم أبوابه في نطـاق الدراسـات اللّغويـة الحديثة، فالمجاز بأنواعه والكناية في بعض صورها يعرض لها علم الدلالة على أساس أنّها أمثلة لتعدد المعنى وتنّوعه، أو على أساس أنّها صور للتّعبير الذي يصيب معـاني الكلمات والعبارات.

وباستثناء هذه المؤلفات نجد كتاب (ابن القيم اللغوي) للدكتور أحمد ماهر البقري، وما يمكن أن نسجله في هذا الكتاب تعرض المؤلف للجانب اللغوي لابن القيم؛ حيـث إنّـه خصص فيه فصلا كاملا للحديث عن لغوية ابن القيم (ص: 58) ولقد استهلّه بسؤال جوهري وهو: هل كان ابن القيم لغويا؟ ثـم يمضـي فـي سلسـلة مـن التسـاؤلات والافتراضات التي تمثل ردودا ومناقشة لبعض آراء الباحثين الذين ينكرون لغوية ابن القيم، وإلى جانب هذه الدراسة نجد دراسة الدكتور سليمان طاهر حمودة، فـي كتابـه الموسوم بـ (ابن القيم جهوده في الدرس اللغوي) حيث استهلّ مقدمته برغبته فـي دراسة الجانب اللغوي لابن القيم؛ حيث يقول في (ص: 1) : " ولما كنت أريد دراسة الجانب اللغوي عند ابن القيم، وهو شأن سائر ألوان النشاط العقلي يتأثر بالبيئة العامـة والخاصة لصاحبها..."

وفي موضع آخر(ص: 2) يقول: " وقد خصصت الباب الثاني والأساسي من البحث لدراسة الجانب اللغوي، وقسمته إلى فصلين، أولهما جعلته للنحو ... وفي الفصل الثاني تناولت دراسة المعنى، وهي قمة الدراسات اللغوية وغايتها..."
وتبقى هذه المؤلفات لا تخلو من الثغرات؛ لأنّها لم تتعمق كثيرا في دراسـة الجانـب اللغوي لابن القيم، وهو جانب مهم في نظري، وخاصة أن ابن القيم صاحب ثـروة لا تحصى، وكنز لا ينفذ من المؤلفات التي تستحق الدراسة حقاّ، ومن المراجع أيضا كتب ابن القيم التي تمكّنت من الحصول عليها.

ولا أكتم سرا إن قلت إن هنالك صعوبات واجهتني، وهي من طبيعة الأمور؛ حيـث إن كلّ بحث لا يخلو منها، وهي لا تخرج في مجملها عن تلك التي يمكن أن يلقاها أي باحث ينجز بحثا أكاديميا؛ فأولى هـذه الصعوبات هي طبيعة الموضوع؛ حيث اقتضت مني مراجعة المصادر الأخرى للإمام ابن القيم؛ إذ قد أجد فيها من الاستدلال والتحليل ما لا أجده في مفتاح دار السعادة، ثانيها سعة الموضوع وغـزارة مادته العلمية التـي يحملها، فقد مضت علي أكثر من سنة ونصف وأنا منكـبة وعاكـفة عليه، وكذا ندرة المصادر والمراجع المتخصصة.

وفي الأخير أرجو أن يكون هـذا العمل خدمة طيبـة، وإسهاما مني في محاولة بعـث مثل هـذه الأبحاث اللغوية المتخصصة، للتعريف بأعلام الفقه والسنة، وأفـذاذ اللغة العربية، وهـي بعض حقـوقهم التي ينبغي أن يحفظها الأخلاف لأسلافهم.


تمهيد

تمهيد: كلمة موجزة عن البيئة وأثرها: الحالة السياسية والعلميـة والاجتماعـية:

للبيئة أثر في نفوس أبنائها يختلف باختلافها؛ فإن كانت سهلة طبعتهم بطـابع السـهولة واللين، وإن كانت جبلية خلعت عليهم الخشونة والغلاظة، وسأعنى في دراسـة البيئـة للحالة السياسية، وسأهتم بالسياسة الداخلية والخارجية: الصليبيين والتتـار، أمـاّ عـن السياسة الداخلية، فسأبين العلاقة بين السلطان والخليفة، وبين السلاطين بعضـهم مـع بعض؛ إذ لا يخفى أثر السياسة الداخلية في نفوس الأفراد والجماعـات، وأمـا عـن السياسة الخارجية فسأشير إلى الحروب الصليبية، وإلى هجمات التتـار علـى بـلاد المسلمين، وقـد كـان هذان الحادثان سابقين لمولد ابن القيم، ولكن كـان لهما أثر في خلق التحمس الديني في المسلمين نتيجة لتحـمس الفـرنج لـدينهم، وتعصـبهم ضـد المسلمين، وهـذا التعصب الديني من الفريقين لم يخنق من الوجـود بإنهاء الحـروب الصـليبية، بل استمـر إلى ما بعدهـا، أمـّا هـذه الحـروب فـقد استـمرت نحـو قـرنـين (سنة 490 هـ - 690 هـ) التقى فيها المسلمون بالفرنج، وذهـب ضحيتها أرواح بريئة، وختمت بنصر المسلمين على أعدائهم، ولقد قضى التتار علـى الخلافة العباسية في بغداد، وحرقوا كثيرا من الكتب، وقتلوا الأبريـاء، فتلفـت العـالم الإسلامي إلى قوة تحميه، فما وجد هذه القوة إلا على يد المماليك الذين ظهروا بمظهر حماة الدين؛ ليجمعوا القلوب حولهم، وإذا كانـت الخلافة في بغداد قد عجلت نهايتـها ما كان فيه الخلفاء من غفلة من دينهم، فقد أخذ المسلمون من هذا عبرة لهم، واستيقظوا من غفلتهم، وبدأوا يحيون حياة الجـد، وهرعوا إلى الدين يتخذون منه دستور الحيـاة الجديدة، وبدأ العلماء يعرفون موقفهم من الحكاّم، فلم يتهاونوا لهم في حقـوق الأمـة.

وأما الحياة العلمية فهي المدرسة التي يتخرج فيها العلمـاء، ولهـذا كانـت دراسـتها ضرورية حين يتعرض الباحث لدراسة عالم من العلماء.

وأما الحياة الاجتماعية فإنّها تكشف عن العلاقات بين الطوائف المختلفة: طائفة الحكـاّم وطائفة العلماء، وطائفة العامة، وقد منى العالم الإسلامي سنة (656 هـ) بحـادث زلزل كيانه، وحطّم جهاز الدولة الإسلامية " هذا الحادث هو استيلاء (هولاكو) عـلى بغـداد، وقـتل الخليفـة المـستعصم بالله، وإراقـة الـدماء الـزكية، فقـد أمـر

(هولاكو) بضرب أعناق الفقهاء والأعيان، واستمرار القتل والنّهب في بغداد بضـعة وثلاثين يوما، فلم ينج منهم إلا من اختفى[1]" وبهذا تم القضاء على دولة بني عبّاس فـي بغداد نتيجة لحياة اللّهو والتـرف التي انغمس فيها خلفاؤهم، وقد غير هـذا الحـادث وجـه التاريخ، وأيقظ العالم الإسلامي من سباته العميق؛ فأيقن أن إسلام أمـره إلـى الحكّام دون مناقشتهم فيما يأتون هو الذي أطمع عدوهم وحضد شوكتهم، ومـا كانـت مطامع التتار لتقف عند هذا الحد، ولم ترتو نفوسهم بالدماء التي أراقوها في بغداد، بل أخذوا يغيرون على بلاد الشام حتى وصلوا في زحفهم إلى غزة، وقد أوقعوا الرعب في نفوس الشاميين " وتلفت الناس إلى رجل الساعة، فكان الملك المظفـر قطـز سـلطان مصر الذي التقى بالتتار في عين جالوت[2] "ولقد اشتد القتال بين الفريقين حتـى باشـر قطز القتال بنفسه، وكان يشجع الجنود ويحسس إليهم الموت، وقد أسفرت المعركة عن هزيمة التتار، ولـم تقـم لهم قائمة بعـد هذه الموقعة، وقد فرح الناس بهـذا النصـر ودخل قطز مدينة دمشق ترفرف حوله الأعلام وتحيط به القلوب، وظـلّ حاكم مصـر إلى أن قتلته زوجته شجرة الدر في الحمام، وأعانها جماعة من الخدام لغيرتها حين هم بالزواج من أخرى، ثم خلفه ابنه السلطان الملك المنصور نور الدين علي على ملـك مصر في يوم الخميس خامس وعشرين من ربيع الأول سنة (655 هـ) وظـلّ حاكـم مصر إلى أن عمل قطـز على انتزاع السـلطة منه سنة (657 هـ) وكـان هذا النصر تمهيدا لأن يتولى قطز حكم الشام إلى جانب حكم مصر، فجاءه حكّام الشّام وأعلنوا ولاءهم له، وبهذا خضعت مصر والشام لحاكم واحد كان يقيم في مصر، وقـد اتصل المسلمون بالمسيحيين أيام الحروب الصليبية، وكان الدافع إلى هذه الحروب سوء الحالة الاقتصادية في أوربا، حتى أصبح الناس في عـوز وفقـر، كمـا أن صـاحب القسطنطينية ضاق ذرعا بسوء المعاملة التي كان يلقاها من السلاجقة، وبالضرائب التي فرضوها عليه، فاستنجد بملوك أوربا واستغاث بهم، وكـان المسـيحيون يعتقـدون أن المسيح يرضى عن عملهم إذا أخذوا القبر المقدس من أيدي المسلمين.

---

[1] - عبد العظيم عبد السلام شرف الدين، ابن قيم الجوزية، عصره منهجه وآراؤه في الفقه والعقائد والتصوف، ط 3. الكويت: 1984، دار القلم للطباعة والنشر والتوزيع، ص 14.

[2] - المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

1- دمشق في عصر ابن القيم: كانت دمشق على درجة عالية من الازدهار العمراني في القرن السابع الهجري وما بعده، وقد وصفها ياقوت الحموي بإعجاب قائلا:" ومـن خصائص دمشق التي لم أر في بلد آخر مثلها كثرة الأنهار بها، وجريان المـاء فـي قنواتها فقلّ أن تمر بحائط إلا والماء يخرج منه في أنبوب إلى حـوض يشـرب منـه ويستقى الوارد والصادر، وما رأيت بها مسجدا ولا مدرسـة ولا خانقاهـا إلا والمـاء يجري في بركة في صحن هذا المـكان، ويسبح في منصته، وجملة الأمـر أنـه لـم توصف الجنة بشيء إلا وفي دمشق مثله، ومن المحال أن يطلب بها شيء من جليـل أعراض الدنيا ودقيقها إلا وهو فيها أوجد من جميع الـبلاد[1]" وممـاّ لا شـك فيـه أن الازدهار العمراني الذي تمتعت به هذه المدينة كان مقترفا بنشاط علمي واسـع كانـت معاهد المدارس والمساجد والخوانق الكثيرة التي عرفتها المدينة، وكانت دمشق مدينـة حسنة الترتيب، جليلة الأبنية ذات حواجز بنيت من جهاتها الأربـع وغوطتهـا أحـد مستلزمات الدنيا العجيبة المفضلة على سائر مستلزمات الأرض، وكذلك الربوة، وهي كهف في فم واديها الغربي، عنده تنقسم مياهها... وبها الجوامع والمدارس والخوانـق والربط والزوايا والأسواق المرتبة، والديار الجليلة المذهبة السقف المفروشة بالرخـام المنـوع ذات البرك والماء الجاري، وربما جرى الماء في الدار الواحدة فـي أمـاكن منها، والماء محكم عليها من جميع نواحيها بإتقان محكم، وقد قسمت بلاد الشام – لذلك العهد- من الناحية الإدارية إلى نيابات ست وهي: دمشق، حلـب، طـرابلس، حمـاه صفدن، الكرك، و يراعي هذا التقسيم الطبيعة الجغرافية، وكانت هذه النيابات خاضـعة للحكومة المركزية في القاهرة، وكان لكل منها ما يشبه الاستقلال الذاتي في النـواحي المالية والإدارية، وكانت هناك وظائف كثيرة بكل نيابة، وكانت تنقسم إلى قسمين:

- قسم يراعي وظائف يختص بها أرباب السيف: وهـي تتمثـل فـي النيابـات والولايات وأمراء الجند، والجند.
- وقسم تكون من نصيب أرباب القلم الذين يكونون غالبا من العلماء والفقهاء.

---

[1]- ياقوت الحموي، معجم البلدان، تح فريد عبد العزيز الجندي، ط 3. لبنـان، د س، دار الكتـب العلمية، المجل 2، ص 590.

وتتمثّل أهم وظائف أرباب القلم في القضاة الذين كانوا يمثّلون المذاهب الأربعة، ولكل طائفة منهم رئيس يعرف بقاضي القضاة، وكان بدمشق أربعة قضـاة مـن المـذاهب الأربعة وأعلاهم الشافعي، وهو المتحدث على الموازع الحكميـة والأوقـاف وأكثـر الوظائف، ويختص بتولية النوات في النواحي، وبجميع أعمال دمشق، حتـى غـزة ويليه في الرتبة الحنفي، ثم المالكي ثم الحنبلي.

2- الخصائص العلمية للعصـر: تميز العصر بكثرة مؤلفاته التي اتّسـم كثيـر منهـا بالموسوعية؛ ذلك أن العلماء كانوا يحسون بعد الخراب الذي حـلّ ببغـداد أن علـيهم واجب إحياء علوم الدين واللغة، ومحاولة سد ما حدث بها من نقص، وقد أنتج العصر آلاف الكتب والرسائل، وعرف كثير من رجاله بكثرة التأليف، ولم تكن كثرة التـأليف نتيجة عن رغبة في إحياء ما درس ببغداد فحسب، بل كانت لها عوامل كثيـرة، منهـا نضج كثير من العلوم، واحتراق بعضها من كثرة ما أُلّف فيه، ووضـع مـن متـون وشروح " وقد كانت ظاهرة المتون والشروح غالبة وواضحة، وكثـرت المنظومـات التعليمية، وأشهر منها ألفية الحافظ العراقي في علوم الحديث، وألفية ابـن مالـك فـي النحو، وغير ذلك، كما كانت هناك موشحات تنظم في بعض العلوم[1]" وهكـذا اشـتمل التأليف لذلك العصر على جميع الأشكال الممكنة ما بين متن نثري وشرح له، وحاشية على الشرح ومنظومة شعرية، وشرح لها وموشح، بالإضافة إلى الكتب التي توضـع مبسوطة؛ فلا تحتاج إلى شروح أو لا تشرح لقلة عناية الدارسين .. إلـى آخـر هـذه الأشكال التصنيفية.

أ- معاهد الدروس: تميز العصر بكثرة معاهد الدروس؛ فهناك المساجد التي درج كبار العلماء على أن يلقوا في حلقاتها دروسهم المتخصصة، بالإضافة إلى المـدارس التـي كانت تلحق بالمساجد في أحيان كثيرة، وكانت لها أوقاف ينفق منهـا علـى عمارتهـا وشيوخها وطلبتها، كما وجدت الزوايا والخوانق التي قد يقيم فيها جماعات من الصوفية الذين ينقطعون العبادة والعلم، وتجرى عليهم الأرزاق من أوقافها، وقد اشـتهر منهـا بالقاهرة مدرسة السلطان حسن، التي أشاد المؤرخون والرحالة الأجانب بعظمتهـا، ولا

---

[1]- طاهر سليمان حمودة، ابن قيم الجوزية، جهوده في الدرس اللغـوي، د ط. مصـر، د س، دار الجامعات المصرية للنشر والتوزيع، ص 12.

تزال رسومها شاهدة على ذلك والخانقاه البيبرسية والخانقاه الشيخونية، وقـد حظيـت المدن الكبرى غير القاهرة بهذه المؤسسات العلمية من مدارس وخوانق فضـلا عـن المساجد، ولكن النشاط العلمي بالقاهرة كان أكثر ازدهارا وحيوية، وكان يعـين لكـل مدرسة أو خانقاه شيخ يقرره السلطان بالقاهرة، أو من ينوب عنه في المدن الأخـرى ويكون الشيخ مشرفا على أوقافها وأوجه نشاطها، ويراقب النواحي العلمية والإداريـة والمـالية، وتُعد المدرسة الجوزية بدمشق مثالا للمدارس، وقد كان القيم عليها أبو بكر بن أيـوب والـد الإمام ابن القيم، وقـد غلب عليه نعتـه الوظيفي؛ فعـرف ولـده بـ (ابن القيم). ويصف ابن خلدون (808 هـ) حالة العلم والتعليم بالقاهرة التـي كانت تعد عاصـمة القطرين مصر والشـام، وهـو مؤرخ عاصر هذه الحقبة وشـهد معالمها: " ونحن لهذا العصر نرى أن العلم والتعليم إنّما هو بالقاهرة من بلاد مصر لما أن عمرانها مستبحر، وحضارتها مستحكمة منذ آلاف السنين، فاستحكمت فيها الصنائع وتفننت، ومن جملتها تعليم العلم، وأكّد ذلك فيها، ونفظه ما رقع لهـذه العصـور منـذ مائتين من السنين في دولة الترك من أيام صلاح الدين بن أيوب وهلم جرا، وذلـك أن أمراء الترك في دولتهم يخشون عادية سلطانهم على من يتخلفـونه من ذريتهم لما لـه عليهم من الرق أو الولاء، ولما يخشى من معاطب الملك ونكباته، فاستكثروا من بنـاء المدارس والزوايا والربط، ووقفوا عليها الأوقاف المغلة يجعلون فيها شـركا لولـدهم بنظر عليها أو نصيب منها، مع ما فيهم غالبا من الجنوح إلى الخير، والتماس الأجور في المقاصد والأفعال، فكثرت الأوقاف لذلك، وعظمت الغلاّت والفوائد، وكثر طالـب العلم ومعلّمه بكثرة جرايتهم منها، وارتحل إليها الناس في طلب العلـم مـن العـراق والمغرب، ونفقت بها أسواق العلوم وزخرت بحارها[1]" وعليه؛ فإن هذا النشاط العلمـي الذي شهـدته القاهرة كانت له أصداء في جميع العالم الإسلامي، فيسمع ابـن خلـدون عن القاهرة، ويكتب عنها قبل أن يحضر إليها، فإذا ما حضر لم يغير مما كتب شـيئا. وكانت مدن مصر والشام على وجه الخصوص تنعم لذلك العهد بنشاط علمـي وافـر ولعلّ دمشق كانت أوفـر المـدن حظاً بعد القاهـرة من النشاط العـلمي.

[1] - عبد الرحمن ابن خلدون، المقدمة، تح حامد أحمد الطاهر، ط1. بيروت: 2004، دار الفجـر للتراث للنشر والتوزيع، ص 700.

ب- نظام الدراسة: كانت وظائف التدريس بالمدارس جليلة القدر، وكان السلطان هـو الذي يقرر صاحبها في وظيفته، وكان نائب السلطة بالشام يقوم مقام السلطان في ذلـك وهذه الوظائف بالطبع تكون بقدر من يتولاها، ولذا وصفت من معاصريها بأنها تختلف باختلاف حال من يتولاها في الرفعة وغيرها، وتوجد إلى جانب هذه المدارس المكاتب الملحق بها أو غير الملحقة، وتعنى بتعليم الصغار مبادئ هذه القراءة والكتابة، وتحفيظ القرآن، وطرفا من العلوم الأولية، وكانت هذه المكاتب تمهد للالتحاق بالمدارس الكبيرة. وكانت المدارس تختلف في درجاتها من قبل من يتولون مشيختها، والتدريس بها مـن الأعلام المشهورين أو من دونهم، بالإضافة إلى مقدار ما رصد لها من أوقاف وأرزاق ينفق منها على القائمين بالتدريس، والمعيدين والطلبة المنقطعين للدرس، فضـلا عـن النفقات الأخرى التي تحتاجها مرافق المدرسة والمكتبة الملحقة بها، والدراسـة بهـذه المدارس أشبه ما تكون بالدراسة الجامعية النظرية من حيث طريقة التدريس، ومستوى الدراسة، ونظام التلقي، بل إنها تمتاز عن النظم الحديثة بأن طلابها كانوا لا يجيدون من العقبات والعوائق ما يحول بينهم وبين تحصيل العلوم، أما فيما يختص التلقـي، فكـان الطالب يحضر دروس أحد المدرسين حتى يأخذ عنه كفايته ثم ينتقل إلى الآخر، وكلمـا كان عدد الشيوخ الذين لقيهم الطالب وشهدوا له أكثر، كان ذلك أدعى لفضـله وعلـو قدره، وكذلك الحال بالنسبة لشهرة الشيوخ الذين يتلقّى عنهم الطالب ويشهدون له، فقدر الشـهادة قـدر الشهود، ولا شك أن لهذه الطريقة مزايا متعددة تتمثـل فـي حـرص الطالب على حضور دروس أكبر عدد من الشيوخ، لا سيما ذوي الأصـالة والشـهرة منهم، بالإضافة إلى عنايته بالتحصيل، وأخذ نفسه بالجد، حتـى يشـهد لـه شـيوخه. فالحصول على الإجازة يستلزم من الطالب إتقان ما درسـه علـى الشـيخ واسـتيعابه وتفهمه، أو حفظه في بعض الأحيان، فإذا ما قام بذلك استوجب أن يمنح إجازة بتدريس كتاب ما، أو علم من العلوم، أو الإفتاء في مذهب من المذاهب الفقهية في جميع فـروع الفقه، أو في بعضها دون بعض، ولقد كانت هذه التقاليد مرعية متعارفا عليهـا لـذلك العصر، وقد عرفت هذه المدارس في مصر والشام نظام المحاضرات، ولم يكن حضور الدروس في أحيان كثيرة مقصورا على الطلبة المتفرغين، بل كان عاما لمن يبتغي العلم

لا سيما دروس مشاهير العلماء، وقد عرفت المحاضرات باسم المجالس، وهي طريقـة قديمـة في التعليم يقوم فيها المدرس بإملاء مجالسه على طلبته.

3- الحياة السياسية: وبعد أن بيننا صورة الحياة الحضارية والثقافية بدمشق في عصر ابن القيم، وكشفنا عن أهم خصائص الحركة العلمية لذلك العهد بصـفة عامـة، نـرى إكمالا لتصوير البيئة أن نتناول بعض ملامح الحياة السياسية المعاصرة له، فابن القـيم باعتباره فقيهًا مجتهدًا مشهورًا لا بد أن تؤثر فيه نظم الحياة التي يعيشها، وأن يصـدر عنه ما يكون انعكاسا لبعض ملامحها، ولا بد أن يكون له موقف مؤيـد أو معـارض بالنسبة للمجتمع الذي يعيش فيه، والذي تحكمه أطر سياسية واجتماعية وثقافية معينة.

أما عن شكل الدولة فقد كان أمراء المماليك (حكام البلاد) وكـان هنـاك الخليفـة العباسي بالقاهرة، وكانت الخلافة متوارثة فيهم منذ أن انتقلـوا مـن بغـداد، وقـادهم المماليك منصب الخلافة بالقاهرة؛ ليكونوا مظهرا من مظاهر شرعية حكمهـم، وكـان منصب الخلافة شكليا إلى حد كبير؛ فالخلافة ليس لها حلّ ولا عقـد بجانب السـلطان الذي يكون دائما من المماليك، واقتصر دور الخليفة على تولية كل سلطان جديد مراعاة للشرعية شكلا؛ لأن المفروض أن يستمد الولاة جميعا سلطتهم من الخليفة الذي يمثّـل قمة الحكم في النظام الإسلامي، وكان مقر السلطان بالقاهرة، وكانت بلاد الشام مقسمة إلى نيابات ست، لكل منها نائب يعينه السلطان، وكان أكبر هؤلاء هو نائـب دمشـق وكان يطلق عليه – في كثير من الأحيان- نائب الشام، وقد كان التنافس بـين أمـراء المماليك على السلطة واضحا طيلة هذه الفترة، ولذلك تميز العصر بعـدم الاسـتقرار السياسي، بـيد أن الفترة التي كانت فيها حياة ابن القيم تميزت بنوع مـن الاسـتقرار النسبي؛ لأن معظمها كان في حكم الناصر محمد بن قلاوون، وهو من أشهر سـلاطين المماليك، وأكثرهم قوة وآثارا وأطولهم في مدة الحكم، وشـهدت حياة ابن القـيم مـن سلاطين المماليك الملك الأشرف بن قلاوون الـذي قتل عام (693 هـ) ثـم تـولّى السلطنة بعده أخوه الملك الناصر محمد بن قلاوون، وكـان له من العمر تسـع سنين ولكن أحد مماليكه ثار عليه وخلعه، وتولى مكانه، وهو السلطان (كتبغا) الذي تولى عام (693 هـ) وتولى من بعده حسام الدين لاجين عام (696 هـ) بعد أن خلـع سلفه، وفي عام (698 هـ) عاد الناصر محمد بن قلاوون إلى مصر من منفاه بنـاء

على رغبة أمراء المماليك الذين اجتمعوا على توليته، وكان بـالكرك، فعـاد وتـولّى السلطنة للمرة الثانية، وفي عهد الناصر محمد عام (699 هـ) حدث هجوم غـازان ملك التتار حفيد هولاكو الذي زحف إلى الفرات في جموع كثيفة، فخرج إلـى قتالـه الناصر محمد، وحدثت بين الفريقين معركة انتصر فيها التتار، وهزم السلطان وجنوده ولكنه استطاع الهروب والعودة إلى مصر، وجدير بالذكر أن غازان زحف على ضياع الشام، ونهب ما فيها وسلب أهلها، فتشاور أهل الشام مع جماعة من العلماء الذين كانوا بدمشق على أن يخرجوا في طلب الآمان من ملك التتار، وكان من بين هؤلاء العلمـاء تقي الدين بن تيمية الحراني شيخ ابن القيم، وقد استجمع الناصر قوته، فجمـع عـددا كبيرا من مماليك مصر والشام، ومن العربان وغيرهم، وعاود مهاجمة غازان، وحدثت معركة كبيرة بين الفريقين في" مرج راهط " أسفرت عن انتصار كبير للناصر وجنوده ولكن لم تستقر الأمور للناصر، فقد انفرد دونه بالسلطنة نائباه سلار وبيبرس الجاشنكير حتى اضطر إلى أن يخلع نفسه من السلطنة مرة ثانية بعد عشر سـنين مـن ولايتـه. وتولى بعده بيبرس الجاشنكير عام (708 هـ) وقد حاول بيبرس أن يضـيق علـى الناصر محمد بعد خلعه، فما كان من الأخير إلا أن دعا نواب الشام بعد أن رحل إليها لمساعدته وذكرهم بصنيع أبيه، وما له عليهم من حقّ العتق والتربية، فتحمس له النواب واجتمعوا حوله، وجمعوا مماليكهم وسائر جندهم، وكان في نفس الوقـت كثيـر مـن مماليك مصر يفـدون إليه لمساعدته، ولما رأى بيبرس كثرة أنصار الناصر محمد لـم يجـد بدا من خلع نفسه، فتم بذلك الناصر محمد تسلّم مقاليد الحكم للمرة الثالـثة عـام (709 هـ) واستتب له الأمر، وامتدت فترة حكمه حتى عام (741 هـ) تـاريخ وفاته، وقد تميزت هذه الفترة بشيء من الاستقرار النسبي في ذلك العصر الذي حفـل بكثير من المغامرات السياسية التي قام بها أمراء المماليك الطامعون في السلطة، وبعد وفاة الناصر محمد، تولى أبناؤه من بعده واحدا بعد الآخر وسط مؤامرات قام بها أمراء المماليك، كانت تنتهي بقتل السلطان أو خلعه وتولية أخيه مكانه، وهو ما يعطي صورة لعدم الاستقرار السياسي؛ إذ كان بعض هؤلاء السلاطين لا يبقى فـي حكمـه بضـعة أشـهر، وآخر السلاطين الذين شهدتهم حياة ابن القيم هو السلطان حسن الـذي تـولى عام (748 هـ).

أما نيابة الشام فقد كان نائبها يعين من قبل السلطان، ويقال إن أحد هؤلاء النواب وهو " **ققجق** " هرب مع جماعة من المماليك خوفا من السلطان لاجـين، وذهبوا إلى غازان مـلك التتار، وحرضوه على غـزو الشام، وكـان هـروبه عـام (697 هـ) وقد تولى بعده مملوك يعرف باسم " أقوش الأفرم" خلعه السلطان عام (711 هـ) وولـى مكانه " كراي" المنصوري فترة يسيرة، ثم قبض على كراي وأعاد أقوش إلـى نيابـة الشام، بيد أن أكـثر نـواب الشام شـهرة هو تنكز الحسـامي الـذي عينه الناصـر محمد عام (711 هـ) وقد كان هذا النائب مقربا من السلطان، وتزوج السلطان بابنته وامتـدت نيـابته ثمانية وعشرين عاما، حتـى خلعه السـلطان عـام (745 هـ) بعد أن ساءت العلاقات بينهما، والجدير بالذّكر أن هؤلاء الحكام جميعا كانوا يمثلـون طبقة ارستقراطية متميزة عن سائر طبقات الشعب؛ فكان الأمراء يعيشون فـي نعـيم وترف باذخ يدلّ عليه ما يحصيه المؤرخون لهم من الأملاك والمقتنيات، ومهما تكـن المبالغة في التقدير، فإن ذلك يعكس صورة الثّراء الفاحش الذي عاش فيه الحكّام، وهو ثـراء مقترن بالظلم واستغلال السلطة، أما العوامل الخارجية المـؤثرة فـي الحيـاة السياسية فتتمثل في أمرين رئيسين:

" **أولهما:** الحروب الصليبية التي انتهت عام (690 هـ) لكن آثارها في إذكاء الروح الدينية، وتنشيط همم المسلمين كان قوياّ وفعالا، وكانت سببا في أن يعكـف المسـلمون على دراسة دينهم، مدافعين عنه داعين إليه، مهاجمين خصومه من أصـحاب الأديـان الأخرى، وهو ما نجد أمثلة له عند ابن تيمية، وابن القيم فـي موقفهمـا مـن اليهـود والنصارى.

وثانيهما: يتصل بالحروب ضد التتار الذين أسقطوا بغداد عام (656 هـ) بعـد أن اكتسحوا شرق العالم الإسلامي وهم كفّار وثنيون، وقد صدهم المماليك فـي معـركتين قاسيتين بالشام هما عين جالوت وبيسان[1]" لكن أخذ هؤلاء التتار يعاودون الزحف بعـد ذلك بالرغم من أنهم دخلوا في الإسلام، وقد دعا ذلك سلاطين المماليك إلـى اسـتنفار الهمم لمقاومتهم، وقد هزم المماليك أمام التتار في موقعة الخزندار، وفي موقعة حمص. وخرج العلماء ومنهم ابن تيمية يطلبون الأمان من غازان قائدهم، لكن السلطان الناصر

[1]- طاهر سليمان حمودة، ابن قيم الجوزية، جهوده في الدرس اللغوي، ص 20.

جمع عدته ورجاله، والتقى بهم في المرج، وكان بالجيش ابن تيمية يحرض المقـاتلين ويرغّبهم في الجهاد، وقد هزم التتار هزيمة منكرة، ولم تقم لغازان بعدها قائمـة، وقـد حضر الموقعة الناصر محمد، والخليفة وبعض الفقهاء، وكانوا يسيرون بـين الجنـود يحثّونهم على الجهاد، وأثرت هذه الحروب في الحياة العامة؛ فقد اعتـد النـاس بعـد الانتصار بأنفسهم، ويتطلعون إلى مزيد من الحرية السياسية وحرية الفكـر، وتظهـر الحرية السياسية في طبيعة علاقة الحكّام بالمحكومين، فالمحكومون لا يستسلمون دائما لما يمليه الحكّام؛ بل يناقشونهم ويراجعونهم، والمعبرون عن رغبات الشعب لذلك العهد هم الفقهاء بما هم حملة شرع ا الذي هو ميزان عادل لجميع أنواع العلاقات، وكثيـرا ما كان الفقهاء يمتنعون عن غفتاء الحكّام مما يرغبون فيه، عندما يرون ذلـك مخالفـا للشرع أو للمصلحة العامة التي هي من الشرع بسبب، وظهر أثر الحرية الفكرية فـي بعض الأبحاث العلمية عند بعض العلماء الذين هاجموا التقليد، ودعوا إلـى الاجتهـاد وانتقـدوا التعصب لمذهب من المذاهب الفقهيـة دون تبصـر، أو رويـة أو مناقشـة موضوعية للمـذاهب الأخرى، ودون الاستنـاد إلى الأدلـة المعتبـرة.

ولعل خير من يمثل حرية الفكر في دراسته – لذلك العهد- ابن تيمية وتلميذه ابن القيم اللذان كلّفتهما هذه الحرية بنوعيها السياسي والفكري كثيرا من العنـاء فـي حياتهمـا. فتعرض ابن تيمية للطرد من وظيفته حين امتنع عن إفتاء السلطان بما يهواه، وتعرض للحبس أكثر من مرة بسبب أرائه المخالفة لأراء فقهاء عصره، كما حبس مع تلميذه في حبسه الأخير، وتعرض ابن القيم من بعده بسبب هـذه الآراء لضـروب كثيـرة مـن العنـف والتضيـيـق.



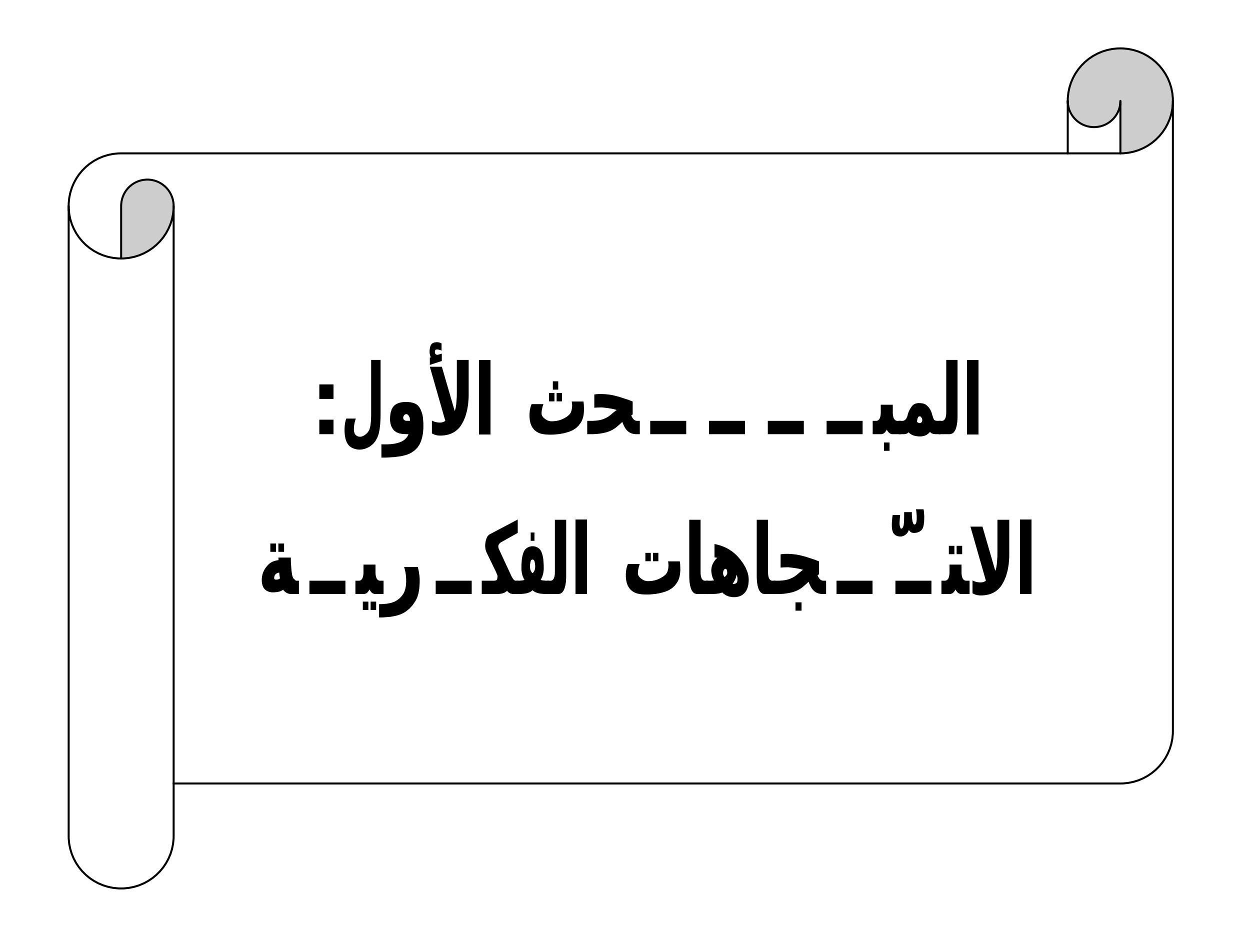
البـــــــــاب الأول:

الدراسة النّظـــــرية:

ابن القيم والحياة الفكرية في عصره



الفصـــل الأول:
لمـحة عـن حياة الإمام
ابن قيـم الجـوزيـّة



المبـــــحث الأول:

الاتّـجاهات الفكـريـة

ترجمة الإمام ابن القيم:

إن من أهم الأمور اللازمة للحفاظ على دعوة من الـدعوات أو فكـرة أو رسـالة أو هدف، هو وجود من يؤمن بتلك الدعوة أو الرسالة أو الهدف، فلا بد لكـل فكـرة أو دعوة من رجال يحملونها ويعتنقونها ويروجون لها، وأيضًا لا بـد من وجود كـوادر وأجيال تحمل هذه الفكرة والدعوة، وكلّ جيل مطالب بتوصيل الفكرة والدعوة لمن يليه من الأجيال لتكتمل المسيرة، وتصل الدعوة والفكرة لعموم الناس، حتى يتحقق ما يسمى باستفاضة البلاغ أو البلاغ العام، ونلمح هذا في جيل الصحابة الأول، الذين تربوا فـي مدرسة النبوة في بيت الأرقم بن أبي الأرقم، ولو قمنا بعمل حصر لأسماء الخـريجين من هذه المدرسة، سنسجدهم الذين حملوا عاتق الفكرة والدعوة على أكتافهم، ونشروها في أرجاء المعمورة؛ ولذلك أي دعوة من الدعوات مطالبة بتربية كوادرها على تحمـل الفكرة ونشرها بين الناس، ولعل التفريط - ولو في أقلّ القليل من هذا المطلب - لهـو أول أسباب انقراض الدعوات؛ فكم من فكرة ماتت بموت صاحبها، وكـم مـن دعـوة انقرضت بذهاب قائدها، قال رسول ا ﷺ **بَلغُوا عَني وَلو آيَة** ونلمح معنـى هذا الكلام في قول الشافعي رحمه ا عن الإمام الكبير الليث بن سـعد: كـان الليـث رحمه ا أفقه من مالك، ولكن أصحابه لم يقوموا به؛ يعني لم يكن منهم مـن يحمـل مذهب الليث فينشره بين الناس، فمات بموت الليث فقه كثير وعلم كبير، وإنّما أذكر هذه المقدمة لأن ابن القيم حمل على عاتقه نشر فكر أستاذه ومعلّمه ابن تيميـة، ذلـك لأن الأمة كانت في أمس الحاجة لمن يحمل علم هذا الأستاذ، ويروج لآرائه وأفكاره التـي مثّلت سراجًا منيرًا وسط ظلام الجمود والتعصب المـذهبي والبدع الفاشية في عصره.

أ- نسبه ونسبته: هو الفقيه، المفتي، الإمام الرباني شيخ الإسلام الثاني أبو عبـد ا شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد الزرعي ثم الدمشقي الشهير بـ" ابـن قيم الجوزية" وهو الإمام الكبير المعروف والمشهور بابن القيم، والقيم هـو النّـاظر أو المسؤول، وكان أبوه قيمًا على المدرسة الجوزية، ولد سنة (691 هـ ـ) - أي أنـه أصغر من أستاذه شيخ الإسلام ابن تيمية بثلاثين سنة- بمدينة دمشق، ونشأ من صغره على حب العلم ودراسته، فعني بسماع الحديث، وبـرع في علوم متعددة لا سيما علـم

التفسير والحديث والأصلين، وتلقّى علم الأصول على يد الصفي الهندي، وابن تيميـة وغيرهما من أهل العلم، وتفرغ لطلب العلم والاجتهاد فيه، حتى أصبح فريدًا في بابـه في فنون كثيرة، واقتنى كثيرًا من الكتب عن السلف والخلف ما لم يحصل لغيـره، ولا حتى عشر ما عنده، حتى إن أولاده وكانوا كلهم من العلماء الكبار اصـطفوا لأنفسـهم كثيرًا من هذه الكتب، ثم باعوا الباقي، فبلغ مقدارًا كبيرًا من المال لرواج بضاعته عند الناس.

ب- أسرته ونشأته وطلبه للعلم: نشأ ابن قيم الجوزية في جو علمي في كنـف والـده الشيخ الصالح قيم الجوزية، وأخذ عنه الفرائض، وذكرت كتب التراجم بعـض أفـراد أسرته كابن أخيه أبي الفداء عماد الدين إسماعيل بن زين الدين عبد الـرحمن، الـذي اقتنى أكثر مكتبة عمه، وأبناؤه عبد ا وإبراهيم، وكلّهم معروف بالعلم وطلبه، وعرف عن ابن قيم الجوزية الرغبة الصادقة الجامحة في طلب العلم والجد والتفاني في البحث منذ نعومة أظفاره، وبهذا يكون قد بدأ الطلب لسبع سنين مضت من عمره.

ويعتبر ابن القيم علما من أعلام الفكر الإسلامي في عصره، مما يدفعنا إلى الحديث عن السمات التي تميزت بها الحياة الفكرية في ذلك العصر الذي عرف بعصر المماليك أو العصر المغولي، ابتداء من سقوط بغداد على أيدي التتار سنة (656 هـ) إلى دخول السلطان سليم الشام ومصر سنة (923 هـ).

أما عن أخلاق ابن القيم " فكان حسن القراءة والخلق، كثير التودد للناس لا يحسد أحدًا ولا يؤذيه ولا يستعيبه ولا يحقد على أحد، وكنت من أصحب الناس له، وأحب النـاس إليه، ولا أعرف في هذا العالم في زماننا أكثر عبادة له منه[1] " وكان الغالب عليه الخير الجم والأخلاق الصالحة، وبالجملة كان قليل النظير في مجموعه وأموره وأحواله، أمـا عن عبادته، فقد كان عالمًا ربانيًا لا يغلب اشتغاله بالعلم على عبادته، بل كـان كثيـر العبادة، خاصة الصلاة وقراءة القرآن، وكانت له طريقة في الصلاة يطيلها جدًا، ويمـد ركوعها وسجودها، حتى كان أصحابه يلومونه كثيرًا في ذلك، وهو لا يرجع عن تلـك الطريقة في الصلاة.

---

[1] - إسماعيل ابن كثيـر الدمشقي، البداية والنهاية، تح مكتب تحـقيق التراث، د ط. بيـروت د س، دار إحياء التراث العربي للنشر والتوزيع، ج 4، ص 270.

ولقد جاور الكعبة فترة من الزمان، فرأى الناس من عبادته وتبتّله ودعائه عز وجل ما ذكرهم بأحوال الصالحين من سلف هذه الأمة، ولما سجن في معتقل الشام مع شيخه انقطع لقراءة القرآن، وأكثر من ذلك، حتى فتح ا عز وجل عليه في علـم التفسـير وصار إمامًا لا يبارى في استخراج المعاني واللطائف من الآيات، وهو مـع مكانتـه العلمية العالية التي شهد بها أهل العلم في عصره وعبادته المشهورة، إلاّ أنّه كان طويل البكاء شديد الخوف، دائم المعاتبة لنفسه على التقصير والتفريط، وكـان يتمثـل بهـذه الأبيات:

" بني أبي بكر كثير ذُنُوبه فلَيس علَي من عوضه إثم
بني أبي بكر غَدا متَصدرًا تَعلّم علمًا وهو لَيس له علم
بني أبي بكر جهود بنَفسه جهولٌ بأَمر ا أنَى له العلم
بني أبي بكر يروم تَرقّيًا إلى جنّة المأوى ولَيس له عذر[1]".

ج - مكتبته: أتم ابن القيم دراسته في وقت مبكّر، وتفقّه في المذهب الحنبلـي وبـرع وأرقى في حياة شيخه ابن تيمية، وبلغ مبلغا كبيرا في حياة كثير مـن شـيوخه، وقـد وصفه تلميذه ابن رجب بأنّه " كان عارفا بالتفسير، لا يمارى فيه بأصول الدين وإليـه فيه المنتهى، وبالحديث ومعانيه وفقهه ودقائق الاستنباط منه لا يلحق في ذلك، وبالفقـه وأصوله والعربية، وله فيها اليد الطولى، وبعلم الكلام وغير ذلك، وعالما بعلم السـلوك وكلام أهل التصوف وإشاراتهم ومتوله وبعض رجاله... وما رأيت أوسع منه علما ولا أعرف بمعاني القرآن والحديث والسنة وحقائق الإيمان منه، وليس هو بالمعصوم ولكن لم أر في معناه مثله[2]" وهكذا تصدر ابن القيم للتدريس، ونشر العلم فدرس بالصـدرية وأقام بالجوزية مدة طويلة، وكان ابن قيم الجوزية مغرمًا بجمع الكتـب، وهـذا دليـلُ الرغبة الصادقة للعلم بحثًا وتصنيفًا، وقراءةً وإقراءً يظهر ذلك في غزارة المادة العلمية في مؤلفاته، والقدرة العجيبة على حشد الأدلة، وقال ابن كثير: "واقتنى من الكتب ما لا

---

[1] - ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، د ط. بيروت: 1993، دار الجيل للطباعة والنشر والتوزيع، ج 4، ص 22.

[2] - أبو الفلاح عبد الحي بن عماد الحنبلي، شذرات الذهب، د ط. بيروت، د س، المكتب التجـاري للطباعة والنشر والتوزيع، مجل 4، ص 168.

يتهيأ لغيره تحصيل عشْره من كتب السلف والخلف[1] " وهكذا كان ابن القيم شديد المحبة للعلم والبحث، والمطالعة والتصنيف واقتناء الكتب ما لم يحصل لغيره.

د- رحلاته: وكان ابن القيم كثير الحج والمجاورة، كما ذكر في بعض كتبه " وحج مرات كثيرةً، وجاور بمكة، وكان أهل مكة يذكرون عنه من شدة العبادة، وكثرة الطواف أمرًا يتعجب منه[2]" وهكذا كان ابن القيم دائم الاحتكاك ببيت ا الحرام مما جعله شديد العبادة وكثير الطواف ببيت ا ، وقال عبد الفتاح لاشين:" وقد حج مرات عديدة، وأقام بمكّة مدة منقطعا إلى ا عز وجلّ في بيته الحرام مطرحا بين يديه متفرغا للعبادة والتأليف، وقد ألّف كتابه مفتاح دار السعادة بمكة [3]" وهكذا كان بيت ا الحرام بمثابة مكتبة لابن القيم يؤلف فيها كتبه، كما أصبح مسجدا للعبادة والتضرع إلى ا سبحانه وتعالى، والأروع في هذا الأمر كله ومن محاسن الصدف أيضا أن ابن القيم ألّف كتابه مفتاح دار السعادة في بيت ا الحرام، وهو الذي يمثل موضوع دراستنا وفي هذا الصدد يقول ابن القيم في كتابه، يصف مظهر افتقاره وابتهاله إلى ربه؛ حيث يقول: " إذ كان هذا من بعض النزل والتحف التي فتح ا بها علي حين انقطاعي إليه عند بيته، وإلقائي نفسي ببابه، مسكينا ذليلا، وتعرضي لنفحاته في بيته وحوله بكرة وأصيلا، فما خاب من أنزل به حوائجه، وعلق به آماله، وأصبح ببابه مقيما وبحماه نزيلا[4]" وهذا يعني أن مفتاح دار السعادة، والذي يمثل موضوع دراستنا ألفّه رحمه في المكة المكرمة.

هـ- ثناء العلماء عليه: قال ابن كثير: " سمع الحديث، واشتغل بالعلم وبرع في علوم متعددة ولا سيما علم التفسير والحديث الأصلين، ولما عاد الشيخُ تقي الدين ابن تيمية

---

[1]- ابن كثير، البداية والنهاية، ص 270.

[2]- الحافظ زين الدين أبو الفرج ابن رجب، ذيل طبقات الحنابلة، د ط . القاهرة: 1952 الدار المحمدية للطباعة والنشر والتوزيع، ج 2، ص 448.

[3] - عبد الفتاح لاشين، ابن القيم وحسه البلاغي في تفسير القرآن، ط 1. بيروت : 1982، دار الرائد العربي للنشر والتوزيع، ص 43.

[4] - ابن قيم الجوزية، مفتاح دار السعادة، تح علي بن حسن بن علي بن عبد الحميد الحلبي الأثري، ط 1. القاهرة: 2004، دار ابن القيم للنشر والتوزيع، ج 1، ص 215- 216.

من الديار المصرية في سنة اثنتي عشرة وسبعمائة لازمه إلى أن مات الشـيخ، فأخـذ عنه علمًا جما مع ما سلف له من الاشتغال؛ فصار فريدًا في بابه في فنون كثيرة، مـع كثرة الطلب ليلا ونهارًا، وكثرة الابتهال، وكانت له طريقةٌ في الصلاة يطيلهـا جـدًا ويمد ركوعه وسجوده ويلومه كثير من أصحابه في بعض الأحيان، فلا يرجع ولا ينزع عن ذلك، وله من التّصانيف الكبار والصغار شيء كثير، وكتَب بخطّه الحسـن شـيئًا كثيرًا [1]" وبـالجملة كان قليلَ النظير في مجموعه وأموره وأحواله، والغالب عليه الخير والأخلاقُ الصالحةُ، وكان ذا عبادة وتَهجد، وطول صلاة إلى الغاية القصـوى، وتَألـه ولهج بالذّكر، وشغف بالمحبة والإنابة والاستغفار، والافتقار إلـى ا والانكسـار لـه والإطراح بين يديه على عتبة عبوديته، ويقول ابن رجب " لم أشاهد مثله في ذلك، ولا رأيت أوسع منه علمًا، ولا أعرف بمعاني القرآن والسنة وحقائق الإيمان منه، وليس هو المعصوم، ولكن لم أر في معناه مثله[2]" ومن هنا نستنتج أن ابن القيم على دراية بفنـون كثيرة سـواء في العـلوم، والتفـسير والأصول في المنطوق والمـفهوم.

وقال السيوطي: " قد صنفَ، وناظر، واجتهد، وصار من الأئمة الكبار فـي التفسـير والحديث، والفروع، والأصلين، والعربية[3]" وتفقه في المـذهب، وبـرع وأفتـى ولازم الشيخ تقي الدين وأخذ عنه، وتفنن في علوم الإسلام، وكان عارفًا بالتفسير لا يجـارى فيه وبأصول الدين، وإليه فيهما المنتهى، والحديث معانيه وفقهه، ودقائق الاستنباط منه لا يلحق في ذلك، وبالفقه وأصوله وبالعربية، وله فيها اليد الطولى، وتعلم الكلام والنحو وغير ذلك، وكان عالمًا بعلم السلوك، وكلام أهل التّصوف وإشاراتهم ودقائقهم، له فـي كل فـن من هذه الفنون اليد الطولى.

و- محنة وثبات: ولـقد اعتقل ابن القيم مع ابن تيمية بالقلعة بدمـشق (شعبان سـنة 276 هـ) بعد أن أهين وطيف به مضروبا بالدرة، فلما مات ابن تيمية أفـرج عنـه

---

[1] - إسماعيل ابن كثير الدمشقي، البداية والنهاية، ص 270.

[2]- ابن رجب، ذيل طبقات الحنابلة، ج 2، ص 447.

[3] - السيوطي، بغيـة الـوعاة في طبقات اللغـويين والنحاة، تح محمد أبو الفضل إبراهيم، د ط. بيروت، د س، المكتبة العصرية، ج 1، ص 62.

وامتحن مرة أخرى بسبب فتاوى ابن تيمية، وحبس مرة لإنكاره شد الرحال إلى قبـر الخليل.

ي – وفاته: وفي ليلة الخميس ثالث عشر من رجب سنة (751 هـ) وقـت آذان العشاء توفي الشيخ الإمام العلامة شمس الدين محمد ابن أبي بكر بن أيوب الزرعـي إمام الجوزية وابن قيمها، وصلي عليه بعد صلاة الظهر من الغـد بالجـامع الأمـوي ودفـن عنـد والـدته بمقابـر الباب الصغير.



المبحث الثاني:
ابن القيم وجهوده العلمية

ابن القيم وجهوده العلمية:

أ- تلاميذه: إن شهرة ابن القيم ومكانته العلمية، جعلت الفضلاء يعظّمونـه ويتتلمـذون عليه، ويكبون على الأخذ عنه " وقـد كثر الآخذون عنه، وازدحمت مجالسه بالأئمـة وتلقى عنه كثير من العلماء في حياة شيخه إلى أن مات[1]" وتخرج بـه جماعة في أنواع الفنون، ومن أشهر تلامذته:

1- برهان الدين ابن الإمام؛

2- زين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن رجب (734هـ 795هـ) صاحب طبقـات الحنابلة وغيره؛

3- شمس الدين محمد بن عبد القادر النابلسي، صاحب مختصر طبقات الحنابلة لأبـي يعلى؛

4- الحافظ بن كثير، وهو عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير الدمسـقي الشافعي، صاحب البداية والنهاية؛

5- ابن عبد الهادي: هو شمس الدين أبو عبد ا بن أحمد بن عبد الهادي بن يوسـف بن محمد بن قدامة المقدسي ثم الصالحي، ولد في رجب سـنة (705 هـ) ومـن تصانيفه: تنقيح التحقيق في أحاديث التحقيق لابن الجوزي.

ومـن تلاميذ القراءة عن كتبه، وليس التلقي المباشر محمد بن علي الشوكاني المتوفى سنة (1250 هـ).

ب- شيوخه: نشأ ابن القيم بدمشق، وهي على النحو الحضاري والثقافي الذي حـددنا معالمه، وبها العديد من المدارس، ومن بينها الصدرية والجوزية اللتان كان لـه صـلة بهما، ولـما كان أبوه فقيهاً حنبلياً بارعاً في الفرائض، أخذ عنه ابنه هذا الفـرع مـن فروع الفقه، وذلك بطبيعة الحال، وكما هي العادة بعد حفظ القرآن ومعرفـة القـراءة والكتابة وطرف من العلوم الأولية " وقد درس أيضا على أيدي التقي سليمان أبي بكـر

---

[1] - أبو عبد الرحمن عبد المجيد جمعة الجزائري، القواعد الفقهية المستخرجة من كتـاب إعلام الموقعين، ط 1. القاهرة، د س، دار ابن القيم للنشر والتوزيع، ص 75.

بن عبد الدائم، والمطعم ابن الشيرازي وإسماعيل بن مكتوم، وقرأ العربية على ابن أبي الفتح والمجد الأونسي، وقرأ الفقه على المجد الحراني وابن تيمية[1] " كمـا سـمع مـن الشهاب النابلسي، وقرأ الأصول على الصفي الهندي وابن تيمية، كما تلقى ابـن قـيم الجوزية العلم على كثير من المشايخ ومنهم:

1 - قيم الجوزية والده؛

2 - المزي.

ومن بين شيوخه أبو محمد بن تيمية شقيق أبي العباس شـيخ الإسـلام ابـن تيميـة لازمه، وتفقه به، وقرأ عليه كثيرًا من الكتب، وبدأت ملازمته له سـنة (712 هـ ـ) حتى توفي شيخ الإسلام سجينًا في قلعة دمشق (728 هـ) وقد أشار إليه فـي كتبـه ونعته بقوله "شيخنا" بيد أن أكثر شيوخ ابن القيم أثـرا فيه هو تقي الدين أبو العباس بن تيمية، وقد لازمه تلميذه أطول مدة ممكنة، وتعلق به، حتى وصف بأنه قد " غاب عليه حب ابن تيمية حتى كان لا يخرج عن شيء من أقواله، بل ينتصر له في جميع ذلـك وهو الذي هـذّب كتبه ونشر علمه، واعتقل مع ابن تيمية بالقلعة (بدمشق) بعـد أن أهين وطيف به على جمل مضروبا بالدرة، فلما مات أفرج عنه وامتـحن مرة أخرى بسبب فـتاوى ابن تيمية، وكـانت مـدة ملازمته لابن تيمية منذ عـاد من مصـر سنـة (712 هـ) إلـى أن مات[2]" أي أن هـذه المـلازمة استمـرت إلـى عـام (728 هـ) أي نحو ستة عشر عاما.

ج- ابن القيم وصلته بابن تيمية: كان ابن تيمية من أشهر فقهـاء الحنابلـة، وأكبـر مفكري الإسلام، وأغزرهم نتاجا " ولد بحران القريبة من دمشق سنة (661 هـ) وقد برع في علوم القرآن والحديث والفقه والكلام وغير ذلك، وكان يتمتع بذكاء مفرط وذاكرة قوية مكنته من الحفظ، وسرعة الاستحضار والتوسع في المعقـول والمنقـول والاطّلاع على مذاهب السلف والخلف[3]" وهو وإن كان حنبليا فقد كان لا يرى المذهب الحنبلي في بعض المسائل، حتى قال بعض العلماء: إنه لا يتقيد بمذهب، وقـد جلبـت

[1] - ابن حجر، الدرر الكامنة، ص 12.

[2] - المرجع نفسه، ص 21.

[3] - عبد الفتاح لاشين، ابن القيم وحسه البلاغي في تفسير القرآن، ص 18.

عليه حريته في الجدل والمناضرة، وحدته في المناقشة عداوة كثير مـن العلمـاء فـي عصره، وأدى ذلك إلى دخوله السجن مرات، ومع ذلك كان لا يتخلى عـن مهاجمتـه لأصحاب البدع، وقد وافته المنية وهو في السجن عام (728 هـ) وكانت ملازمة ابن القيم لابن تيمية منذ عاد من مصر سنة (712 هـ) إلى أن مات؛ أي أن صـلته بـه بدأت حين بلغ من العمر إحدى وعشرين سنة، سن الفتوة والتفتح الناضج، واسـتمرت حتى بلغ ابن القيم نحو سبعة وثلاثين عاما، وكثرة إشادة ابن القيم بابن تيمية تعبر عن حب التلميذ وتقديره للشيخ، كما أنها مظهر لأدب العلماء، ذلك أن من شُـكْر العلـم أن تقول: أفادني فلان كذا وكذا، يقول ابن القيم مثلا " وكثيرا ما كنت أسمع شيخ الإسـلام ابن تيمية –قدس ا روحه- يقول: إياك نعبد تدفع الرياء وإياك نستعين تدفع الكبرياء[1]" ومع هذه السن، وما صاحبها من شهرة علمية؛ فإن ابن القيم يحكي أنه سأله عن مسألة فرد ابن تيمية: " إنها عظيمة كبيرة، ولم يجب فيها بشيء، فمضى على ذلك زمن حتى رأى ابن القيم في تفسير عبد بن حميد جوابها، فأرسل إلى ابن تيمية الكتاب، وهو فـي مجلسه الأخير، وعلمت على ذلك الموضع، وقلت للرسول: قل له هذا الموضع يشـكّل عليه ولا يدرى ما هو...[2]" وهكذا تكون العلاقة بينهما علاقة تجـاوب فكـري...أخـذ وعطاء، كان له صداه في شهرتيهما جميعا، فلا يكاد يعرف تلميذ لابن تيمية برز فـي مجال الدعوة مثلما برز ابن القيم، ولا يكاد يعرف آثار شيوخ ابن القـيم أو مـن هـم هؤلاء الشيوخ مثلما نعرف ابن تيمية وأثره " وابن القيم تلميذ ابن تيمية الـذي قـدمنا صورة من حياته المليئة بالنشاط العلمي والحركـة غيـر العاديـة والمليئـة بـالمحن والمواقف القوية في أوقات الشدة التي تكشف عن معدن صاحبها الأصيل، وهو محـب لشيخه معجب بمواقفه، مدافع عن آرائه في أغلب الأحيان، وقد شاركه بنفسـه سـراء حياته وضراءها[3] " ومن هنا نكتشف سر حب ابن القيم لشيخه ابن تيمية، ولقـد قـرأ

---

[1] - ابن قيم الجوزية، التفسير القيـم، تح محمد حامد الفـقي، د ط. بيـروت: 1988، دار الفكـر للطباعة والنشر والتوزيع، ص 84.

[2] - المرجع نفسه، ص 264.

[3] - طاهر سليمان حمودة، ابن قيم الجوزية، جهوده في الدرس اللغوي، ص 14.

عليه فنونًا كثيرة، وبدأت هذه الملازمة بتوبة ابن قيم الجوزية على يدي شـيخه ابـن تيمية، كما أشار إلى ذلك بقوله:

يـا قـوم وا العظيـم نَصـيحةٌ ـ مـن مشـفق وأخ لَكُـم معـوان

جربتُ هـذا كُلّـه ووقعتُ فـي ـ تلك الشبـاك وكُنتُ ذا طَيـران

حتى أتـاح لـي الإلـه بفَضلـه ـ مـن لَيس تُجـزيه يـدي ولسـاني

أرض حـران فيا أهلاً ـ بمـن قـد جـاء من حـران

وكان لهذه الملازمة أثر بالغٌ في نفس ابن قيم الجوزية، فشارك شيخه في الـذب عـن المنهج السلفي، وحمل رايتَه من بعده، وتحرر من كل تبعية لغير كتاب ا وسنة رسول ا ﷺ بفهم السلف الصالح، قال الشوكاني: " وليس له على غير الدليل معـول فـي الغالب، وقد يميل نادرًا إلى المذهب الذي نشأ عليه، ولكنه لا يتجاسر على الـدفع فـي وجوه الأدلة بالمحامل الباردة كما يفعله غيره من المتمذهبين، بل لا بد له من مستند في ذلك، وغالب أبحاثه الإنصافُ والميلُ مع الدليل حيث مال، وعدم التعويل علـى القيـل والقال، وإذا استوعب الكلام في بحث وطول ذيولَه أتى بما لم يأت به غيره، وساق ما ينشرح له صدور الراغبين في أخذ مذاهبهم عن الدليل، وأظنّها سـرت إليـه بركـةُ ملازمته لشيخه ابن تيمية في السراء والضراء والقيام معه في محنه، ومواساته بنفسـه وطول تردده إليه[1]" وبالجملة فهو أحد من قام بنشر السنة، وجعلها بينـه وبـين الآراء المحدثة أعظم جنة، فرحمه ا وجزاه عن المسلمين خيرًا، ومع هذا كله فلم يكن ابـن قيم الجوزية نسخةً من شيخه ابن تيمية، بل كان متفننًا فـي علـوم شـتى - باتفـاق المتقدمين والمتأخرين- تدل على علو كعبه، ورسوخه في العلم، وكيف يكون ابن قـيم الجوزية مرددًا لصدى صوت شيخه ابن تيمية، وهو ينكر التقليد ويحاربه بكل ما أتـي من حول وقوة؟! وقد أخذ من ابن تيمية الخلق، وكان جريء الجنان...وكان ابن القيم إذا صلى الصبح جلس مكانه يذكر ا حتى يتعالى النهار ويقول: هذه غدوتي، لو لـم

---

[1] - الشـوكاني محـمد بن علي، البدر الطالع، ط 1. القـاهرة، د س، دار السـعادة للنشـر والتوزيع، ج 2، ص 143.

أقعدها لسقطت قـواي، وفي هذا المعنى يتضح شأن القلب الذي يصبر لربـه بالليـل فيكون قيامه بالليل عونا على ما هو بصدده بالنهار، ومادة لقـوته ظاهرا وباطنا.
وكان لقاؤه مع شيخ الإسلام نقطة تحول في حياته، وذلك أن ابن القيم كان في بداياته له ميل لعلوم السلوك والتصوف وكلام الإشارات والرموز، وهذا ظاهر من بعض مؤلفاته التي ألفها قبل الالتقاء مع ابن تيمية أو قبل التأثر به، مثل كتـاب طريـق الهجـرتين. فأدرك ابن تيمية بعين المربي الواعي أن هذا التلميذ - ابن القيم - مميزًا عن غيـره ويرجى منه خير كثير؛ فضمه إليه، وتفرغ له ابن القيم كذلك، وأعطـاه ابـن تيميـة خلاصة علمه وتجربته وآرائه، فحمل عنه ابن القيم علمًا جمًا كثيـرًا، وهـذا يوضـح أهمية اختيار المربين قبل اختيار التلاميذ؛ لأن المربي الواعي الفاهم يستطيع أن يتخير الأصلح والأنسب لحمل الفكرة والدعوة والخلافة على العمل؛ ذلك لأن الدعوة عادة هي أقدم من الداعية وطابور الدعاة طويل، وممتد عبر الزمان من لدن الرسول ﷺ إلـى قيام الساعة، وهكذا تحول ابن القيم من سلوك طريق التصوف إلـى طريـق السـلف الصالح، وحمل علم شيخ الإسلام بعد موته، وقام بنشره والدفاع عنه، ونصـر آرائـه وأقواله الفقهية خاصة فتوى الطلاق التي أوذي بسببها ابن تيمية وابن القيم كثيرًا، حتى إن ابن تيمية مات في معتقل الشام بسبب تلك الفتوى، وكان معه في المعتقل ابن القـيم ولم يفرج عنه إلا بعد وفاة شيخه ابن تيمية " وقد تعرض لمثل ما تعرض له شيخه ابن تيمية من العذاب والتكيل، وفي مسائل قد تكون متشابهة؛ إذ مصدرها حريـة الـرأي والبحث الحر، إلا أن ابن تيمية تعرض للبطش والتنكيل أكثر من ابن القيم[1]" ورغم هذا الاضطهاد والابتلاء لم يمنع ابن القيم من مواصلة الدفاع عن آراء أستاذه ونشر مذهبه بين الناس، حتى كان ابن القيم هو صاحب الفضل الأكبر في بقاء علم شـيخ الإسـلام على الساحة، حافظ عليه ونقله للأجيال التالية حتى ينتفع به المسلمون.
د- آثـــــــــاره: إن الحديث عن آثاره متّصل الأسباب بالحديث عن ثقافتـه؛ إذ يمكن عن طريق ما خلف منها أن نتعرف على عقليته ومنهجه الفكري، فالآثار مـرآة صاحبها تحفظ صورته رغم تعاقب السنين، وتبين اتجاهاته وميادين فكره.

[1] - عبد الفتاح لاشين، ابن القيم وحسه البلاغي في تفسير القرآن، ص 34.

ويعد ابن القيم من المكثرين في التأليف، فكتبه كثيرة وجانب غير قليل منهـا مبسـوط ضخم الحجم " ولكن ابن القيم لا يبلغ مبلغ شيخه ابن تيمية في كثرة التأليف، فقد بلـغ ابن تيمية في ذلك مبلغا كبيرا، لا يكاد يصل إلى طبقته في المؤلفين الإسلاميين جميعـا إلا عدد قليل لا يجاوز أصابع اليد الواحدة "[1] وهكذا ضرب ابن قيم الجوزية بحظ وافر في علوم شتى، يظهر هذا الأمر جليا لمن استقصى كتبه التي كانت للمتقين إمامًا، وأفاد منها الموافق والمخالف.

هـ - أشهر مؤلفاته مرتبة على حروف المعجم:

1- اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية (طبع بالهند)؛

2- أحكام أهل الذمة؛

3- أخبار النساء (طبع بالقاهرة عام 1307 هـ ، 1319هـ)؛

4- إعلام الموقعين عن رب العالمين (طبع أكثر عن طبعة وقد رجعت إلى الطبعـة التي حققها الشيخ محمد محي الدين عبد الحميد –القاهرة- 1347 هـ -1955هـ)؛

5- إغاثة اللهفان في حكم طلاق الغضبان (طبع بالقاهرة عام 1318 هـ)؛

6- إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان (المطبعة الميمنية بالقاهرة 1320هـ)؛

7- أقسام القرآن (طبع بمكة عام 1321 هـ) وقد طبع بالقاهرة باسم: التبيـان فـي أقسام القرآن – مطبعة حجازي 1352 هـ)؛

8- أمثال القرآن (ذكره ابن عماد)؛

9- بدائع الفوائد (أربعة أجزاء في مجلدين طبع بالقاهرة بإدارة الطباعة المنيرية طبعة بدون تاريخ)؛

10- بـيان الدليل على استغناء المسابقة عن التحليل (ذكر ابن عماد انه فـي مجلـد واحد)؛

11- التحرير فيما يحل ويحرم من لباس الحرير (ذكر ابن عماد أنه في مجلد واحد)؛

12- تحفة المودود في أحكام المولود (ذكر ابن عماد أنه في مجلد واحد)؛

13- تفضيل مكة على المدينة (ذكر ابن عماد أنه في مجلد واحد)؛

---

[1] - طاهر سليمان حمودة، ابن قيم الجوزية، جهوده في الدرس اللغوي، ص 42.

14- تهذيب سنن أبي داود وإيضاح مشكلاته والكلام على ما فيه من الأحاديث المعلولة (ذكر ابن عماد أنه في مجلد واحد)؛

15- جلاء الإفهام في الصلاة والسلام على خير الأنام (القـاهرة - إدارة الطباعـة المنيرية 1357 هـ)؛

16- جوابات عابدي الصلبان وأن ما هم عليه دين الشيطان (ذكره ابن عماد)؛

17- الجواب الكافي، لمن سأل عن الدواء الشافي (طبع بالقاهرة عـام 1322 هـ - وطبع غير هذه الطبعة)؛

18- حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح (القاهرة عام 1326 هـ)؛

19- حكم أغمام هلال رمضان (ذكر ابن عماد أنه في مجلد واحد)؛

20- حكم تارك الصلاة (القاهرة 1322 هـ)؛

21- الداء والدواء (ذكر ابن عماد أنه في مجلد واحد)؛

22- رفع اليدين في الصلاة (ذكر ابن عماد أنه في مجلد واحد)؛

23- الروح (مطبوع بحيدر آباد عام 1318 هـ – 1324 هـ)

24- روضة المحبين ونزهة المشتاقين (مطبعة الترقى- القاهرة 1349 هـ)؛

25- زاد المسافرين إلى منازل السعادة في هدى خاتم الأنبياء (ذكر ابن عماد أنه في مجلد واحد)؛

26- زاد المعاد في هدي خير العباد (المطبعة المصرية ومكتبتها- القاهرة)؛

27- الشافية الكافية في الانتصار للفرقة الناجية (مكتبة المنار- القاهرة 1322 هـ)؛

28- شرح أسماء الكتاب العزيز (ذكر ابن عماد أنه في مجلد واحد)؛

29- شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل (طبعـة القـاهرة عـام 1323 هـ قامت بها مكتبة الرياض الحديثة)؛

30- الصراط المستقيم في أحكام أهل الجحيم (ذكر ابن عماد أنه مجلدان)؛

31- الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة (ذكر ابن عماد أنه مجلدان)؛

32- الطاعون (ذكر ابن عماد أنه مجلد)؛

33- الطب النبوي (المطبعة العلمية 1927 هـ)؛

34- الطرق الحكمية في السياسة الشرعية (مطبعة المؤيد- القاهرة- 1317 هـ)؛

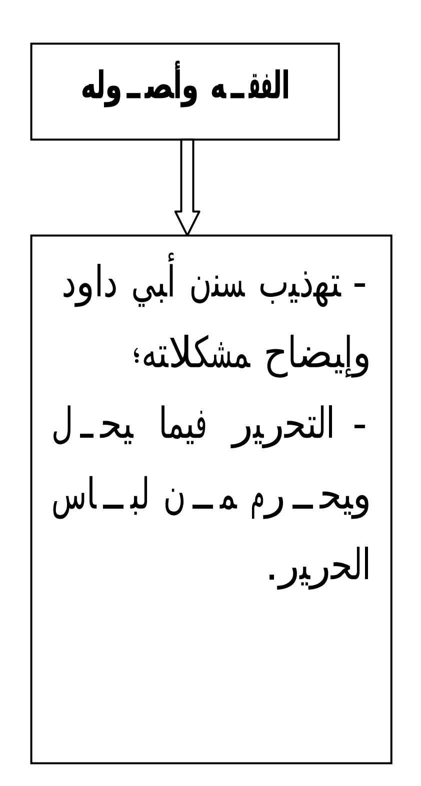
35- طريق الهجرتين (إدارة الطباعة المنيرية- القاهرة- 1357 هـ)؛
36- عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين (طبعة الإمام- القاهرة- 1972 هـ)؛
37- عقـد محكم الأحقاد بيـن الكلم الطيب والعمل الصالح المرفوع إلى رب السماء (ذكر ابن عماد أنه مجلد)؛
38- الفتح القدسي والتحفة المكية (ذكره ابن عماد)؛
39- الفرق بين الخلة والمحبة ومناضرة الخليل لقومه (ذكر ابن عماد أنه مجلد)؛
40- الفروسية الشرعية النبوية (مطبعة الأنوار- القاهرة1941 م)؛
41- فضل العلم (ذكر ابن عماد أنه مجلد)؛
42- الفوائد (طبعة العاصمة- القاهرة)؛
43- الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان (الطبعة الأولى مطبعة السـعادة- القاهرة 1227 هـ)؛
44- مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (الطبعة الأولـى- مطبعـة المنار بالقاهرة)؛
45- مسائل ابن تيمية التي جمعها ابن القيم (مكتبة المنار القاهرة 1322 هـ)؛
46- المسائل الطرابلسية (ذكر ابن عماد انه مجلدان)؛
47- مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة (نشر مكتبة المتنبـي مطبعـة الإمام بالقاهرة طبعة حديثة عام 1976 هـ)؛
48- فقد المنقول والمحك الممين بين المردود والمقبول (ذكر ابن عماد أنه مجلد)؛
49- نكاح المحرم (ذكر ابن عماد أنه مجلد)؛
50- نور المؤمن وحياته (ذكر ابن عماد أنه مجلد)؛
51- هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى (طبع بهامش كتـاب الفـارق بـين المخلوق والخالق لعبد الرحمن زاده- القاهرة- مطبعة الموسوعات عام 1222 هـ)؛
52- الوابل الصيب في الكلم الطيب (طبعة دار الزيني1378 هـ).

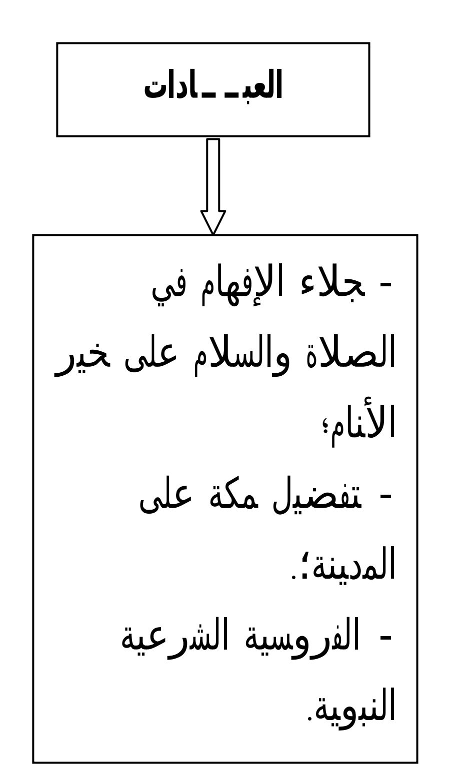
ويمكن أن نمثل للتوجهات الكبرى لمؤلّفات ابن القيم بهذه الترسيمة:


المؤلفات العلمية لابن قيم الجوزية
الفقه وأصوله
- إعلام الموقعين عن رب العالمين؛
- الطرق الحكمية في السياسة الشرعية؛
- حكم تارك الصلاة؛
- زاد المعاد في هدي خير العباد؛
- مفتاح دار السعادة؛
- نكاح المحرم؛
- فقد المنقول والمحك المميز بين المردود والمقبول؛
اللّغة
- بدائع الفوائد؛
- الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان؛
العبادات
- أحكام أهل الذمة؛
- الوابل الصيب في الكلم الطيب؛
- هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى؛
- نور المؤمن وحياته؛
- مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين؛
- الفرق بين الخلة والمحبة ومناظرة الخليل لقومه؛
التصوف
- مدارج السالكين.
- روضة المحبين ونزهة المشتاقين.
- عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين.
- الفوائد.
الكلام
- شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل؛
- الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة؛
- الشافية الكافية في الانتصار للفرقة الناجية؛
- حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح؛
- اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية؛
- الروح.



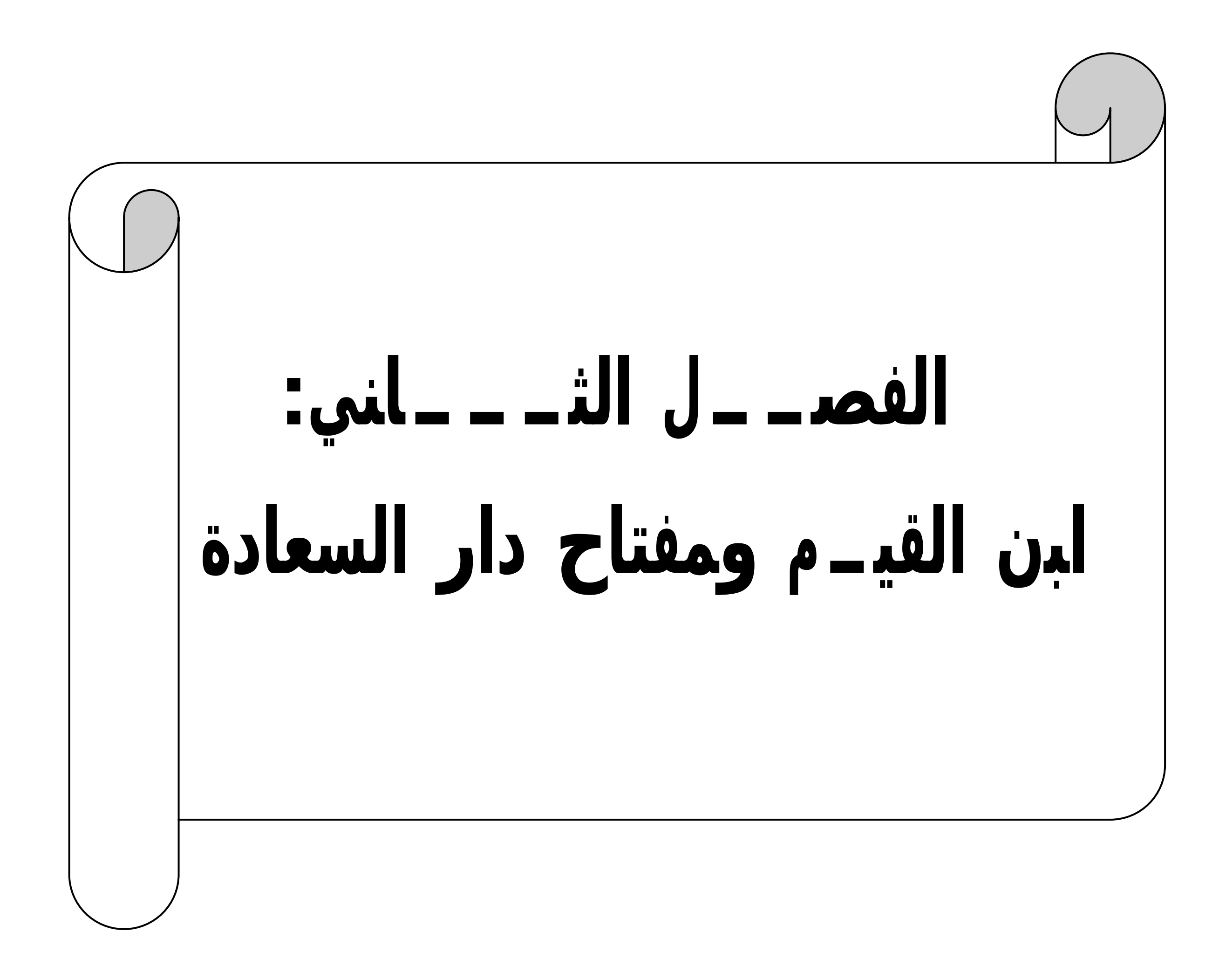
الفقه وأصوله
- مسائل ابن تيمية التي جمعها ابن القيم؛
- الفروسية الشرعية النبوية؛
- الفتح القدسي والتحفة المكية؛
- الطرق الحكمية في السياسة الشرعية؛
- إغاثة اللهفان في حكم طلاق الغضبان؛
- زاد المسافرين إلى منازل السعادة في هدى خاتم الأنبياء؛
- حكم أغمام هلال رمضان؛
- جوابات عابدي الصلبان؛
- تحفة المودود في أحكام المولود؛
العبادات
- عقد محكم الأحقاد بين الكلام الطيب والعمل الصالح المرفوع إلى رب السماء؛
- عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين؛
- طريق الهجرتين
- الطب النبوي؛
- الطاعون؛
- الصراط المستقيم في أحكام أهل الجحيم؛
- شرح أسماء الكتاب العزيز؛
- رفع اليدين في الصلاة؛
- الداء والدواء؛
- الجواب الكافي؛
- أمثال القرآن؛
- أقسام القرآن؛
التاريخ
- أخبار النساء؛
- المسائل الطرابلسية.





ويعد ابن القيم من المكثرين في التأليف، فصنّف في الميادين التي بيننا دراسته لها وكانت غالب عنايته منصرفة إلى الفقه وأصوله والعبادات والتصوف، وما يتصل بالتوحيد وعلم الكلام، وألف في اللغة كتابا ممتازا وهو بدائع الفوائد، وإذا كان من المصنفات ما يتناول الدين في جانبه العقائدي كما فعل المتكلمون، ومن الكُتّاب ما يتناول العبادات، ومنهم من يتناول المعاملات أو هما معا كما فعل الفقهاء، وتناولت المتصوفة الجانب النفسي أو الوجداني في النصوص الدينية؛ فإنّنا نرى أن مؤلفات ابن القيم تُعبر عن قمة من قمم الفكر العربي الإسلامي حين تجمع بين هذه العلوم، ولقد كانت هذه الكثرة من المؤلفات سببا في حيرة بعض الباحثين؛ إذ لم تجد من ينفض عنها غبار الزمن الطويل وينشرها كاملة.

ذلكم إذن ما يفوق الخمسين كتابا، وهذه المصنفات تمثّل وحدة الثقافة الإسلامية.



الفصــل الثـــاني:

ابن القيـم ومفتاح دار السعادة


المبحث الأول:
مفتاح دار السعادة
أهميته * منهجه

مفـتاح دار السـ ـ ـ ـعادة
أهمـيته * منـ ـهجه

قـ د يصعب على الباحث الموازنة أو المفاضلة بين مؤلّفات عـالم مـا ومصـنّفاته فكيف إذا كانت هـذه المؤلّفات لعالم موسوعي تتنافس مؤلفاته فيما بينها أيهـا أعلـى وأغلى وأحلى، وهذا الكتاب الذي بين أيدينا من أدلّ الشواهد على ذلك وأوضحها، فهو كتاب شامل لكثير من المعارف العلمية، والفوائد الحديثيـة والفقهيـة وغيـر ذلـك... ولمعرفة ذلك أعقد هذا المبحث بالمقاطع الـتالية:

1 **- حول اسم الكتاب واستمداده: أ- نسبة الكتاب إلى ابن قيم الجوزية:** اشتهر كتاب (مفتاح دار السعادة) بنسبته إلى الإمام ابن قيم الجوزية رحمه ا ، وكـان أهل العلم ينقلون عنه، وينسبونه إليه، مثل السيوطي في (شرح سنن النسائي، ج 3، ص: 141) والزبيدي في (شـرح الإحياء، ج 1، ص: 187)...

وكـان ابن القيم نفسه قد عـزا إليه- ناسبا إيّاه لنفسه- في عدد من مؤلفاته، كما في (المدارج، ج 1، ص 91 / ج 3، ص: 490) و(زاد المعاد، ج 3، ص: 114) ... وأن سـائر من تـرجم للمؤلف ذكـر هـذا الكتـاب من تواليفـه؛ كابـن رجب في (ذيل طبقـات الحنابلة، ج 2، ص: 450) وابـن حجـر فـي (الـ ـدرر الكامنـة ج 2، ص: 271) ...

ب- تسميته بلفـظ (مفتاح دار السعادة): وهذا ما أشار إليه الإمام ابن القيم؛ حيـث **قال في الجزء الأول، ص: 214** "... وسميته مفتاح دار السعادة، ومنشور ولاية أهـل العلم والإرادة[1]" إنّما سمى ابن القيم كتابه بـ (مفتاح دار السعادة) على عادتـه فـي إبداع أسامي مؤلفاته؛ لتدفق صدره ببثّ ما ألهم الفتّاح عليه من النعمة في تدبر القرآن الكريم، والغوص في بحر الدين والفـقه والشريعة.

وإذا تأملنا كلمات هذا العنوان، رأينا أن لها في اللغة معان، وهي كالتالي:

---

[1] - ابن قيم الجوزية، مفتاح دار السعادة، ج 2، ص 271.

* **مفتاح**: ورد في معجم الوسيط: " فـتح: بين الخصمين فتحا قضى، وفـي التنزيـل العزيز: **ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق** وعليه هداه وأرشده، يقال فـتح علـى القارئ، لقّنه ما نسيه فقرأه وهيأ له سبل الخير، المفتاح: آلـة الفـتح، (ج) مفـاتيح ومفاتح، وفي التنزيل العزيز: **وعنده مفاتح الغيب** "[1]

* **دار**: ورد في المعجم الوسيط: " الـدار: يقال رزق دار دائـم لا ينقطـع"[2]

***السـعادة**: ورد في المعـجم الوسيط: " السـعادة معاونة ا للإنسان علـى نـ ـيل الخير، وتضاد الشقـاوة"[3] وهذه التسمية سليمة تنتظم موضوع الكتاب ومادتـه، فهـذا الكتاب حقا يمثل مفتاح دار السعادة، والذي كان مقصوده تنبيه القلب من رقدته بالإشارة إلى شيء من بعض آياته، وأحسن ما أنفقت فيه الأنفاس التفكر في آيات ا وعجائـب صنعه، والانتقال منها إلى تعلّق القلب، والهمة به دون شيء من مخلوقاته، ولما كـان هذا العهد الكريم والصراط المستقيم والنبأ العظيم لا يوصل إليه أبدا إلا من باب العلـم والإرادة؛ فالإرادة باب الوصول إليه، والعلم مفتاح ذلك الباب المتوقف فتحه عليه، فحقّ على من كان في سعادة نفسه ساعيا، وكان قلبه حيا على ا واعيا، أن يجعـل العلـم والإرادة مـدار أقواله وأعماله، وأن يصيرها آخيته، التي إليها مفزعه في حياته ومآله فلا جرم كان وضع هذا الكتاب مؤسسا على هاتين القاعدتيـن؛ إذ همـا أفضـل مـا يكتسـبه العبـد في هـذه الـدار.

2- مـوضوعه: قال ابن القيم في الجزء الثاني ص: 67: " التفكّر والتّـذكّر أصـل الهدى والصلاح، وهما قطبا السعادة، ولهذا وسعنا الكلام في الفكر في هذا الوجه، لعظم المنفعة وشدة الحاجة إليه، قال الحسن: ما زال أهل العلم يعودون بالتّذكّر على التّفكّـر وبالتّفكّر على التّذكّر، ويناطقون القلوب حتى نطقت؛ فإذا لها أسماع وأبصار، فاعلم أن التفكر طلب القلب ما ليس بحاصل من العلوم من أمر هو حاصل منها، هذا حقيقته فإنّه لو لم يكن ثمّ مواد تكون موردا للفكر استحال الفكر؛ لأن الفكر بغير متعلق متفكر فيـه محال، وتلك المواد هي الأمور الحاصلة، ولو كان المطلوب بها حاصلا عنده لم يتفكّر

---

[1] المعجـم الوسيط، تح مجمع اللغة العربية، ط 3. القاهرة: 1985 ج 3، مادة فتـح.

[2] - المرجع نفسه، ج 1، مـادة دار.

[3] - المرجع نفسه، ج 2، مادة سعد.

فيه، فإذا عرف هذا؛ فالمتفكّر ينتقل من المقامات والمبادئ التي عنده إلى المطلوب الذي يريده، فإذا ظفر به وتحصل له تذكّر به وأبصر مواقع الفعل والترك، وما ينبغي إيثاره وما ينبغي اجتنابه، فالتذكر هو مقصود التفكر وثمرته؛ فإذا تذكر عاد بتذكره على تفكره فاستخرج ما لم يكن حاصلا عنده، فهو لا يزال يكرر بتفكره على تذكره، وبتذكره على تفكره مادام عاقلا؛ لأن العلم والإرادة لا يقفان على حد، بل هو دائما سائر بـين العلـم والإرادة، وإذا عرفت معنى كون آيات الرب تبارك وتعالى تبصرة وذكرى يتبصر بها من عمى القلب، ويتذكر بها من غفلته، فإن المضاد للعلم إما عمـى القلـب، وزوالـه بالتبصر وإما غفلته، وزواله بالتذكر، والمقصود تنبيه القلب من رقدته بالإشـارة إلـى شيء من بعض آيات ا ، ولو ذهبنا نتتبع ذلك لنفذ الزمان، ولم نحط بتفصيل واحدة من آياته على التمام، ولكن ما لا يدرك جملة لا يترك جملة، وأحسن ما أنفقت فيه الأنفاس التفكر في آيات ا وعجائب صنعه، والانتقال منها إلى تعلق القلب والهمـة بـه دون شيء من مخلوقاته، **فلذلك عقدنا هذا الكتاب على هذين الأصلين، إذ هما أفضـل مـا يكتسبه العبد في هذه الدار..** فلا جرم كان وضع هذا الكتاب مؤسسـا علـى هـاتين القاعدتين، ومقصوده التعريف بشرف هذين الأصلين وسـميته "**مفتـاح دار السـعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة...**"[1] ويظهر جلياً من خلال هذه المقاطع إسهاب ابن القيم في حديثه عن فضل العلم والعلماء، والمتصفّح لهذا الكتاب يلاحظ أنه أكثر ما شغل صفحاته، فالتبصرة: التعقل، والذكرى: التذكر، والفكر باب ذلك ومدخلـه، فـإذا فكـر تبصر، وإذا تبصر تذكر، وكمال كل إنسان إنّما يتم بهذين النوعين: همة ترقيه، وعلـم يبصره ويهديه؛ فإن مراتب السعادة والفلاح إنما تفوت العبد من هاتين الجهتين، أو من إحداهما، إما أن لا يكون له علم بها فلا يتحرك في طلبها، أو يكـون عالمـا بهـا ولا تنهض همته إليها، فلا يزال في حضيض طبعه محبوسا، وقلبه عن كماله الذي خلق له مصدودا منكوسا، وقد أسام نفسه مع الأنعام راعيا مع الهمل، واستطاب لقيمات الراحة والبطالة، واستلان فراش العجز والكسل، لا كمن رفع له علم، فشمر إليه، وبورك لـه في تفرده في طريق طلبه، فـلزمه واستقام عليه، قد أبت غلبات شوقه إلا الهجرة إلـى

[1] - ابن قيم الجوزية، مفتاح دار السعادة، ج 2، ص 67.

ا ورسوله، ومقتت نفسه الرفقاء إلا ابن سبيل يـرافقه في سبيله، فـهذا هـو إذن مضمون هـذه التحفة.

3- منهج المؤلف في كتابه: ولمّا بنى المؤلف كتابه على أصلي العلـم والإرادة ومـا لازمهما من موضوع التّفكّـر والتّذكّـر أفاض كثيرا في الحديث عنهما، فأداه ذلك إلى طرق موضوعات كثيرة، **فقال في الجزء الثاني من الكتاب ص: 182** بعد استـطراده حول مسـألة الحـكمة "... وهذا فصل معترض، وهو أنفع فصول الكتـاب، ولـولا الإطالة لوسعنا فيه المقال، وأكثرنا فيه من الشواهد والأمثال، ولقد فتح ا الكريم فيـه الباب وأرشـد فيه إلى الصواب، وهو المرجو لتمام نعمته ولا قـوة إلا بـا العلـي العظيم[1] " وهذه طريقة ابن القيم في معالجة المسائل الدينيـة والفقهيـة؛ فهـو كثيـر الاستطراد، والانتقال من موضوع إلى موضوع آخر، ومعنى كلامه هذا أن ابن القـيم تطرق إلى مواضيع كثيرة في كتابه، ومن بينها الحكمة، والتي تُعتبر من أهم فصـول الكتاب، ولولا الإطالة لوسع فيه المقال مع كثرة الأمثلة والشـواهد، حتـى لا يـدع القارئ تائها بيـن المسائل الشائكة التي لا يعرف لها حلولا.

وقال في الجزء الثاني من الكتاب ص: 245 بعـد بيان منّة ا على خلقه: " فـتدبر هذا الفصل فإنّه من الكنوز في هذا الكتاب، وهو حقيق بأن تثنى عليـه الخناصـر و الحمد والمنة[2] " وهو كذلك، ولذلك أفاض ابن القيم كثيرا في بيان منة ا على خلقـه. والمقصود أن ا سبحانه أعطى العبد من هذه المعارف وطرقها، ويسرها عليه ما لـم يعـطه من غـيرها لعظم حاجته في معاشه ومـعاده، ثـم وضع فـي العقـل مـن الإقرار بحسن شرعه ودينه الـذي هو ظله في أرضه وعدله بين عباده...

وقال في خاتمة كتابه: " وليكن هذا آخر الكتاب، وقد جلبت إليك فيه نفائس في مثلهـا يتنافس المتنافسون، وجليت عليك فيه عرائس إلى مثلهن بادر الخاطبون: فـإن شـئت اقتبست منه معرفة العلم وفضله، وشدة الحاجة إليه وشرفه، وشرف أهله وعظم موقعه في الدارين.

---

[1] - ابن قيم الجوزية، مفتاح دار السعادة، ج 2، ص 182.

[2] - المرجع نفسه، ص 245.

وإن شئت اقتبست منه معرفة إثبات الصانع بطرق واضحات جليات، تلج القلوب بغير استئذان، ومعرفة حكمته في خلقه وأمره.
وإن شئت اقتبست منه معرفة قـدر الشريعة، وشدة الحاجة إليها، ومعرفـة جلالتهـا وحكمتها.
وإن شئت اقتبست منه معرفة النبوة وشدة الحاجة إليها، بل وضرورة الوجـود إليهـا وأنّـه يستحيل من أحكم الحاكمين أن يخلي العالم عنها.
وإن شئت اقتبست معرفة الـرد على المنجمين القائلين بالأحكام بأبلغ طرق الرد مـن نفس صناعتهم وعلمهم، وإلزامهم بالالزامات المفحمة التي لا جواب لهم عنها، وإبـداء تناقضهم في صناعتهم، وفضائحهم وكذبهم على الخلق والأمر.
وإن شئت اقتبست منه معرفة ما فطر ا عليه العقول من تحسـين الحسـن، وتقبـيح القبيح، وإن ذلك أمر عقلي فطري بالأدلة والبراهين التي اشتمل عليها هذا الكتاب، ولا توجـد في غيـره.
وإن شئت اقتبست منه معرفة الطيرة والفأل والزجر، والفرق بين صحيح ذلك وباطلـه ومعرفة مراتب هذه في الشريعة والقدر..."[1] ويظهر جلياً من هذه الفقـرات أن هـذا الكتاب حافل بأصول نافعة جامعة، مماً تكمل به النفس البشرية، وتنال بها العبد سعادته في معاشه ومعاده، وهـو كتاب نفيس فيه من بدائع الفـوائد، وفيه من البحـوث مـا يستقصي كل علم إلى فنه؛ إذ فيه فـوائد مرسلة يقتبس من مجموعهـا معرفـة العلـم وفضله، ومعرفة إثبات الصانع، ومعرفة قدر الشريعة، ومعرفة النبوة ... وشدة الحاجة إلى هذه المذكورات، ومعرفة أصول نافعة جامعة مماً تكمل به الـنفس البشـرية، وإذ الأمر كذلك؛ فإن هذا الكتاب يمثّل لجنة علمية متكاملة، فيها المحدث والفقيه والمفسـر والمتكلّم والأصولي واللّغوي والفيلسوف والطبيب.... وما ذاك إلا لتنوع فنونه وتعـدد معارفه واختلاف بحوثه...

-[1] ابن قيم الجوزية، مفتاح دار السعادة، ج 3، ص388- 389.

4- طريقته في الاستدلال والبحث والترجيح: تميز منهج ابن القـيم فـي مفتـاح دار السعادة بما يلي:

1- الاستدلال: هذه أهم ميزة يتسم بها منهج الإمام ابن القيم، فقد غلبت علـى جميـع أبحاثه، فقد كان لا يعرض المسائل عارية عن الدلائل، يترك القارئ تائها فـي وسـط المسائل الشائكة، والآراء المختلفة، وإنما يثلج صدره ويقر عينه، بما يسوق إليـه مـن الأدلة الباهرة والحجج الظاهرة، والنصوص القاهرة، ويجعله يقبل الحكم الشرعي، عن علم ودراية.

أ – ترتيب الأدلة: فكان أولا يعتمد على نصوص الكتاب والسنة ويبرر أدلتها، وكـان يتحرى ما صح من الأحاديث.

ب- حشد الأدلة: كان رحمه ا إذا بحث مسألة أو ناقش رأيـا جـر مجموعـة مـن الحجج، وأتى من الكتاب والسنة والآثار بما خضعت له الرقاب، وذلت لـه الصـعاب وكشف له النقاب، وقد ساعده على ذلك حافظته العجيبة وذاكرته المفرطة التي كانـت تفيض بنصوص الكتاب والسنة.

2- الاستشهاد بالشعر: وهذه الخصيصة بادية على صفحات كتاب مفتاح دار السعادة فلا تكاد تقف على موضع إلا تجد شعرا رائقا، ونظما فائقا، مما يـدلّ علـى ذاكرتـه العجيبة، في استحضاره من الشعر ما يلائم الموضوع الذي يخوض فيه، وا لا يوفق إلى ذلك إلا فحـول الأدبـاء.

3- حسن الترتيب والسياق: تميزت أبحاثه بحسن الترتيب، وجودة التبويب، واتسـاق الأفكار وإحكام العبارة، وحسن السياق، وكأنها لؤلؤ منثور قـد جمع في قـلادة.

4- أسلوب الحوار: استخدم أسلوب الحوار في غالب مناقشته لخصومه، حتى يعطـي حيوية أكثر للموضوع، ويجعل القارئ يتابعه باهتمام وتركيز، ويشعر وكأنـه حضـر مجلس مناضرة، وقد تقابل الخصمان، فأدلى كل منهما بحجته.

5- استشهاده بأقوال الأئمة: لما كان الإمام ابن القيم يصبو إلى تحقيق أهدافه المتمثلة في الدعوة إلى التمسك بالكتاب والسنة، وما كان عليه سلف الأمة، والتحرر من قيـود التقليد الأعمى، ونراه إذا بحث مسألة يدعم رأيه بالإكثار من الاستشهاد بأقوال الصحابة

والتابعين، والإفاضة في النقل عن الأئمة المجتهدين، ليبرز منهج السلف فـي المسـألة ويظهر رأيهم في القضية.

6- عنايته بالجانب الروحي: إننا نستشف هذه الخصيصة من خلال أبحاثه التي مزجها بأعمال القلوب، وأحوالها: كمحبة ا ، وخشـيته، ورجـاء رحمتـه، والافتقـار إليـه والتضرع إليه...

5- حول تقسيم الكتاب: ذكر غير واحد من المعتنين بهذا الكتـاب، دراسـة وتحقيقـا واختصارا أن كتاب المفتاح قسمان: وهذا أقرب إلى الصحيح، إن لم نقل هو الأصـح وهـو ما صرح به مصنفه رحمه ا في مواطن كثيـرة؛ **فقـال في الجـزء الثـاني ص: 309** بعد كلام: " وقد ذكرنا فصلا مختصرا في دلالة خلقه على وحدانيته وصفات كماله ونعوت جلاله وأسمائه الحسنى، وأردنا أن نختم به القسم الأول من الكتاب، ثـم رأينا أن نتبعه فصلا في دلالة دينه وشرعه على وحدانيته وعلمه وحكمتـه ورحمتـه وسائر صفات كماله...[1]" وهذا يؤكد أن الكتاب في جزأين؛ فقد ختم القسـم الأول مـن الكتاب بفصل في دلالة خلقه على وحدانية ا ، وسيتبعه بفصل في دلالة دينه وشـرعه في القسم الثاني من الكتاب.

وقال في الجزء الثاني ص: 265 بعد أن ذكر وجوب ابتهال العبد لربه وتضرعه على بابه: " وعسى أن يجيئك في القسم الثاني من الكتاب ما تقر به عينـك إن شـاء ا [2]" وهذا أكثر دلالة على ما ذكـر آنفا.

فما هي حقيقة تقسيم الكتاب؟ وما هو مقداره الأساس؟

قال فضيـلة الشيخ الكبيـر بكـر بن عبد ا أبو زيد في كتابه القـيم (ابـن القـيم حياته وآثاره، ص: 301) : " والكتاب يتكون من قسمين في مجلّـد، وقـد أبـرز في طبعته الأولى كذلك، أما في طبعة الأستاذ محمود حسـن الربيـع، فبـدون تجزئـة. وتجزئة الكتاب إلى قسمين هو الذي يوافق صنيع المؤلف رحمه ا تعالى، وقد أشـار

---

[1] - ابن قيم الجوزية، مفتاح دار السعادة، ج 2، ص 309- 310.

[2] - المرجع نفسه، ص 265.

في مواضع منه إلى أن كتابه هذا يتكون من قسمين[1]" وقـد وفى ابن القيم بذلك، فتكون صورة الكتاب على ما يأتي:

أولا: مـقدمة حافـلة أقامها على حكمة ا تعالى في قصة آدم عليه السلام، فقد تحدث المؤلف فيه بإسهاب عن موضوعين رئيسيين هما كيف أزل الشيطان –لعنـه ا - آدم وحواء، وكيـف أهبطهما ا إلى الأرض، ثم استطرد فيها بتحـرير الخـلاف حـول الجـنة التي اهبط منها، ثـم بيـن طريقـته في كتـابه، وأنّـه بنـاه علـى أصلين (الجزء1، ص: 103- 218).

ثانيا: الأصل الأول من موضوع الكتاب في العلم؛ حيث تحدث ابن القيم عـن فضـل العلـم والعلماء، وهما أكثـر ما شغـل صـفحات الكتاب، وفصـل فـي مبحـث التّفـكّر والـتّذكّـر بذكـر حكـمة التشـريع، وحكـمته عـز وجـلّ فـي مـخلوقـاتـه (الجزء 1، ص: 219 – 409) وهـذا معظم الكتاب.

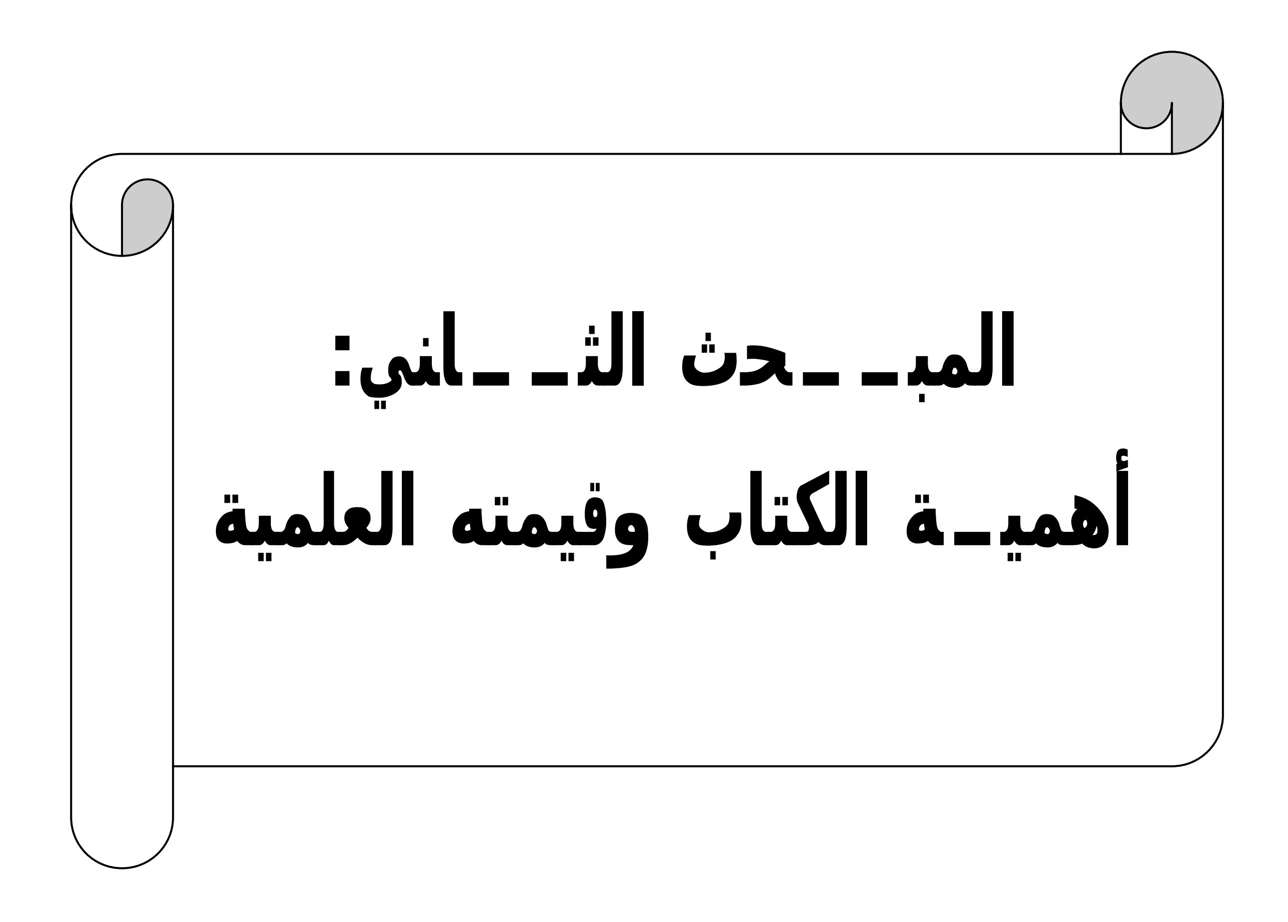
ثالثا: الأصل الثاني في الإرادة، وتضمن ذلك البحث موضوع الحسن والقبح العقليـين إلى آخر الكتاب (الجزء 2، ص: 419 إلى الجزء 3، ص: 390) مع ما لابن القيم رحمه ا خلال ذلك من استطرادات.

وبعـد هذا العرض المفصل لأهم فصول الكتاب، يظهر لنـا جليا موضوعه، فقـد جاء الكتاب في جزأين، تحدث فيه المؤلّف بإسهاب عن موضوعين رئيسيين هما: كيف أزل الشيطان –لعنه ا - آدم وحواء، وكيف أهبطهما ا إلى الأرض، وكيـف كانـت غواية الشيطان لهما، وكيف كانت النتيجة، وكيف فتح ا باب التّـوبة إليـه تبـارك وتعالى، والموضوع الآخر فضل العلم والعلماء، هذان الموضوعان أكثر مـا شغـل صفحات الكتاب، وهناك مواضيع أخـرى، ولقـد خصص ابن القيم في الكتاب للوعظ والتذكير مجالاً رحباً، ومداداً سائلاً، وصفحات مليئة، ثـم ذكـر دواعـي العقـل والعلـم، فإن ا سبحانه وتعالى خلق فيه-الإنسان- العقل والشهوة ونصبهما داعيـين بمقتضياتهما، ليتم مـراده، ويظهر لعبـاده عـزته في حكمتـه وجبروتـه ورحمتـه

---

[1] - بكر بن عبد ا أبو زيد، ابن القيم حياته وآثاره، ط 1. المملكة العربية السـعودية، د س، دار العاصمة للنشر والتوزيع، ص 301.

وبـره ولطفه في سلطانه وملـكه... الكتاب بالجملة أبـدع المؤلف في إخراجه رحمه ا رحمة واسعة.



المبـــحث الثـــاني:

أهميـة الكتاب وقيمته العلمية

أهمية الكتاب وقيمته العلمية:

1- القيمة العلمية للكتاب: على الـرغم من مراجعتي لكلام أهل العلـم حـول هـذا الكتاب لم أجد منهم إلا الثناء العطر، والذكر الطيب، وتعظيم المؤلف، وتبجيل مباحثـه ومعارفه المطروقة في كتابه هذا، وحقّ لهم ذلك؛ لأن الإمام ابن القيم معـروف عنـد القاصي والداني بجـودة البحث، وقوة الاستدلال، ومتانـة العبـارة، وجزالـة اللفـظ وضبط المعاني، وسلاسة الإنشاء.

وكتاب مفتاح دار السعادة الذي بين أيدينا ذو قيمة علميـة نفيسـة، تتجلى هذه القيمة فيما يلي:

- لـقد بحث الإمام ابن القيم بعض المسائل الفقهية الشائكة، فـذكر أقوال الأئمة وآراء المذاهب، وكشف عن القول الراجح فيها، مماّ يسهل على طلبة العلم عموما، وأهل العلم خصوصا الوقوف على مآخذ الأقوال، والصواب منها.

- أفـاض ابن القيم في بحث بعض المسائل الأصولية المهمة كمسألة الإيمان وقاعدته والتفكر في خلق الله، والمسائل العلمية كالنطفة وأحوالها، والنجوم وكثرتها وعجبها... وناقش آراء الأصوليين فيها، مما يجعل كتاب " مفتاح دار السعادة " مرجعا أساسيا في علم أصول الفقه.

- احتفل الكتاب بالفوائد الأصولية والقواعد الفقهية، مع تحريـر مسـائلها، وتخـريج فروعها من مختلف أبواب الفقه.

- ساهم الإمام ابن القيم بقسط وافر في تأسيس بعض القواعـد الفقهيـة، والضـوابط الفرعـية وتأصيلها، فتضاف إلى صرح القواعد الشامخ في الفـقه الإسلامي.

- خصص ابن القيـم في الكتاب للوعظ والتذكير مجالاً رحباً، ومداداً سائلاً وصفحات مليئة، ثم ذكر دواعي العقل والعلم، فإن الله سبحانه وتعالى خلق فيه-الإنسان- العقـل والشهوة ونصبهما داعيين بمقتضياتهما، ليتم مراده، ويظهر لعباده عزته فـي حكمتـه وجبروته ورحمته وبره ولطفه في سلطانه وملكه...

2- المآخذ على الكتاب: وهـذا كلّه لا يمنع من توجيه نقـد، أو بيان خطأ، أو كشف وهـم، فكما يقال:

"أبى ا ُ أن يـَتم إلا كتَابه"

وهـذه المقولة تصدق على كلّ كتاب، ومنها مفتاح دار السـعادة؛ لأن مؤلفـه بشـر وهـو عرضة للخطأ، والكمال وحده فالأمر كما قيل:

" كَفَى بِالمَرء نَبلاً أن تُعَد مَعَايبه "

وإن أهم ما وجه لمؤلفنا من نقد إنّما يتعلق بترتيب الكتاب؛ **فقال المؤلف فـي الجـزء الثاني، ص: 44:** " ونحن نـذكر هنا فصولا منثورة من هذا البـاب مختصـرة، وإن تضمنت بعض التكرار، وإن كانت غير مرتبة، فلا ضير بالتكرار، وترك الترتيب في هذا المقام الذي هو من أهم فصول الكتاب، بل هو لب هذا القسم"[1] وهكذا يقـ ـر ابـن القيم بنفسه أن فصول هذا الكتاب منثورة، وغير مرتبة، كما يتخللها التكـرار وتـرك الترتيب، ويقول أيضا في الجزء الثاني، ص: 200: " فلا تستطـل هـذا الفصل، وما فيـه مـن نوع تكـرار يشتمل على مزيـد فـائدة، فـ ـإن الحاجـة إليـ ـه ماسـة والمنفـعة عظيـمة[2]" وهذه ملاحظة أخرى وهي التكرار، وهي بارزة فـي مواضـع كثيرة من مفتاح دار السعادة، وهكـذا نـرى ابن القيم يعترف بوجودهـا، معلّـلا أن التكرار يشتمل على مزيـد فـائدة، ومنفعة عظيمة.

وهذا الشيء جعل حاجي خليفـة في (كشف الظنون) يقول: " هو كتاب كبير الحجـم ولـيس بمرتب[3]" فالكتاب (مفتاح دار السعادة) كما ذكرنا آنفا كتـاب ضـخم فـي مجلـدين، وإلى جانب ضخامته؛ فـهو كتاب غير مرتـب باعتراف كثير من العلماء ومن بينهم حاجي خليفة.

وممّا يضاف إلى هذا الكتاب من نقد، استعمال ابن القيم مصطلحات فلسـفية وكلاميـة غامضة، دون بيانها وشرحها، مما يعسر على القارئ، وبخاصة فـي هـذه العصـور

---

[1] ابن قيم الجوزية، مفتاح دار السعادة، ج 2، ص44.

[2] - المرجع نفسه، ص 200.

[3] - حـاجي خلـيفة، كشف الظنون، د ط. بيروت، د س، دار إحيـاء التـراث العربـي للنشـر والتـوزيع، مجل 2، ص 1761.

المتأخرة فهمها واستيعابها... وأمثلة على ذلك: **يقول ابن القيم:** " ... ثم إنّـه سـبحانه وتعالى، أعطى هذا المخلوق اللطيف الذي يحركه أضعف المخلوقات، ويخرقـه مـن الشدة والقوة والبأس، ما تقلق به الأجسام الصلبة القوية الممتنعة، ويزعجها عن أماكنها ويفتتها ويحملها على متنه، فانظر إليه مع لطافته وخفته، إذا دخل فـي **الـزق** مـثلا وامتلأ به ثم ..."[1] استعمل ابن القيم كلـمة " **الزق** " دون بيانها أو شرحها مما يعسـر على القارئ فهمها.

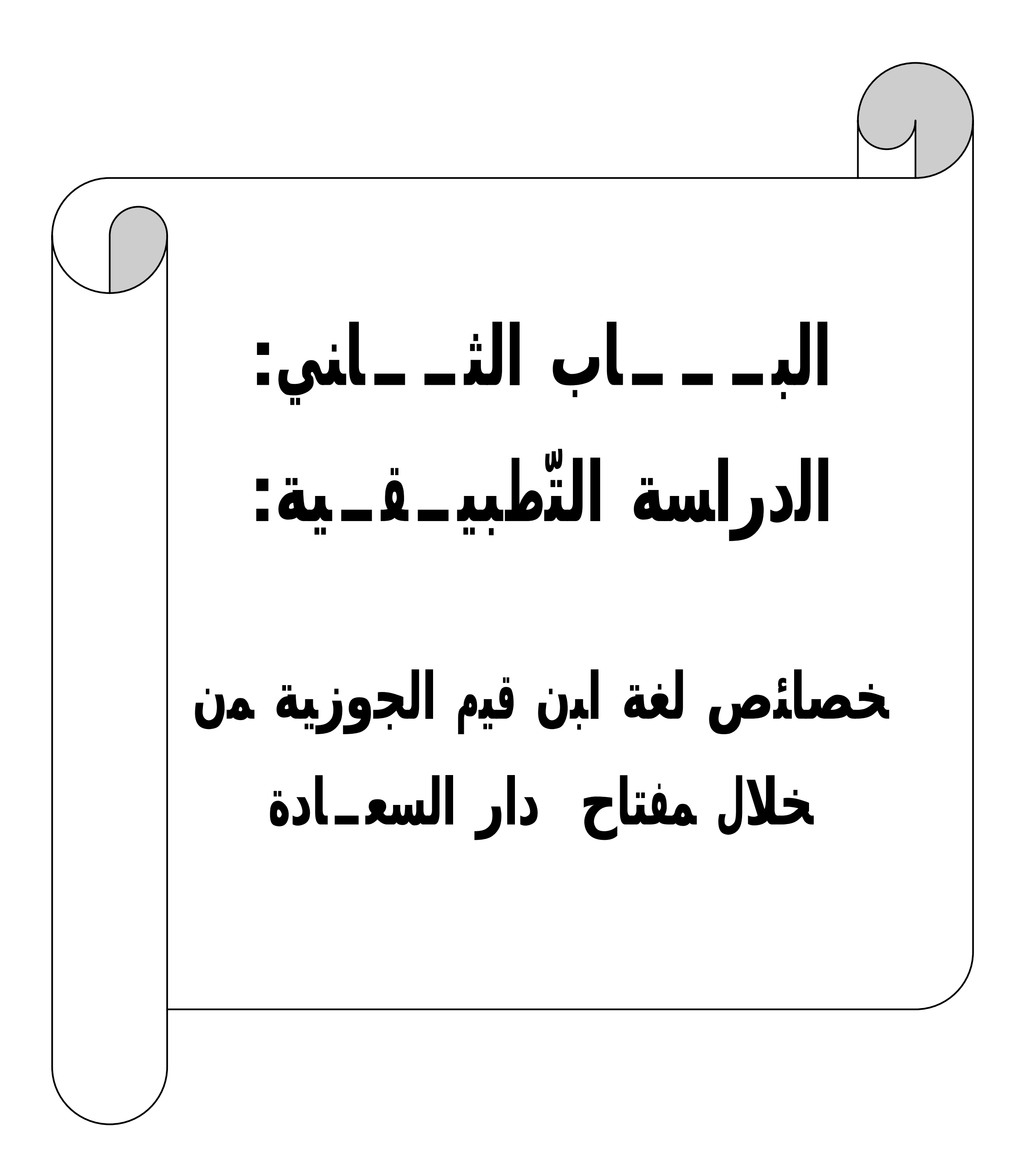
وفي موضع آخر يقول ابن القيم: " ومن آياته سبحانه خلق الحيـوان علـى اخـتلاف أصنافه وأجناسه ... ومنه ما جعل سلاحه المناقير كالنسـر **والـرخَم** والغـراب..."[2] استعمل ابن القيم كلـمة " **الرخَم** " دون بيانها أو شرحها، وهي كلمة غريبة، لا يفهمها القارئ... إلى غير ذلك من الأمثلة.

فهذه بعض الملاحظات، وهي لا تحطّ من قيمة الكتاب، ولا تكدر صـفوه، بـل إنّهـا مغمورة في بحر محاسنه ومميزاته، وهذا كله لا ينقص من القيمة العلمية العالية التـي تبوأها هـذا الكتاب الفـرد في بـابه ونهـجه وأسلوبـه.

---

[1] - ابن قيم الجوزية، مفتاح دار السعادة، ج 2، ص 34.

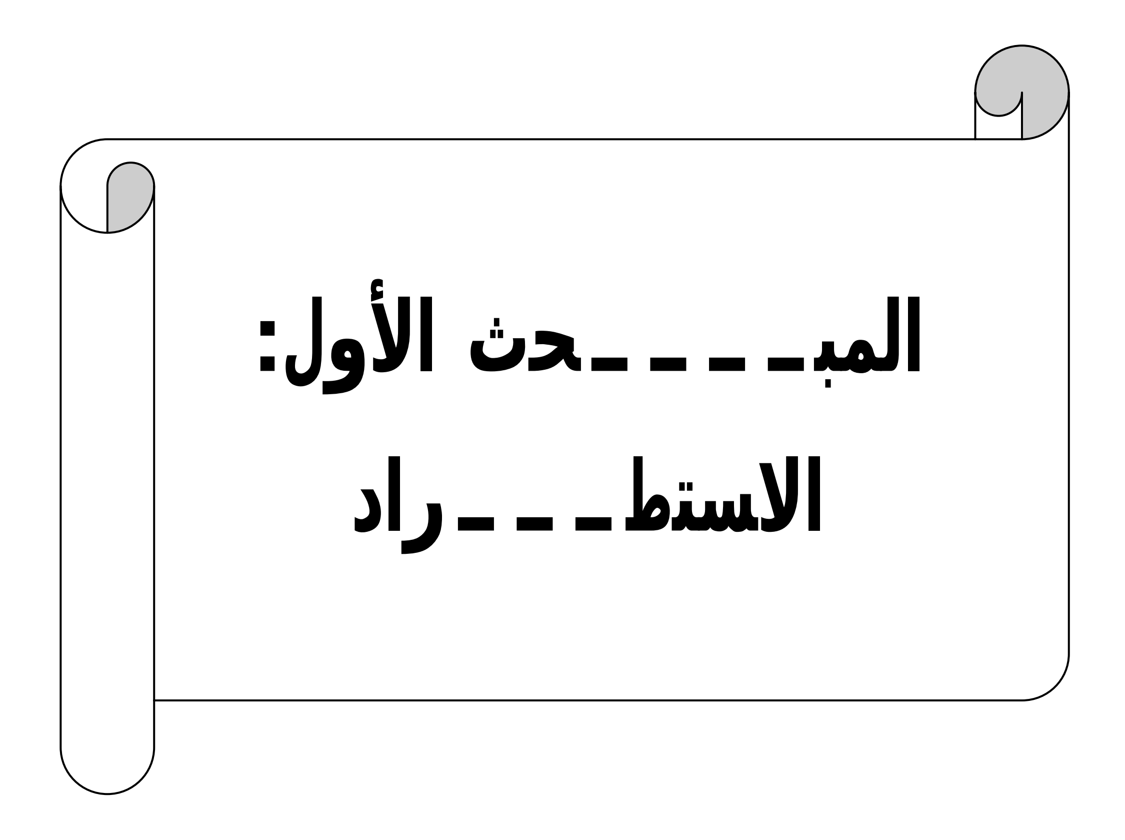
[2] - المرجع نفسه، ص 44.



البـــــاب الثـــاني:

الدراسة التّطبيـقـية:

خصائص لغة ابن قيم الجوزية من خلال مفتاح دار السعـادة


المبـ ـ ـ ـحث الأول:
الاستطـ ـ ـراد

الاستطـــراد:

سنحاول في هذا الفصل أن نتناول أسلوب ابن القيم وخصائصه في مفتاح دار السعادة وسنحاول أيضا بيان أسلوبه في البحث؛ لأنّه من الضرورة بمكـان؛ لأن تناولـه يعـد إكمالا لحديثنا عن منهجه، لارتباط الأسلوب بمنهج صاحبه، فهو طريقة صاحبه فـي التعبير والتفكير، وله دلالة على بعض خصائص المنهج، وللخصائص المنهجية أثر في الأسلوب أيضا فهي علاقـة تأثير وتأثر، وقبل الولوج في هذا المبحـث لا بـأس أن نتطرق إلى مفهوم الاستطراد، فقد عرفه الأستاذ الدكتور عبـد المتعـالي الصـعيدي بقـوله: " الاستطراد: ومنه الاستطراد، وهو الانتقال من معنى إلى معنى آخر متّصل لم يقصد بـذكر الأول التوصل إلى ذكـر الثاني[1]" ولقد عرف ابن القيم بهذه الخاصية واشتهرت في أبحاثه، وله من هذه الميزة النصيب الوافر في عامة كتبه ومؤلفاته، فإنّه كثير الاستطراد لأدنى مناسبة يجدها، وأنّه قد يكون أنفع للناس من المسألة المبحوثـة أصلا، وأمثلة الاستطراد في مفتاح دار السعادة كثيرة ومستفيضة، نذكـر بعضا منها.

يقول ابن القيم: " ... وهذا فصل معترض، وهو أنفع فصول الكتاب، ولـولا الإطالـة لوسعنا فيه المقال، وأكثرنا فيه من الشواهد والأمثال، ولقد فتح ا الكريم فيـه البـاب وأرشد فيه إلى الصواب، وهو من المرجو لتمام نعمته، ولا قوة إلا با العلي العظيم[2]" فقـد استطرد ابن القيم في هذا الموضع لما بنى كتابه على أصلي العلم والإرادة ومـا لازمهما من موضوع التفكر والتذكر، أفاض كثيرا، فأداه ذلك إلى طرق موضـوعات شتى، قـد تكون أنفع للناس من المسألة المبحوثة أصلا.

وفي موضع آخر يقول ابن القيم: " فتـدبر هذا الفصل، فإنّـه من الكنوز فـي هـذا الكتاب، وهـو حقيق بأن تثنى عليه الخناصر، و الحمد والمنّة[3] " استطرد ابن القـيم في هذا الموضع كثيرا بعد بيان منة ا على خلقه.

---

[1] - عبـد المتعالي الصعيدي، بغـية الإيضاح لتلخيص المفـتاح في عـلوم البلاغة، ط 1. القاهرة: 1999، مكتبة الآداب للنشر والتوزيع، ج 4، ص 21.

[2] - ابن قيم الجوزية، مفتاح دار السعادة، ج 2، ص 182.

[3] - المرجع نفسه، ص 245.

ويقول أيضا: " فهذا فصل معترض ذكرناه استطرادا للحكمة في خلق النخلة وهيئتهـا فلنرجع إليه[1]" فقبل أن يتحدث ابن القيم عن النخلة قد تطرق إلى مواضيع كثيرة، ومنها حكمة ا في خلق شجرة اليقطين والبطيخ والشجر... وبعدها تحدث عن الحكمة الإلهية في موافقات أصناف الفواكه والثمار... إلى أن استطرد للحكمـة فـي خلـق النخلـة وهيئتـها، قد تكون أنفع للناس من المسألة المبحوثة أصلا.

ويقول أيضا: " وهذا باب عظيم من حكمة ا ، يطّلع الناظر فيه على أسرار من أسرار التقدير، وتسليط العالم بعضهم على بعض، وتمكين الجناة والبغاة، فسبحان من له فـي كلّ شيء حكمة بالغة وآية باهرة، حتى إن الحيوانات العادية على الناس فـي أمـوالهم وأرزاقهم وأبدانهم تعيش في خفارة ما كسبت أيديهم، ولولا ذلك لم يسلّط علـيهم منهـا شيء، ولعلّ هذا الفصل الطردي أنفع لمتأمله من كثير من الفصول المتقدمة، فإنّـه إذا أعطاه حقّـه من النظر والفكر، عظم انتفاعه به جـدا، وا الموفـق[2]" ومعنى كلامه هذا أن هذا الكتاب يحتوي على أبواب وفصول تتفاوت في القدر والأهمية، فقد تكـون بعض الفصول أو الأبواب أنفع من غيرها، ولو أعطاها المتأمل حقها في النظر والتأمل لكانت فائدته به عظيمة، ولو أنني أجدها غير ذلك، فهي كلها مفيدة ونافعة لما تحملـه في طياتها من علم ومعرفة، فهي شبيهة باللآليء التي تضم بعضها إلى بعض لتشـكل عقـدا فـريدا من نوعـه.

وفي موضع آخر يقول ابن القيم: " فالبيت الحرام قيام العالم، فلا يزال قياما ما دام هذا البيت محجوجا، فالحج هو خاصة الحنيفية ومعونة الصلاة، وسر قول العبد لا إلـه إلا ا ، فإنه مؤسس على التوحيد المحض والمحبة الخالصة، وهـو اسـتزارة المحبـوب لأحبابه، ودعوتهم إلى بيته ومحل كرامته، ولهذا إذا دخلوا في هذه العبادة، فشـعارهم لبيك اللهم لبيك إجابة محب لدعوة حبيبه، ولهذا كان للتلبية موقع عند ا ، وكلما أكثـر العبد منها، كان أحب إلى ربه وأحظى، فهو لا يملك نفسه أن يقول: لبيك ... لبيـك حتى ينقطع نفسـه، وأما أسرار ما في هذه العبادة من الإحرام واجتناب العوائد وكشف الرأس، ونزع الثياب المعتادة، والطواف والوقوف بعرفة، ورمي الجمار وسائر شعائر

---

[1] - ابن قيم الجوزية، مفتاح دار السعادة، ج 2، ص 121.

[2] - المرجع نفسه، ج 2، ص 176.

الحج، فمما شهدت بحسنه العقول السليمة والفطر المستقيمة، وعلمت بأن الذي شـرع هذا لا حكمة فوق حكمته، وسنعود إن شاء ا إلى الكلام في ذلك في موضـعه، أمـا الجهاد فناهيك به من عبادة هي سنام العبادات وذروتها، وهو المحك والدليل المفـرق بين المحب والمدعي، فالمحب قد بذل مهجته وماله لربه وإلهه متقربا إليه ببذل أعز ما بحضرته..."[1] تطرق ابن القيم في هذه الفقرة إلى مواضيع شتى، استهلها بالحديث عن بيت ا الحرام، ثم انتقل إلى معنى آخر متصل، وهو الحديث عن أسرار العبادة، ثـم استطرد قائـلا: " وسنعود إن شاء ا إلى الكلام في ذلك في موضعه" ثم انتقـل إلـى معنى آخر، وهو الحديث عن الاجتهاد، وهذا الأخير ربما يكـون أكثـر أهميـة مـن المواضيع السابقـة، فلـذلك فضل ابـن القيم الخـوض فيـه، على أنّـه يعـود إلى ما سـبق ذكـره فـي موضعه.

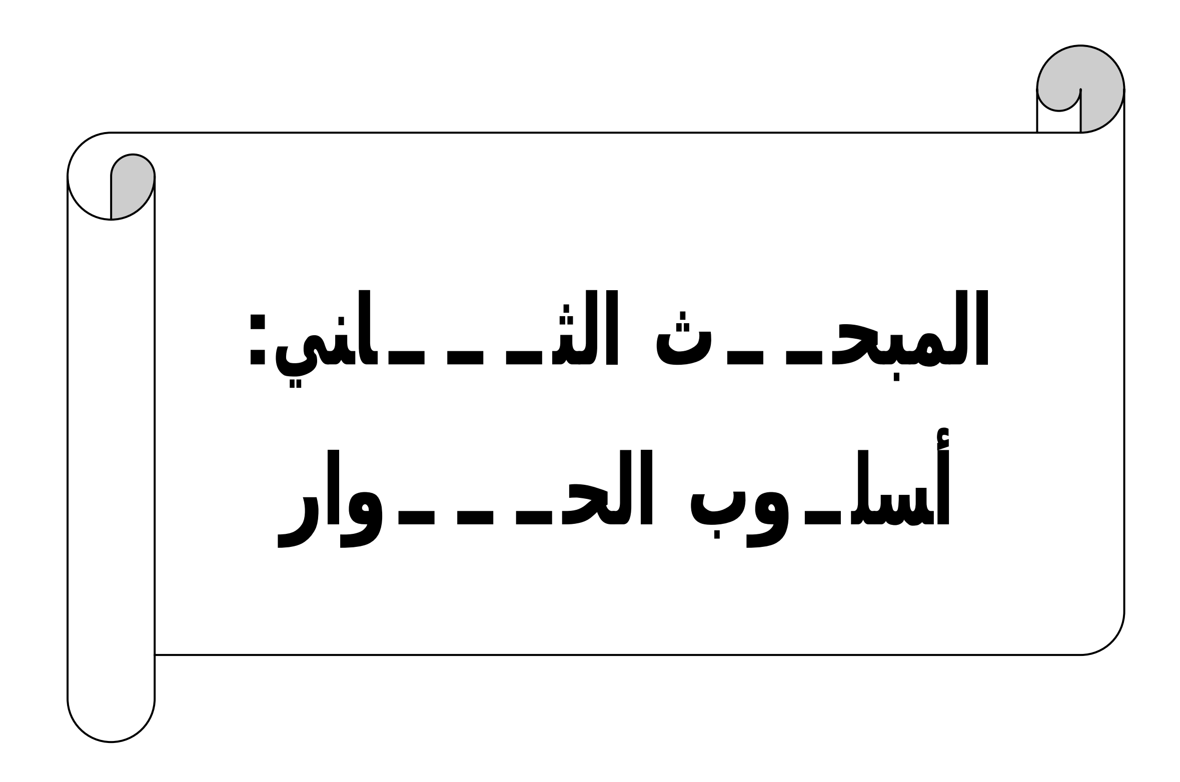
ويقول ابن القيم: " ... وانظر كيف دلّ العيان والحس والوجود علـى حكمـة الـرب تعالى، وعلى صدق رسله فيما أخبروا به من الجنة والنار، فتأمل كيف قاد النظر فـي حكمة ا تعالى إلى شهادة العقول والفطر بصدق رسله، وأن ما أخبروا به تفصيلا يدلّ عليه العقل مجملا، فأين هذا من مقام من أداه علمه إلى المعارضة بين ما جـاءت بـه الرسل، وبين شواهد العقل وأدلته، ولكن تلك العقول كادها باريها ووكّلها إلى أنفسـها فحلّت بها عساكر الخذلان من كل جانب، وحسبك بهذا الفصل وعظيم منفعته من هـذا الكتاب، وا المحمود المسؤول تمام نعمته، فهذه كلمات مختصرة نافعة في مسألة إيلام الأطفال، لعلك لا تظفر بها في أكثر الكتب، فارجع الآن إلى نفسك، وفكّـر في هـذه الأفعال الطبيعية التي جعلت في الإنسان، وما فيها من الحكمة والمنفعة، وما جعل لكل واحد منها في الطبع المجرد والداعي الذي يقتضيه ويستحثّه ... ثم انظر إلى ما أعطيه من القوى المختلفة التي بها قوامه، فأعطي القوة الجاذبة الطالبة المستحثة التي تقتضي معلومها من الغذاء، وتورده على الأعضاء بحسب قبولها، ثم أعطي القوة الممسكة التي تمسك الطعام، وتحبسه ريثما تنضجه الطبيعة، وتحكم طبخه وتهيؤه لمصارفه، وتبعثـه

---

[1] - ابن قيم الجوزية، مفتاح دار السعادة، ج 2، ص 324.

لمستحقّه، فمن أعطاك ...؟ ومن جعلها...؟ ومن أعطاها...؟ ومن...؟ "[1] تحدث ابـن القيم في هذه الفقرة على حكمة الرب تعالى، وعلى صدق رسله فيما أخبروا بـه مـن الجنة والنار، ثم استطرد قائلا: " وحسبك بهذا الفصل وعظيم منفعته من هـذا الكتـاب وا المحمود المسؤول تمام نعمته، فهذه كلمات مختصرة نافعـة فـي مسـألة إيـلام الأطفال، لعلك لا تظفر بها في أكثر الكتب " ثـم يخرج عن موضوعه الأصـلي إلـى موضوع آخر.

[1] - ابن قيم الجوزية، مفتاح دار السعادة، ج 2، ص 232 - 233.



المبحـــث الثـــاني:

أسلــوب الحـــوار

أسلـوب الحـــوار:

يستخدم ابن القيم أسلوب الحوار في غالب مناقشاته لخصومه، وقـد عـرف الـدكتور أحمد العمري الحوار قائلا: " والحوار، في معناه العام: خطاب (أو تخاطـب) يطلـب الإقناع بقضية أو فعل، وفي معناه الخاص: كل خطاب يتوخى تجـاوب متلـق معـين ويأخذ رده بعين الاعتبار، من أجل تكوين موقف في نقطة غيـر معينـة سـلفا بـين المتحاورين، قريبة من هذا الطرف أو ذاك، أو في منتصف الطريق بينهما، صـورتُه المثلى مناقشةٌ بين طرفين أو أكثر[1]" والحوار خاصية أخرى من خصائص أسلوب ابن القيم، وهي ميزة بارزة في مفتاح دار السعادة، فقد كان ابن القيم يبحث بعض المسـائل في أكثر من موضع، ومن الأمثلة على ذلك: **يقول ابن القيم:** " وكم للطّفل من منفعـة ومصلحة فيما تسمعه من بكائه وصراخه؛ فإذا كانت هذه الحكمة في البكاء الذي سـببه ورود الألم والمؤذي، وأنت لا تعرفها ولا تكاد تخطر ببالك، فهكذا إيلام الأطفال فيـه وفي أسبابه وعواقبه الحميدة من الحكم ما قد خفي على أكثر الناس، واضطرب علـيهم الكلام في حكمته اضطراب الأرشية، وسـلكوا في هذا الباب مسالك: فقالـت طائفـة: ليس إلا محض المشيئة العارية عن الحكمة، والغاية المطلوبة، وسدوا على أنفسهم هذا الباب جملة، وكلما سئلوا عن شيء أجابوا بـ **لاَ يسأَلُ عَما يَفعلُ** وهذا من أصدق الكلام، وليس المراد به نفي حكمته تعالى، وعواقب أفعاله الحميدة وغاياتها المطلوبـة منها، وإنّما المراد بالآية إفراده بالإلهية والربوبية... وقالت طائفة: الحكمة في ابتلائهم تعويضهم في الآخرة بالثواب التام، فقيل لهم: قد كان يمكن إيصال الثواب إليهم بـدون هذا الإيلام، فأجابوا: بأن توسط الإيلام في حقهم كتوسط التكاليف في حـق المكلفـين فقيل لهم: فهذا ينقض عليكم بإيلام أطفال الكفار، فأجابوا: بأنا لا نقول: إنهم في النـار كما قاله من قاله من الناس، والنار لا يدخلها أحد إلا بذنب، وهؤلاء لا ذنب لهم، فأورد عليهم ما لا جواب لهم عنه، وهو إيلام أطفالهم الذين قدر بلوغهم وموتهم على الكفـر

---

[1] - أحمد العمري، بلاغة الحوار، د ط . المملكة المغربية: 2005، منشورات وزارة الأوقـاف والشؤون الإسلامية، ص 55.

فإن هذا لا تعويض فيه قطعا ولا عقوبة على الكفر، فإن العقوبة لا تكون سلفا وتعجيلا فحاروا في هذا الموضع واضطربت أصولهم ولم يأتوا بما يقبله العقل..."[1] تحدث ابن القيم في هذه الفقرة عن حكمة ا في كثرة بكاء الأطفال، وما لهم فيه من المنفعة والمصلحة فيما تسمعه من بكائه وصراخه، وقد يجهل الناس الحكمة في بكاء الأطفال وسلكوا في هذا الباب مسالك، ولبيان ذلك لجأ ابن القيم إلى أسلوب الحوار، فبين رأي كل طائفة في ذلك، وكأنه حضر مناضرة، وتقابل فيها الخصمان، فأدلى كل واحد بدلوه وبعدها يورد ابن القيم عليهم ما لا جواب لهم عنه.

ويقول ابن القيم: " ثم تأمل حكمة ا تعالى في كثرة بكاء الأطفال وما لهم فيه من المنفعة، فإن الأطباء والطبائعيين شهدوا منفعة ذلك وحكمته وقالوا: في أدمغة الأطفال رطوبة لو بقيت في أدمغتهم لأحدثت أحداثا عظيمة، فالبكاء يسيل ذلك ويحدره من أدمغتهم، فتقوى أدمغتهم وتصح، وأيضا فإن البكاء والعياط يوسع عليه مجاري النفس ويفتح العروق ويصلبها ويقوي الأعصاب... وليست آلام الأطفال بأصعب من آلام البالغين، لكن لما صارت لهم عادة سهل موقعها عندهم، وكم بين ما يقاسيه الطفل ويعانيه البالغ العاقل، وكل ذلك من مقتضى الإنسانية وموجب الخلقة، فلو لم يخلق كذلك لكان خلقا آخر، أفترى أن الطفل إذا جاع أو عطش أو برد أو تعب قد خص من ذلك بما لم يمتحن به الكبير، فإيلامه بغير ذلك من الأوجاع والأسقام، كإيلامه بالجوع والعطش والبرد والحر، قالوا فإن سأل سائل وقال: فلم خلق كذلك؟ وهلا خلق خلقة غير قابلة للألم؟ فهذا سؤال فاسد، فإن ا تعالى خلقه في عالم الابتلاء والامتحان من مادة ضعيفة، فهي عرضة للآفات، وركّبه تركيبا معرضا للأنواع من الآلام، وجعل فيه الأخلاط الأربعة التي لا قوام له إلا بها، ولا يكون إلا عليها وهي لا محالة... "[2]

بين ابن القيم في هذه الفقرة حكمة ا تعالى في كثرة بكاء الأطفال، وما لهم فيه من المنفعة، واستدل بذلك بحقيقة علمية متمثلة في رأي الأطباء في هذه المسألة، والذين هم من أهل الاختصاص، ثم أدلى ابن القيم بدلوه حول هذه المسألة، وهذه طريقته في

---

[1] - ابن قيم الجوزية، مفتاح دار السعادة، ج 2، ص 230.

[2] - المرجع نفسه، ص 231.

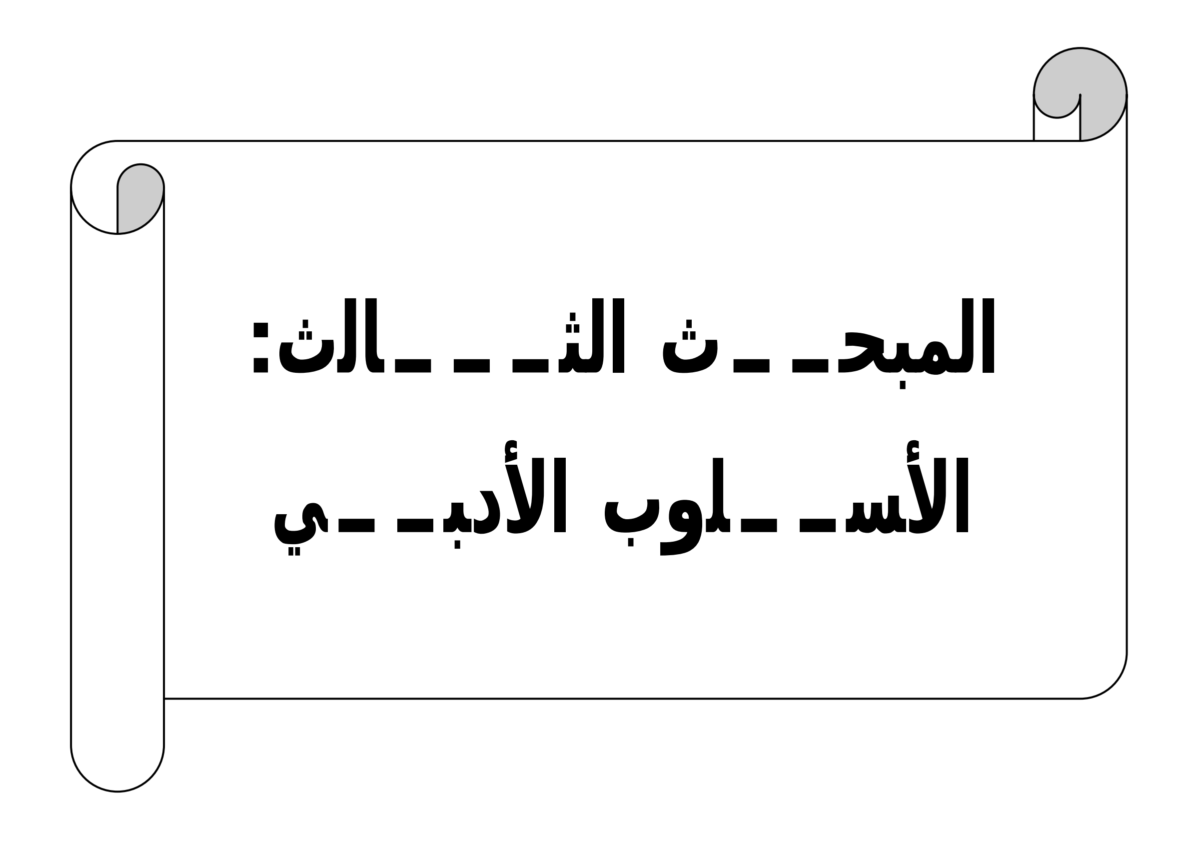
المناقشة، وهي اللجوء إلى أسلوب الحوار، فبعد الاستماع إلى كل طائفة، يضيف إلى كلامها ما غفلت عنه، أو يبدي اعتراضه، مبينا أوجه الخطأ والصواب في المسألة.

نموذج آخر: يقول ابن القيم: " وقد روي عن النبيﷺ أن آدم نام في جنّته، وجنة الخلد لا نوم فيها بإجماع من المسلمين، لأن النوم وفاة، وقد نطق به القرآن، والوفاة تقلّب حال، ودار السلام مسلّمة من تقلّب الأحوال، والنائم ميت أو كالميت، قالوا: وقد روي عنه ﷺ أنه قال لأم حارثة لما قالت له: يا رسول الله إن حارثة قُتل معك، فإن صار إلى الجنة صبرت واحتسبت، وإن كان صار إلى ما سوى ذلك رأيت ما أفعل فقال لها رسول الله ﷺ :"أَوجنّة واحدة هي؟ إنّما هي جنان كثيرة " فأخبرﷺ أن جنّات كثيرة، فلعلّ آدم أسكنه الله جنة من جناته ليست هي جنة الخلد، قالوا: وقد جاء في بعض الأخبار أن جنّة آدم كانت بالهند، قالوا: وهذا وإن كان لا يصححه رواة الأخبار ونقلة الآثار، فالذي تقبله الألباب، ويشهد له ظاهر الكتاب، أن جنة آدم ليست جنّة الخلد ولا دار البقاء، وكيف يجوز أن يكون الله أسكن آدم جنّة الخلد ليكون فيها من الخالدين، وهو قائل للملائكة: **إني جَاعِلٌ في الأرض خَلِيفَةً** (البقرة: 30)؟ وكيف أخبر الملائكة أنّه يريد أن يجعل في الأرض خليفة، ثم يسكنه دار الخلود، ودار الخلود لا يدخلها إلاّ من يخلد فيها، كما سميت بدار الخلود، فقد سماها الله بالأسماء التي تقدم ذكرها، لها تسمية مطلقة لا خصوص فيها، فإذا قيل للجنة: دار الخلد، لم يجز أن ينقض مسمى هذا الاسم بحال، فهذا بعض ما احتج به القائلون بهذا المذهب، فالجواب أن يقَال: هذا فيه قولان للناس، ونحن نذكر القولين، واحتجاج الفريقين، ونُبين ثبوت الوجوه التي ذكرناها وأمثالها على كلا القولين، ونذكر أولاً قول من قال: إنّها جنة الخلد التي وعدها الله المتقين وما احتجوا به، وما أجابوا به عن حجج من قال: إنها غيرها ثم نتبعها مقالة الآخرين وما احتجوا به، وما أجابوا به عن حجج منازعيهم من غير انتصاب لنصر أحد القولين وإبطال الآخر.."[1] تحدث ابن القيم في هذه الفقرة عن حكمة الله سبحانه في إدخال آدم الجنة، فذكر بعض الأقوال حول هذا الشأن، وما جرى بينها من حوار معتمدين الأخذ والرد، وكل وحججه، ووقف ابن القيم موقف المتلقي من

---

[1] - ابن قيم الجوزية، مفتاح دار السعادة، ج 1، ص 131- 132.

أجل تكوين موقف في نقطة غير معينة سلفا بين المتحاورين، وكان الغرض بذلك الرد على من زعم أن حكمة ا سبحانه تأبى إدخال آدم الجنة، وتعريضه للذنب الذي أخرج منها به، والـرد على من أبطل أن يكون له حكمة في ذلك، وإنّما هـو صـادر عـن محض المشيئة التي لا حكمة وراءها.


المبحـــث الثـــالث:
الأســلوب الأدبـــي

الأسلوب الأدبي:

وهذه خاصية أخرى من خصائص أسلوب ابن القيم، ورغم أن مفتـاح دار السـعادة كتاب في الوعظ والإرشاد، والأصل أن يستخدم فيه الأسلوب العلمـي، ويبتعـد عـن زخرفة الكلام، إلا أن الإمام ابن القيم لم يخرج عن مألوفه، ولم يخلع ربقة البلاغة من عنقه، فقد اهتم بالشكل كما اهتم بالمضمون، فتمـيز أسلوبه بالسهولة وخلوه من التعقيد بنوعيه اللفظي والمعنوي، كما تميز بوضوح العبارة، وعذوبة الألفاظ، والميـل إلـى الصور البيانية، والمحسنات البديعية في غير تكلف، ولا ضير فقد كان رجل البلاغـة فقد قال عنه العلامة الشوكاني: " وكل تصانيفه مرغوب فيها بين الطوائف، ولـه مـن حسن التصرف في الكلام مع العذوبة الصادقة، وحسن السياق ما لا يقدر عليه غالـب المصنفين؛ بحيث تعشق الأفهام كلامه، وتميل إليه الأذهان وتحبه القـلوب"[1] فقد ظهـر أثر ذلك في أسلوبه ففيه السجع وسائر المحسنات، لكن ذلك بقدر، كما أنّه لا يكون منه في كل حال، وإنّما في مقام مخصوص، وهو بصورة واضحة لا يلجـأ إلى الأسـلوب الحافل بالمحسناّت إلا في مقدمات كتبـه أو مقدمات بعـض أبحاثه، وإذا مثّلنا لـذلك بمقدمة كتابه مفتاح دار السعادة، فتراه يحمد ا ويثنى عليه قائلا: " الحمد الذي أقام في أزمنة الفترات من يكون ببيان سنن المرسلين كفيلا، واختص هذه الأمة بأنه لا تزال فيها طائفة على الحقّ لا يضرهم من خذلهم، ولا من خالفهم، حتى يأتي أمـره، ولـو اجتمع الثقلان على حربهم قبيلا، يدعون من ضلّ إلى الهدى، ويصبرون مـنهم علـى الأذى، ويبصرون بنور ا أهل العمى، ويحيون بكتابه الموتى، فهم أحسن الناس هدياً وأقومهم قيلاً، فكم من قتيل لإبليس قد أحيـوه، ومن ضال جاهل لا يعلم طريق رشـده قد هدوه، ومن مبتدع في دين ا بشهب الحق قد رموه جهادا في ا ، وابتغاء مرضاته وبيانا لحججه على العالمين وبيناته، وطلبا الزلفى لديه، ونيل رضوانه وجنّاته، فحاربوا في ا مـن خرج عن دينه القويم، وصراطه المستقيم، الذين عقـدوا ألويـة البدعـة وأطلقوا أعنة الفتنة، وخالفوا الكتاب، واختلفوا في الكتاب، واتفقوا على مفارقة الكتـاب

[1] - الشوكاني، البدر الطالع، ج 1، ص 144.

ونبذوه وراء ظهورهم، وارتضوا غيره عنه بديلا، أحمده وهو المحمود على كـل مـا قدره وقضاه، وأستعينه استعانة من يعلم أنّه لا رب له غيره، ولا إله سواه، واسـتهديه سبيل الذين أنعم عليهم ممن اختاره لقبول الحق وارتضاه، وأشكره والشكر كفيل بالمزيد من عطاياه، وأستغفره مـن الذنوب التي تحول بين القلب وهداه، وأعوذ به مـن شـر نفسي وسيئات عملي استعاذة عبد فار إلى ربه بذنوبه وخطاياه، وأعتصم به من الأهواء المردية، والبدع المضلّة، فما خاب من أصبح به معتصما وبحماه نـزيلا"[1] وإن المتأمل لهـذه المقدمة لوجدها جميلة رشـيقة مناسبة للمقام الذي وضعت فيه، ففي لفظها عناية بالمـعنى لا تقـل عن العنـاية بالالـفظ، فقـد ظهر أثر السـجع فـي العبـارات التـالية: (خـذلهم، خالفهم) و(أحيوه، هـدوه، رموه) و(مرضـاته، بينـاتـه) و(القويم، المستقيم) وإذا تأملنا أيضا هذه الكلمات: البدعة – الفتنة، وهي على نفـس الوزن (فعلة) مما جعلها خفيفة على السمع لما تحمـله من رنّـة موسيقيـة.

وإذا مثّلنا لذلك أيضا بمقدمة كتابه (زاد المعاد) وجدنا المقدمة رشيقة مناسبة للمقـام الذي وضعت فيه باختياره حسن الألفاظ، فيثني على ا قائلا: " مالك يوم الدين الذي لا فوز إلا في طاعته، ولا عز إلا في التذلل لعظمته، ولا غنـى إلا فـي الافتقـار إلـى رحمته، ولا هدى إلا في الاستدلال بنوره، ولا حياة إلا في رضاه، ولا نعـيم إلا فـي قربه، ولا صلاح للقلب، ولا فلاح إلا في الإخلاص له، وتوحيد حبه الـذي إذا أطيـع شكر، وإذا عصى تاب وغفر، وإذا دعا جاب، وإذا عومل أثاب، والحمـد الـذي شهدت له بالربوبية جميع مخلوقاته، وأقرت له بالإلـوهية جميع مصنوعاته[2]" فـيلاحظ في هذه المقدمة تعبيرات أدبية سامية مع العذوبة الزائدة وحسن السياق، فقد ظهر أثـر السجع في العبارات (طاعته، عظمته) و (مخلوقاته، مصنوعاته) و(أثاب، جاب) (صلاح، فلاح) و (شكر، غـفر) ممـا أكسبـها جمـالا وحـلاوة.

---

[1] - ابن قيم الجوزية، مفتاح دار السعادة، ج 1، ص 103.

[2] - ابن قيم الجوزية، زاد المعاد في هدي خير العباد، تح الشيخ حسن محمد المسعودي، د ط. بيروت، د س، دار الجيل للطباعة والنشر والتوزيع، ج 1، ص 3.

وفي موضع آخر يقول ابن القيم: " وإذا عرفت معنى كون آيات الرب تبارك وتعالى تبصرة وذكرى يتبصر بها من عمى القلب، ويتذكر من غفلته، فإن المضاد للعلم إمـا عمى القلب وزواله بالتبصر، وإما غفلته وزواله بالتذكر، والمقصود تنبيه القلـب مـن رقدته بالإشارة إلى شيء من بعض آيات ا ، ولو ذهبنا نتتبع ذلك، لنفذ الزمـان ولـم نحط بتفصيل واحدة من آياته على التمام، ولكن ما لا يدرك جملـة لا يتـرك جملـة وأحسن ما أنفقت فيه الأنفاس التفكر في آيات ا وعجائب صنعه، والانتقال منها إلـى تعلق القلب والهمـة به دون شيء من مخلوقاته[1]" نرى في هذه الفقرة تعبيرات أدبيـة سامية وهـي: (عمـى القلب) و(تنبيه القلب من رقدتـه) وهـي تعبيـرات أدبيـة مجـازية وضعت في مقامها المناسب، وقـد تكسب بيـانه جمالا، ولغتـه حـلاوة.

وفي موضع آخر يقول ابن القيم في مقدمة بحثه: سؤال للجاحد الجاهل: " سل المعطّل الجاحد: ما تقول في دولاب دائر على نهر قد أحكمت آلاته، وأحكم تركيبه، وقـدرت أدواته أحسن تقدير وأبلغه؛ بحيث لا يرى الناظر فيه خللا في مادته، ولا في صـورته وقد جعل على حديقة عظيمة فيها من كل أنواع الثمار والزروع يسقيها حاجتها، وفـي تلك الحديقة من يلم شعثها، ويحسن مراعاتها، وتعهدها والقيام بجميع مصـالحها، فـلا يختل منها شيء، ولا تتلف ثمارها، ثم يقسم قيمتها عند الجذاذ على سـائر المخـارج بحسب حاجاتهم وضروراتهم، فيقسم لكلّ صنف منهم ما يليق به، ويقسمه هكذا علـى الدوام... أترى هذا اتفاقا بلا صانع ولا مختار ولا مدبر؟ ولكن مـن حكمـة العزيـز الحكيم أن خلق قلوبا عميا لا بصائر لها، فلا ترى هـذه الآيـات البـاهرة إلا رؤيـة الحيوانات البهيمية، كما خلق أعينا عميا لا أبصار لها، والشـمس والقمـر والنجـوم مسخرات بأمره وهي لا تراها، فما ذنبها إن أنكرتها وجحدتها، فهي تقول فـي ضـوء النهار: هذا ليل، ولكن أصحاب الأعين لا يعرفون شيئا [2]" وما يلاحظ في هذا المثال أن ابن القيم وفق إلى حد بعيد في اختيار الألفاظ المناسبة التي تتماشى والمقـام، ويظهـر ذلك في هذه العبارات: (حاجاتهم، ضروراتهم) و (آلاته، أدواته) و (قلوبـا عميـا

---

[1] - ابن قيم الجوزية، مفتاح دار السعادة، ج 2، ص 68.

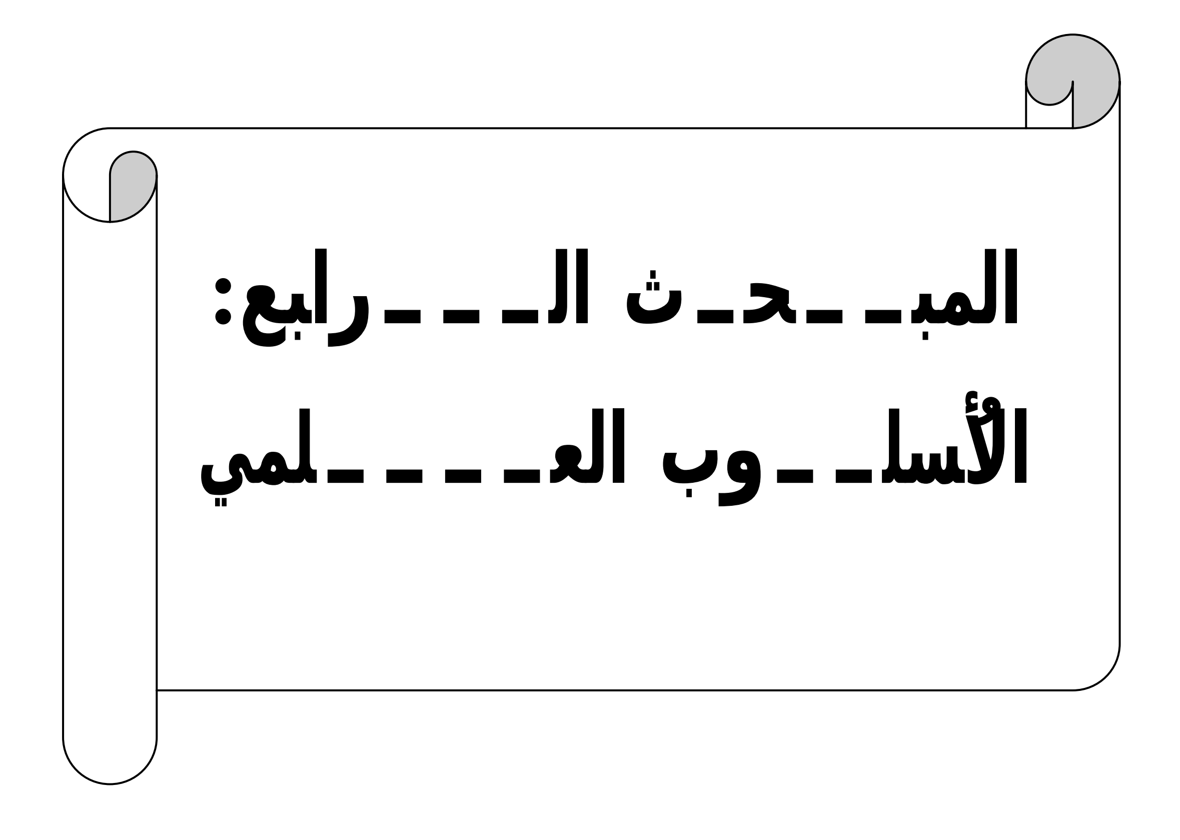
[2] - المرجع نفسه، ص 69.

أعينا عميا) وكلها ألفاظ عذبة تحدث جرسا موسيقيا خفيفا على الأذن، فقد وفق ابن القيم في لجوئه إلى الصور البيانية، والمحسنات البديعية في غير تكلف.

ويقول ابن القيم في مقدمة بحثه استجماع قوى القلب: " ومنها أن القلب يكون ذاهلا عن عدوه، معرضا عنه مشتغلا ببعض مهماته، فإذا أصابه سهم من عدوه استجمعت له قوته وحاسته وحميته، وطلب بثأره إن كان قلبه حرا كريما، كالرجل الشجاع إذا جرح فإنّه لا يقوم له شيء، بل تراه بعدها هائجا طالبا مقداما، والقلب الجبان المهين إذا جرح كالرجل الضعيف المهين إذا جرح ولى هاربا والجراحات في أكتافه، وكذلك الأسد إذا جرح فإنّه لا يطاق، فلا خير فيمن لا مروءة له بطلب أخذ ثأره من أعدى عدوه، فما شيء أشفى للقلب من أخذه بثأره من عدوه، ولا عدو أعدى له من الشيطان، فإن كان قلبه من قلوب الرجال المتسابقين في حلبة المجد، جد في أخذ الثأر، وغاظ عدوه كل الغيظ وأضناه، كما جاء عن بعض السلف: أن المؤمن لينضي شيطانه كما ينضي أحدكم بعيره في سفره[1] " يظهر في هذه الفقرة اللغة الراقية لابن القيم، لما حباه ا من قوة العبارة، ونفاذ البصيرة، فيلاحظ عنايته باللفظ والمعنى، ويظهر ذلك في استعماله لكلمات مثيرة وهي: (القلب يكون ذاهلا) و (سهم من عدوه) و (القلب الجبان المهين) و (الأسد إذا جرح) وكلّها تعبيرات أدبية مجازية تتماشى وطبيعة الموضوع، ويحرص على إيصالها إلى المتلقي في أحسن صورة.

---

[1] - ابن قيم الجوزية، مفتاح دار السعادة، ج 2، ص 287.


المبـــحـــث الــــــرابع:
الأسلـــوب العـــــــــلمي

الأسـ ـلوب العـ ـلمي:

اختلف الباحثون القدامى والمحدثون في تعريف اللغة وتحديد مفهومها، ولا يعنينا هنـ ـا تتبع الاختلاف في تعريفها أو مناقشة أسس هذا الاختلاف، وإنّما الذي يهمنا أساسا هـ ـو الوقوف على تعريف يمكن أن يوافق بين أغلب هذه الآراء، ويحـ ـدد طبيعة اللغـ ـة فـ ـي إطار مقبول، ويعكس حقيقة أبعادها وعناصرها المكونّـ ـة لها، وكيانها العضـ ـوي فـ ـي تشكيله الدقيق، واللغة حسب ما تعرفـ ـها المعاجم هي تلك الظاهرة الاجتماعية المؤلفـ ـة من الكلمات والجمل ذات المفاهيم الدالة، والتي تحمل الأفكار والمشاعر وردود الأفعال ويتم بواسطتها التواصل.

أما اللغة العلمية فيعرفها الأستاذ الدكتور صالح بلعيد قائلا: " واللغة العلمية هـ ـي تلـ ـك اللغة التي تمتاز بمواصفات مستقلّة عن اللغة الأدبية، فهي لا تستعمل نحو لغة مـ ـا إلا الميسر والسهل، والأكثر توظيفا، ولا تُـ ـوظّف مثلا كل حالات الابتـ ـداء بـ ـالنكرة..."[1] فاللغة الأدبية إذن غير اللغة العلمية، والتي تقتضي استعمال الدقة والوضوح والإيجـ ـاز والتي لا تقبل الالتباس والإيحاء والإبهام، على أن ابن القيم يتحرر تماما في أسلوبه من قيود الصناعة اللفظية حين يناقش المسائل العلمية، أو يتناول لب الموضوع، وتستطيل الجملة في أسلوبه العلمي بلغة علمية، ويغلب أن تكون قصيرة في مقام الإقناع حيـ ـن ينافح عن وجهة نظره التي يخالف بها بعض معاصريه، وأمـ ـثلة عـ ـن التعبير العلمي في مفتاح دار السعادة كثـ ـيرة ومستفيضة.

يقول ابن القيم: " وتأمل كيفية خلق الرأس وكثرة ما فيه من العظام حتى قيـ ـل: إنّهـ ـا خمسة وخمسون عظما مختلفة الأشكال والمقادير والمنافع، وكيـ ـف ركبّـ ـه سـ ـبحانه وتعالى على البدن، وجعله عاليا عليه علـ ـو الراكب على مركوبه، ولما كان عاليا على البدن، جعل فيه الحواس الخمس، وآلات الإدراك كلها من السمع والبصر والشم والذوق واللمس، وجعل حاسة البصر في مقدمه، ليكون كالطليعة والحرس والكاشـ ـف للبـ ـدن

[1] - صالح بلعيد، اللغة العربية العلمية، د ط. الجزائر: 2003، دار هـ ـومة للطباعة والنشر والتوزيع، ص 38.

وركّب كلّ عين من سبع طبقات، لكل طبقة وصف مخصوص، ومقـدار مخصـوص ومنفعة مخصوصة، لو فقدت طبقة من تلك الطبقات السـبع أو زالـت عـن هيئتهـا وموضعها لتعطّلت العين عن الإبصار، ثم أركز سبحانه داخل تلك الطبقات السبع خلقا عجيبا، وهو إنسان العيـن بقدر العدسة يبصر به ما بين المشرق والمغـرب والأرض والسماء، وجعله من العين بمنزلة القلب من الأعضاء، فهو ملكهـا، فتلـك الطبقـات والأجفان والأهداب خدم له وحجاب وحرّاس فتبارك ا أحسن الخالقين"[1] يصف ابـن القيم في هـذه الفقرة كيفية خلق ا سبحانه وتعالى رأس الإنسان، وكيف جعل ا فيه الحواس الخمس، وشق فيه العين للبصر... وإذاً تأملنا أسلوب ابن القيم في هذه الفقـرة لظهر جليا أنّه أسلوب علمي خال من غرابة اللفظ والزخرفة اللفظية، ذلك أنه ينـاقش مسألة علمية بحتة، مما يتوجب عليه اللجوء إلى أسلوب علمي، ولغة علمية بعيدة عـن التكلف والإبهام.

وشبيه هذا المثال يقول ابن القيم: "... ثم زين سبحانه الفم بما فيه من الأسنان التـي هي جمال له وزينة، وبها قوام العبد وغذاؤه، وجعل بعضها أرحاء للطحن، وبعضـها آلة للقطع، فأحكم أصولها وحدد رؤوسها، وبيض لونها، ورتّـب صـفوفها متسـاوية الرؤوس متناسقة الترتيب، كأنّها الدر المنظوم بياضا وصفاء وحسنا، وأحاط سـبحانه على ذلك حائطين، وأودعهما من المنافع والحكم ما أودعهما وهما الشـفتان، فحسـن لونهما وشكلهما ووضعهما، وهيأهما وجعلهما غطاء للفم وطبقا له، وجعلهمـا إتمامـا لمخارج حروف الكلام ونهاية له، كما جعل أقصى الحلق بداية له، واللسان وما جاوره وسطا، ولهذا كان أكثر العمل فيها له؛ إذ هو الواسطة، واقتضـت حكمتـه أن جعـل الشفتين لحما صرفا لا عظم فيه ولا عصب، ليتمكن بهما من مص الشراب، ويسـهل عليه فتحهما وطبقهما، وخص الفك الأسفل بالتحريك؛ لأن تحريك الأخف أحسن؛ ولأنّه يشتمل على الأعضاء الشريفة، فلم يخاطر بها في الحركة، وخلق سـبحانه الحنـاجر مختلفة الأشكال في الضيق والسعة والخشونة والملاسة والصـلابة واللـين والطـول والقصر، فاختلفت بذلك الأصوات أعظم اختلاف، ولا يكاد يشـبه صـوتان إلا نـادراً

---

[1] - ابن قيم الجوزية، مفتاح دار السعادة، ج 2، ص 9.

وزين سبحانه الرأس بالشعر، وجعله لباسا له لاحتياجاته إليه، وزين الوجه بما أنبت فيه من الشعور المختلفة الأشكال والمقادير، فزينَه بالحاجبين، وجعلهما وقاية لما يتحدر من بشرة الرأس إلى العينين، وقوسهما وأحسن خطهما، وزين أجفان العينين بالأهداب وزين الوجه أيضا باللحية، وجعلهما كمالا ووقارا ومهابة للرجل، وزين الشفتين بما أنبت فوقهما من الشارب وتحتهما من العنفقة..."[1] يواصل ابن القيم في هذه الفقرة حديثه عن خلق ا الإنسان، وبعد حديثه عن خلق الرأس في الفقرة السابقة، ينتقل إلى عنصر آخر، وهو خلق ا الفم والأسنان والشفاه، وهذه الفقرة لا تقل أهمية عن سابقتها، وهي سلسلة مترابطة تكمل إحداهما الأخرى، فقد وفق ابن القيم في الربط بين الأفكار والعناصر بأسلوب علمي بعيد عن التكلف والزخرفة اللفظية، يتناسب وطبيعة الموضوع، وهو التفكر في خلق ا .

وفي موضع آخر يقول ابن القيم: "... وقد ظهر بهذا بطلان قول طائفتين معا؛ الذين وضعوا ا شريعة بعقولهم أوجبوا عليه، وحرموا منها ما لم يوجبه على نفسه، ولم يحرمه على نفسه، وسووا بينه وبين عباده فيما يحسن منهم ويقبح، وبذلك استطال عليهم خصومهم، وأبدوا مناقضتهم وكشفوا عوراتهم وبينوا فضائحهم، وكذلك بطلان قول الطائفة التي جوزت عليه كلّ شيء، وأنكرت حكمته، وجحدت في الحقيقة ما يستحقه من الحمد والثناء على ما يفعله مماّ يمدح بفعله، وعلى ترك ما يتركه مع قدرته عليه مماّ يمدح بتركه، وجعلت النوعين واحدا، ولا فرق عندهم بالنسبة إليه تعالى بين فعل ما يمدح بفعله وبين تركه، ولا بين ترك ما يمدح بتركه وبين فعله، وبهذا تسلط عليهم خصومهم وأبدوا مناقضتهم، وتبينوا فضائحهم، قال المتوسطون: وأما نحن فلا يلزمنا شيء من هذه الفضائح والأباطيل، فإناّ لم نوافق طائفة من الطائفتين على كلّ ما قالته، بل وافقنا كل طائفة فيما أصابت فيه من الحق، وخالفناها فيما خالفت فيه الحق فكناّ أسعد به من الطائفتين، و المنة والفضل، هذا قولنا قد أوضحناه في هذه المسألة غاية الإيضاح، وأفصحنا عنه بما أمكننا من الإفصاح، فمن وجد سبيلا إلى المعارضة أو رام طريقا إلى المناقضة، فليبدها فإنا من وراء الرد عليه، وإهداء عيوب مقالته إليه ونحن نعلم أنّه لا يرد علينا مقالتنا إلا بإحدى المقالتين اللتين كشفنا عن عوارهما وبينا

---

[1] - ابن قيم الجوزية، مفتاح دار السعادة، ج 2، ص 12.

فسادهما، فليستر عورة مقالته، ويصلح فسادها، ويرم شعثها، ثم ليلـق خصـومه بهـا فالمحاكمة إلى النقل الصريح والعقل الصحيح وا المستعان "[1] يتبين في هذه الفقرة أن ابن القيم تحرر تماما من قيود الصناعة اللفظية، وذلك حين ناقش هذه المسألة العلمية بأسلوب علمي، ويغلب في جمله أن تكون قصيرة قوية في مقام الإقناع حين نافح عـن وجهة نظره التي خالف بها بعض معاصريه.

وفي موضع آخر يقول ابن القيم: " أما ذكر الفلاسفة من مقصود الشرائع، وأن ذلـك لاستكمال النفس قوى العلم والعمل والشرائع ترد بتمهيد ما تقرر في العقل بتعبيـره... إلى آخره، فهذا مقام يجب الاعتناء بشأنه، وأن لا نضرب عنه صفحا، فنقول: للنـاس في المقصود بالشرائع والأوامر والنواهي أربعة طرق: أحدهما: طريق من يقول مـن الفلاسفة وأتباعهم من المنتسبين إلى الملل: إن المقصود بها تهـذيب أخـلاق النفـوس وتعديلها، لتستعد بذلك لقبول الحكمة العلمية والعملية، ومنهم من يقول: لتستعد بذلك لأن تكون محلا لانتقاش صور المعقولات، ففائدة ذلك عندهم كالفائدة الحاصلة مـن صـقل المرآة، لتستعد لظهور الصور فيها، وهؤلاء يجعلون الشرائع مـن جـنس الأخـلاق الفاضلة والسياسات العادلة، ولهذا رام فلاسفة الإسلام الجمع بين الشريعة والفلسفة، كما فعل ابن سينا والفارابي وأضرابهما، وآل بهم إلى أن تكلّموا فـي خـوارق العـادات والمعجزات على طريق الفلاسفة المشائين، وجعلوا لها أسبابا ثلاثة، أحـدها: القـوى الفلكية، الثاني: القوى النفسية، الثالث: القوى الطبيعية ... وبالجملة فهو مبنـي علـى الكفر با وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وليس هذا موضع الرد علـى هـؤلاء وكشف باطلهم وفضائحهم؛ إذ المقصود ذكر طرق النـاس فـي المقصـود بالشـرائع والعبادات، وهذه الفرقة غاية ما عندها في العبادات والأخلاق والحكمة العلميـة أنّهـم رأوا النفس لها شهوة وغضب بقوتها العملية، ولها تصور وعلم بقوتها العلمية فقـالوا: كمال الشهوة في العفة، وكمال الغضب في الحكم والشجاعة، وكمال القـوة النظريـة بالعلم، والتوسط في جميع ذلك بين طرفي الإفراط والتفريط هو العدل، هذا غايـة مـا

---

[1] - ابن قيم الجوزية، مفتاح دار السعادة، ج 3، ص 8.

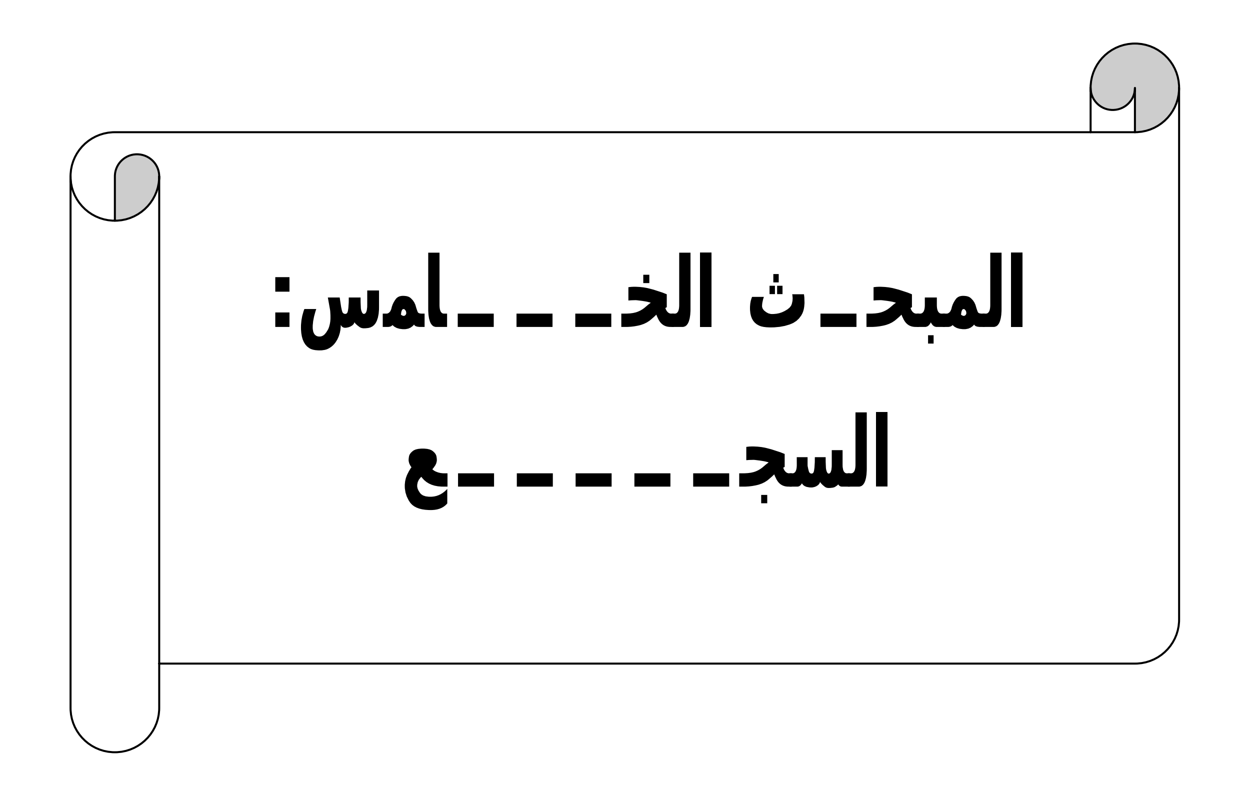
عند القوم من المقصود بالعبادات والشرائع، وهو عندهم غاية كمـال الـنفس، وهـو استكمال قوتها العلمية والعملية، فاستكمال قوتهـا العلميـة عنـدهم بانطبـاع صـور المعلومات في النفس، واستكمال قوتها العلمية بالعدل...[1] " يتحدث ابن القيم فـي هـذه الفقرة عن مقصود الشرائع وما ذكره الفلاسفة عن ذلك، ولقد لجأ ابن القيم إلى الأسلوب العلمي الذي يتماشى وطبيعة الموضوع، فأخذ يصول ويجول، فقد استوفت المسألة حقها في التحليل والنقاش، ولبيان حججه يستشهد بفلاسفة الإسلام للجمـع بـين الشـريعة والفلسفة، كما فعل ابن سينا والفارابي وأضرابهما، وذلـك بأسـلوب علمـي واضـح وبالجملة، تبدو عبارات ابن القيم جزلة قوية تمتاز بالوضـوح والبعـد عـن الغرابـة والمقدرة الفائقة في الحجاج والرد والإقناع.

ويقول أيضا: " فليتأمل العاقل ما في الكلام من ضروب المحال، وما للفلك ووصـول البخارات الأرضية إليه، وهل في قوة البخارات تصاعدها إلى سطح الفلك مـع البعـد المفرط؟ والبخار إذا ارتفع، فغاية ارتفاعه كارتفاع السحاب لا يتعـداه، وهـل تتـأثر العلويات بطبائع السفليات، وتتكيف بكيفياتها وتنفعل عنها؟ ومما يدل على فسـاد ذلـك أيضا أن القمر لو كان مترطبا من البخارات، وجب أن تزداد رطوبته في كل يوم؛ لأنه دائم القبول للبخارات، ولا يقولون ذلك وإن إلتزمه منهم مكابر، وقال كل يـوم يـزداد رطوبة، قلتُ له: فما تنكر أن تكون دلالة زحل والمريخ على النحوس تتزايد وتكـون دلالته على النحوس في اليوم أكثر من دلالته في الأمس، ولو فتح عليكم هذا الباب فلعلّ السعد ينقلب نحسا، وبالعكس، وهذا يرفع الأمان عن أصول هذا العلم...[2]" يظهر فـي هذه الفقـرة الأسلوب العلمي، وذلك عندما يشرح ابن القيم الحقائق العلمية التي لا تخلو من غمـوضٍ وخفـاء، فـهو أكثـر احتياجـا إلـى المنطـق السـليم والفكــر المســتقيم؛ لأنه يخاطب العقلَ، ويناجي الفكر.

---

[1] - ابن قيم الجوزية، مفتاح دار السعادة، ج 3، ص 26.

[2]- المرجع نفسه، ص 110.



المبحـث الخـــامس:

السجـــــع

السجـــع:

لــقد تأثّــر ابن القيم في أسلوبه بالمزايا التي اتصف بها الأسلوب في عصره، ومــن ذلك السجع، والذي رأيته يصدر عنه دون تعمد أو تكلف في صفحات كثيرة من كتابه. وأمثــلة الســجع كثيــرة ومستفيضة في مفتــاح دار الســعادة، نذكر بعضا منــها:

يقول ابن القيم: " فالدنيا قرية والمؤمن رئيسها، والكل مشغول به ساع في مصــالحه والكلّ قد أقيم في خدمته وحوائجه، فالملائكة الذين هم حملة عرش الرحمن، ومن حوله يستغفرون له، والملائكة الموكلون به يحفظونه، والموكلون بالقطر والنبات يسعون في رزقه، ويعملون فيه، والأفلاك مسخّرة منقادة دائرة بما فيه مصالحه، والشمس والقمــر والنجوم مسخرات جاريات بحساب أزمنته وأوقاته، وإصلاح رواتب أقواتــه، والعــالم الجوي مسخّر له برياحه وهوائه وسحابه وطيره، وما أودع فيه، والعالم الســفلي كلــه مسخّر له مخلوق لمصالح أرضه وجباله وبحاره وأنهاره وأشــجاره وثمــاره ونباتــه وحيوانه، وكــل ما فيــه كمــا قال تعالى: **ا ُ الذي سَخَرَ لكُم البَحرَ لتَجري الفُلــك فيه بأمره وَلتَبتَغُوا من فَضله وَلَعَلّكُم تَشكُرون وَسَخرَ لكُم مَا في السمَوَات وَمَــا فــي الأرض جَميعاً منه إن في ذلكَ لآيات لقَوم يَتَفَكّرون** (الجاثية: 12-13) فالسائر فــي معرفة آلاء ا ، وتأمل حكمته وبديع صفاته أطول باعا، وأملأ صواعا مــن اللصــيق بمكانه المقيم في بلد عادته وطبعه، راضيا بعيش بني جنسه، لا يرضى لنفســه، إلاّ أن يكون واحدا منهم يقول: لي أسوة بهم[1]" يتحدث ابن القيم في هذه الفقرة عن تكــريم ا لبني آدم، وتبدو عباراته جزلة قوية تمتاز بالوضوح والبعد عن الغرابة، ويتميز بطول النفس والمقدرة الفائقة في الإقناع، و نراه إذا تناول مســألة صال فيها وجال، وذلــك بأســلوب مشــوق وجــذاب حافل بالســجع، ويظــهر هذا في العبــارات:

(مصالحه، حوائجه) و (أزمنته، أوقاته، أقواته) و (رياحه، هوائه، سحابه)

(بحاره، أنهاره، أشجاره، ثماره) و (حكمته، صفاته) و (جنسه، نفسه).

وفي موضع آخر، يقول ابن القيم: " ثم تأمل الحكمة في أن جعل الحواس خمسا فــي مقابلة المحسوسات الخمس، ليلقى خمسا بخمس، كي لا يبقى شيء من المحسوسات لا

---

[1] - ابن قيم الجوزية، مفتاح دار السعادة، ج 2، ص 201- 202 .

يناله بحاسة، فجعل البصر في مقابلة المبصرات، والسمع في مقابلة الأصوات، والشـم في مقابلة أنواع الروائح المختلفات، والذوق في مقابلة الكيفيات المذوقات، واللمـس في مقابلة الملموسات، فأي محسوس بقي بلا حاسة، ولو كان في المحسوسات شيء غيـر هذه لأعطاك له حاسة سادسة، ولـما كان ما عداها، إنّمـا يـدرك بالبـاطن أعطـاك الحواس الباطنة، وهي هذه الأخماس التي جرت عليها السنة العامة والخاصـة؛ حيـث يقولون للمفكر المتأمل: ضرب أخماسه في أسداسه، فأخماسه حواسه وأسداسه جهاتـه الست، وأرادوا بذلك أنّه جذبه القلب، وسار به في الأقطار والجهات، حتى قلب حواسه الخمس في جهاته الست وضربها فيها لشدة فكـره[1] " يتحدث ابن القيم في هذه الفقـرة عن حواس الإنسان، ثم الحكمة في أن جعل الحواس خمسا في مقابلـة المحسوسـات الخمس، وإذا لاحظنا هذه الفقرة لوجدنا مفرداتها عـذبة تحدث جرسا موسيقيا خفيفـا على الأذن، ولعلّ السبب في ذلك تكرار بعض الكلمـات مـن جهـة مثـل: خمـس المحسوسات، الحواس، والسجع من جهة أخرى، والذي يظهر في الكلمات:

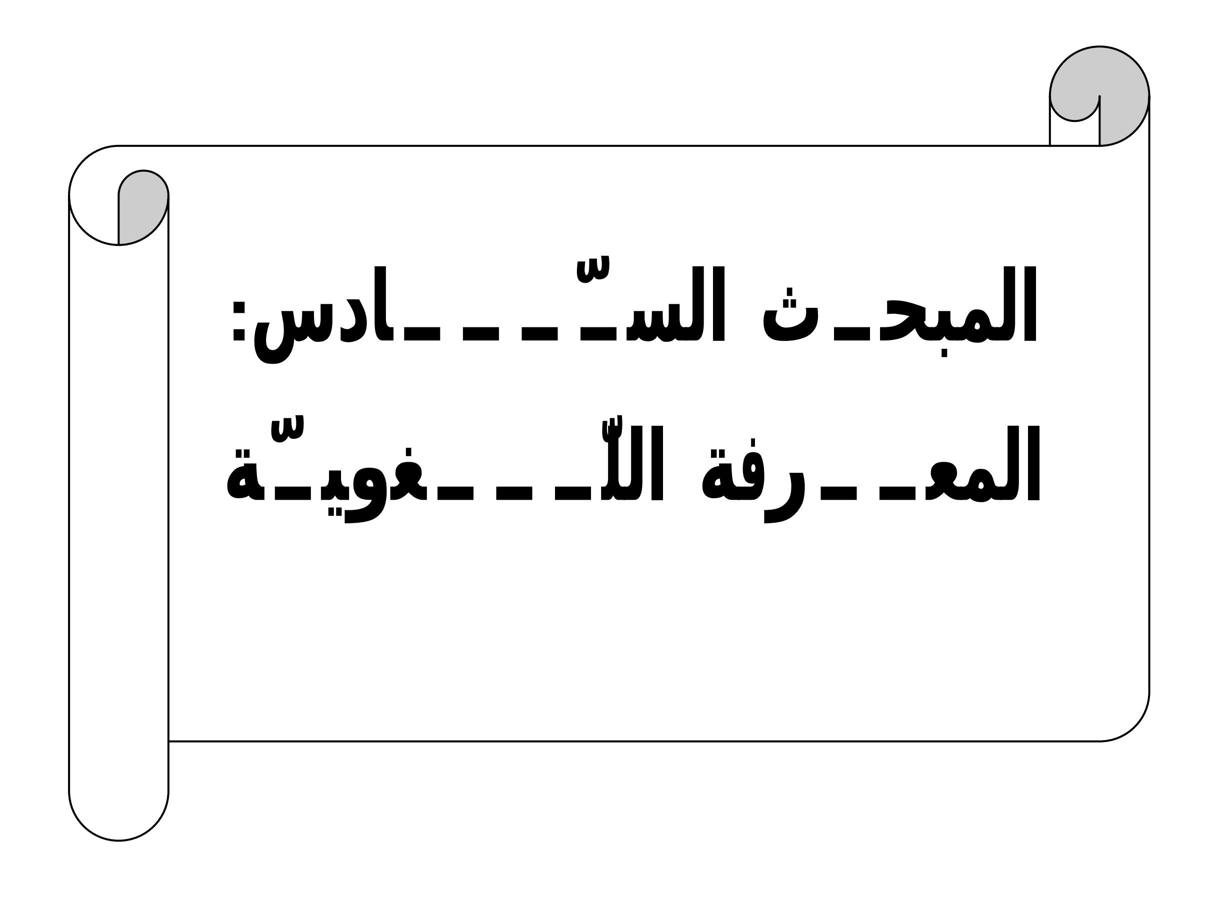
(المبصرات، الأصوات) و(المختلفات، المـذوقات).

نموذج آخر: يقول ابن القيم: " وأعجب من هذا كلّه، تشكّل الفلك بشـكل، وحصـول طالع سعد فيه، باتفاق ملئكم، فيحدث معه من علو كلمة من لا يعبؤون به، ولا يعدونـه وظهور أمرهم، واستيلائهم على المملكة والرئاسة والعز والحيـاة، ولهجهـم بـذمكم وعيبكم، وإبداء جهلهم وزندقتكم وإلحادكم، فتحتاجون أن تنضووا إلـيهم، وتعتصـموا بحبلكم، وتترسوا بهم، وتقولون لهم بألسنتكم ما تنطوي قلوبكم على خلافه، ممـا لـو أظهرتموه لكنتم حصائد سيوفهم، كما صرتم حصائد ألسنتهم [2]" يتحدث ابن القيم في هذه الفقرة عن الطالع الصادق الكاذب المصيب المخطئ، وعن المنجمين، وذلك بأسـلوب قـوي، وألفاظ موحية، وعبارات جزلة قوية يتخللهـا السـجع، ممـا زادهـا جمـالا وعـذوبة، ويـظهر السجـع في الكلمات التاليـة: (عيبـكم، زندقتـكم، إلحادكم) و(إلـيهم، بـهم) و(سيوفهم، ألسنتهم).

---

[1] - ابن قيم الجوزية، مفتاح دار السعادة، ج 2، ص 204.

[2] - المرجع نفسه، ج 3، ص 163.


المبحـث السّـــادس:
المعــرفة اللّــــغويـّة

المعرفة اللّغوية:

ومن خصائص أسلوب ابن القيم كذلك معرفته اللغوية، وهذا ما لاحظته جليا في مواضع كثيرة من الكتاب؛ حيث كان إذا عرضت له مسألة لغوية، إلا وبحث فيها.

وأمثلة ذلك، يقول ابن القيم: " تأمل نعمة ا على الإنسان بالبيانين: البيان النطقي والبيان الخطي، وقد اعتد بهما سبحانه في جملة ما اعتد به من نعمه على العبد فقال تعالى في أول سورة أنزلت على رسول ا ﷺ: **اقرَأ بِاسمِ رَبكَ الذي خَلَقَ خَلَقَ الإنسَانَ مِن عَلَقٍ اقرَأ وَرَبكَ الأكرَم الذي عَلَمَ بِالقَلَم عَلَمَ الإنسَانَ مَا لَم يَعلَم** (العلق:1-5) فتأمل كيف جمع في هذه الكلمات مراتب الخلق كلها، وكيف تضمنت مراتب الموجودات الأربعة بأوجز لفظ وأوضحه وأحسنه، فذكر أولا عموم الخلق، وهو إعطاء الوجود الخارجي، ثم ذكر ثانيا خصوص خلق الإنسان لأنه موضع العبرة والآية فيه عظيمة، ومن شهوده عما فيه محض تعدد النعم، وذكر مادة خلقه هاهنا من العلقة، وفي سائر المواضع يذكر ما هو سابق عليها، إما مادة الأصل، وهو التراب أو الطين أو الصلصال كالفخار، أو مادة الفرع، وهو الماء المهين، وذكر في هذا الموضع أول مبادئ تعلق التخليق به وهو العلقة، فإنه كان قبلها نطفة، فأول انتقالها إنما هو إلى العلقة، ثم ذكر ثالثا التعليم بالقلم الذي هو من أعظم نعمه على عباده؛ إذ به تخلد العلوم، وتثبت الحقوق، وتعلم الوصايا، وتحفظ الشهادات ويضبط حساب المعاملات الواقعة بين الناس، وبه تقيد أخبار الماضين للباقين اللاحقين[1]" نرى ابن القيم في هذه الفقرة يبحث الآية الكريمة، ويدرسها دراسة لغوية، ويشير إلى ما فيها، وإن من يلاحظ ابن القيم في كتابه يجده قوياّ فيما يختص بالبلاغة، لا يتوانى في تأييد قوله بالحجج، ثم يشرح بعض الكلمات ويقتفي أثرها وضاربا بالأمثلة على ما يقول، ومن ذلك قوله: مادة الأصل، وهو التراب أو الطين أو الصلصال كالفخار، مادة الفرع: وهو الماء المهين، التعليم بالقلم: الذي هو من

[1] - ابن قيم الجوزية، مفتاح دار السعادة، ج 2، ص 239.

أعظـم نعمه على عبـاده... فهـو يشرح الكلـمات، ولا يتركها مبهـمة، وهـذا دليـل على معرفتـه اللغـوية.

وفي موضع آخر يقول ابن القيم: " وهنا نوعان من أنواع التذلل والتعبد، لهمـا أثـر عجيب يقتضيان من صاحبهما من الطاعة والفوز ما لا يقتضيه غيرهما: **أحـدهما** ذلّ المحبة، وهذا نوع آخر غير ما تقدم، وهو خاصة المحبة ولبها، بل وروحها وقوامهـا وحقيقتها، وهو المراد على الحقيقة من العبد لو فطن، وهذا يستخرج من قلب المحـب من أنواع التقرب والتودد والتملق والإيثار والرضا، والحمد والشكر والصبر والتنـدم وتحمل العظائم ما لا يستخرجه الخوف وحده، ولا الرجاء وحـده كمـا قـال بعـض الصحابة: إنّه ليستخرج محبته في قلبي من طاعته ما لا يستخرجه خوفه، أو كما قـال فهذا ذل المحبين، **الثاني**: ذل المعصية، فإذا انضاف هذا إلى هذا هناك فنيت الرسـوم وتلاشت الأنفس، واضمحلت القلوب، وبطلت الدعـاوى جملة وذهبت الرعونات...[1] "

تطرق ابن القيم في هذا المثال إلى مسألة هامة وهي التذلل والتعبد، وهما نوعان، ثـم أتـى على ذكرهما، وأفـاض كثيرا في الشرح، ثـم مناقشة أقوال الصـحابة، وهـذا دلـيل على معرفته اللغوية الفائـقة.

ونموذج آخر، يقول ابن القيم: " وأما الضحايا والهـدايا، فقربان إلى الخالق سـبحانه يقوم مقام الفدية عن النفس المستحقة للتاف، فدية وعوضا وقربانا إلى ا ، وتشبها بإمام الحنفاء، وإحياء لسنته أن فدى ا ولده بالقربان، فجعل في ذريته باقيـا أبـدا، وأمـا الأيمان والنذور فعقود يعقدها العبد على نفسه، يؤكد بها ما ألزم به نفسه مـن الأمـور با و ، فهي تعظيم للخالق ولأسمائه ولحقه، وأن تكون العقود به وله، وهـذا غايـة التعظيم، فلا يعقد بغير اسمه، ولا لغير القرب إليه، بل إن خلـف، فباسـمه تعظيمـا وتبجيلا وتوحيدا وإجلالا، وإن نذر فله توحيدا وطاعة ومحبة وعبودية، فيكـون هـو المعبود وحده والمستعان به وحده، وأما المطاعم والمشارب والملابس والمناكح، فهـي داخلة فيما يقيم الأبدان ويحفظها من الفساد والهلاك[2]" بين ابن القيم في هـذا المثـال مفهوم كل من الضحايا والهـدايا، والأيـمان والنـذور، وذلك بأسلوب قوي وعبارات

---

[1] - ابن قيم الجوزية، مفتاح دار السعادة، ج 2، ص 267.

[2] - المرجع نفسه، ص 325- 326.

جزلة قوية تمتاز بالوضوح، والبعد عن غرابة اللفظ، ويظهر تميـزه بطـول الـنفس والمـقدرة الفـائقة في الإقناع.

ويقول أيضا: " وإذ قـد جرى الكلام إلى الخفاش، فهو من الحيوانات العجيبة الخلقـة بين خلقة الطيور، وذوات الأربع، وهو إلى ذوات الأربع أقـرب، فإنـه ذو أذنـين ناشرتين، وأسنان ووبر، وهو يلد ولادا، ويرضع ويمشي على أربع، وكل هـذا صـفة ذوات الأربع، وله جناحان يطير بهما مع الطيور، ولما كان بصره يضعف عن نـور الشمس كان نهاره كليل غيره، فإذا غابت الشمس انتشر، ومن ذلـك سـمي ضـعيف البصر أخفش، والخفش ضعف البصر، ولما كان كذلك جعلت قوته من هـذه الطيـور الضعاف التي لا تطير إلا بالليل[1]" يبدو في أسلوب ابن القيم أثر ثقافته الواسعة، وعلى الرغم من أنه فقيه وأصولي، إلا أنّه على دراية حتى بأبسط الأمور، وها نحـن نـراه يتحدث عن الطيور، وبالضبط عن الخفّاش، وهو من الحيوانات العجيبة الخلقة بين خلقة الطيور كما وصفه ابن القيم، ثم يشرح سبب تسميته بالخفاش، ومعنى الخفش، فـهو حقا عالم موسوعي. **ويقول أيضا**: " ... على أنك لو تأملت قولك: " طبيعة " ومعنـى هذه اللفظة لدلّك على الخالق الباري لفظها، كما دلّ العقول عليه معناه؛ لأن " طبيعـة " فـعيلة بمعنى مفعولة أي مطبوعة، ولا يحتمل غير هذا البتة، لأنها على بناء الغرائـز التي ركبت في الجسم، ووضعت فيه كالسجية والغريزة والبحيرة والسـليقة والطبيعـة فهي التي طبع عليها الحيوان وطبعت فيه[2] " من خلال هذا المثال يتبين أن ابـن القـيم يتمتع أيضا بمعرفة نحوية، يستظهرها وقت الحاجة، فبعد أن تطرق إلى شـرح كلمـة طبيعة، وما تحمله من معنى، علل ذلك بقوله: لأن " طبيعة " فـعيلة بمعنى مفعولة؛ أي مطـبوعة، فـهي مـزيج بيـن المعـرفة النحوية واللغوية التي يتمتع بها ابن القيم.

ويقول أيضا: " وقد أخبر سبحانه أنّه خلقه من تراب، وأخبر أنّه خلقه من سـلالة مـن طين، وأخبر أنّه خلقه من صلصال، والصلصال قيل فيه هو الطين اليابس الـذي لـه صلصلة ما لم يطبخ، فإذا طبخ فهو فخار، وقيل فيه هو المتغير الرائحة من قولهم صل

---

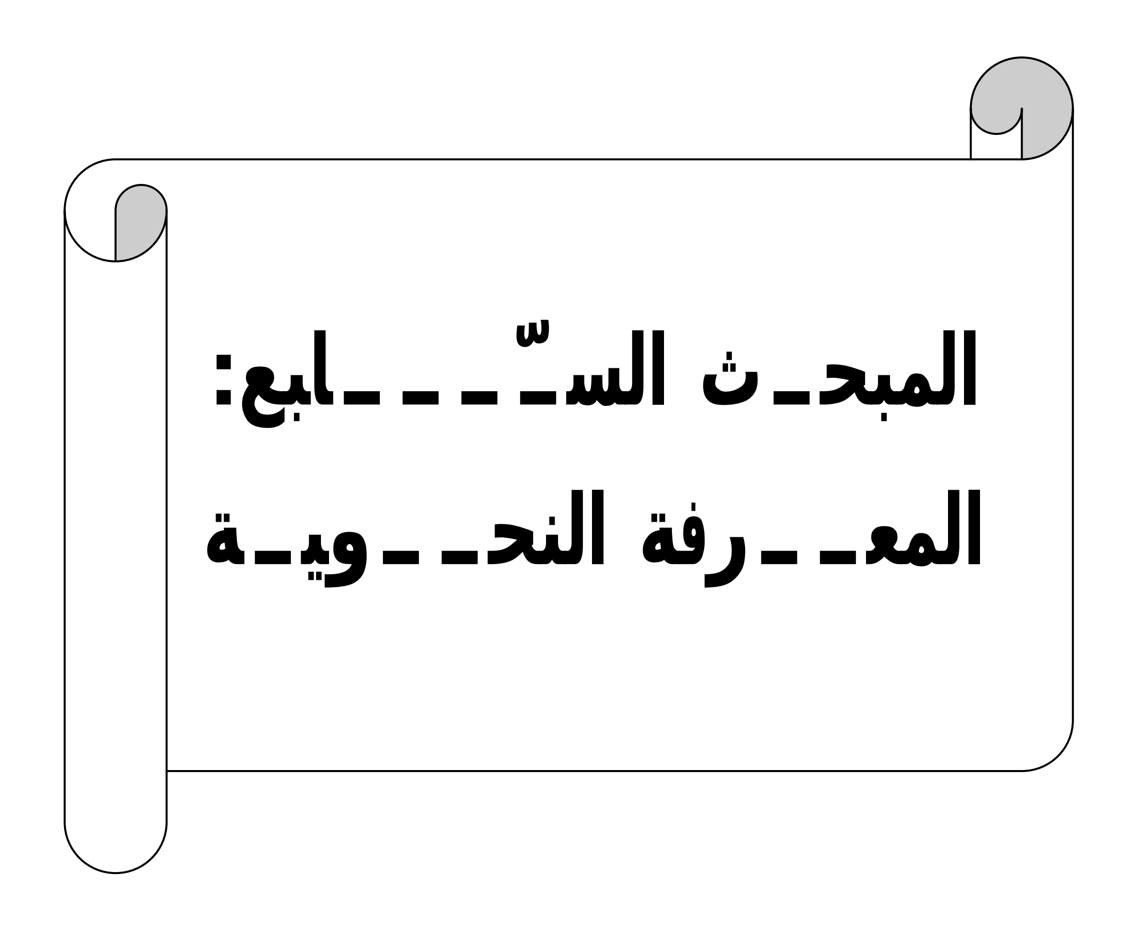
[1] - ابن قيم الجوزية، مفتاح دار السعادة، ج 2، ص 163.

[2] - المرجع نفسه، ص 197- 198.

إذا انتن، والحمأ الطين الأسود المتغير، والمسنون قيل المصبوب من سننت الماء إذا صببته، وقيل المنتن المسن من قولهم سننت الحجر على الحجر إذا حككته، فإذا سال بينهما شيء فهو سنين، ولا يكون إلا منتنا، وهذه كلها أطوار للتراب الذي هو مبدؤه الأول، كما أخبر عن خلق الذرية من نطفة، ثم من علقة، ثم من مضغة "[1]
تحدث ابن القيم في هذه الفقرة عن حقيقة خلق الإنسان، على أن ا سبحانه وتعالى خلقه من تراب، وأنّه خلقه من سلالة من طين، وأنه خلقه من صلصال، ثم أخذ ابن القيم يشرح هذه المصطلحات واحدة تلوى الأخرى بكل ما أوتي من معرفة لغوية، ومن خلال ما سبق يظهر أن ابن القيم كان يتمتّع بمعرفة لغوية لا تضاهى حيث يبدو في أسلوبه أثر ثقافته الواسعة، وعلى الرغم من أنّه فقيه وأصولي، إلا أنّه على دراية حتّى بأبسط الأمور، فلقد كان إذا عرضت له مسألة لغوية لم يتركها حتى يقتلها بحثا، وكان لتمكنه من اللغة يوازن بين الأقوال، وإن من يلاحظ ابن القيم في كتابه يجده قويا فيما يختص باللغة لا يتوانى في تأييد قوله بالحجج، وقد تطرقت إلى هذه المسألة، وهي المعرفة اللغوية لابن القيم، فرب قائل: " ما لابن القيم العالم الفقيه والأبحاث اللغوية " فأردت أن أثبت خبرته الواسعة باللغة، إلى جانب ما اشتهر به من الدراسة الشرعية، لنضم ذلك إلى ما اشتهر به فنقول: **عالم لغوي.**

---

[1] - ابن قيم الجوزية، مفتاح دار السعادة، ج 1، ص163.



المبحث السّابع: المعرفة النحوية

المعـرفة النّحـوية:

وهـذه خاصية أخرى من خصائص أسلوب ابن القيم؛ حيث كان إذا عـرض لمسـألة متصـلة بالقـواعد النحوية، صال فيها وجال، كأنّه عالم متخصص مع حـسن توجيه. وأمـثلة ذلك كـثيرة ومسـتفيضة في مفـتاح دار السعادة، نـذكـر بعضـا منهـا:
يقول ابن القيم: "... قالوا: والمعول عليه في ذلك قوله تعالى للملائكة: **إني جَاعـلٌ في الأرض خَليفَةً** (البقرة: 3) ... فأما من هو في دار الخلد فوق السماء؛ فلم تتوهم الملائكة منه سفك الدماء والفساد في الأرض، ولا كان إظهار فضله وشـرفه وعلمـه وهو فوق السماء يراد لقولهم، وجوابا لسؤالهم، بل الذي يحصل به جوابهم، وضد مـا توهموه إظهار تلك الفضائل والعلوم منه، وهو في محلّ خلافته التي خلق لها، وتوهمت الملائكة أنّه لا يحصل منه هناك إلاّ ضدها من الفساد وسفك الدماء، وهذا واضح لمـن تأمله، وأمـا اسم الفاعل وهو "جاعل" وإن كان بمعنى الاستقبال؛ فلأن هذا إخبار عما سيفعله الرب تعالى في المستقبل من جعله الخليفة في الأرض، وقـد صـدق وعـده ووقع ما أخبر به، وهذا ظاهر في أنّه من أول الأمر جعله خليفة في الأرض[1] " يتحدث ابن القيم في هذه الفقرة عن حكمة ا سبحانه وتعالى في قصة آدم عليه السـلام ، ثـم استطرد فيها بتحرير الخلاف حول الجنة التي اهبط منها، ولتقوية حجته استشهد ابـن القيم بالآية الكريمة، ولم يكتـف بـذلك، بل أخذ يدرس الآية الكريمة دراسة نحويـة مستظهرا معـرفته النحوية، وهـذه من الميزات التي اتصف بهـا منهـجه.
ويقول أيضا: " وقـد قال تعالى في سورة الأعراف (13) لما قال إبليس: **أَنَـا خَيـرٌ منه خَلَقتَني من نار وَخلقتَه من طين** و **قَالَ فَاهـبِطْ منْهَا فَمَا يَكُون لَكَ أَن تَتَكبر فيهَا فَاخْرج إنكَ منَ الصاغـرين** فقـوله: **اهبِـط منْهَا فَمَا يَكُون لَكَ أَن تَتَكبـرَ فيهَا** يبين اختصاص الجنّة التي في السماء بهذا الحكم بخلاف جنـة الأرض، فـإن إبليس كان غير ممنوع من التكبر فيها، والضمير في قوله: منها عائد إلى معلـوم

[1] - ابن قيم الجوزية، مفتاح دار السعادة، ج 1، ص 162.

وإن كان غيـر مذكور في اللفظ لأن العلم به أغنى عن ذكره[1] " يواصـل ابـن القـيم حديثه في هذه الفـقرة عن سيدنا آدم وإبليس، ولتقويـة حججـه استشـهد بـالآيتين الكريمتين، وها نحن نراه يدرسهما دراسة نـحوية مبينا مـوقع الضمير: **منهـا** حيـث يقـول: والضمير فـي قولـه: " **منها** عائد إلى معلـوم، وإن كـان غيـر مـذكـور في اللـفظ، لأن العلم به أغنى عن ذكره".

ويقول أيضا: " ... قالوا: والضمير في قوله **اهبطوا منها** إما أن يكون عائدا إلى السماء كما هو أحد القولين، وعلى هذا فيكون سبحانه قد أهبطه مـن السـماء عقـب امتناعه من السجود، وأخبر أنّه ليس له أن يتكبر فيها، ثم تكبر وكذب وخان في الجنـة فـدلّ على أنّها ليست في السماء، أو يكون عائدا إلى الجنة على القول الآخر، ولا يلزم من هذا القول أن تكون الجنة التي كاد فيها آدم وغـره، وقاسمه كاذبا هي تلـك التـي أهبط منها، بل القرآن يدل على أنّها غيرها كما ذكرناه، فعلى التقديرين لا تـدلّ الآيـة على أن الجنة التي جرى لآدم مع إبليس ما جرى فيها هـي جنـة الخـلد[2]" يواصـل ابن القيم في هـذه الفقرة دراسة الآية الكريمة دراسة نحوية، لكن هذه المـرة ينـاقش أقوال الطوائف، ويشرح ما ذهبت إليه كل طائفة، وبعد العرض والتحليل يتوصل ابـن القيم إلى نتيجة، قد تكون موافقة أو مخالفة لأقوال الطوائف.

ويقول ابن القيم: "... ومما يدلّ على أنّها جنة الخلد بعينها أنّها جـاءت معرفة بـلام التعريف في جميع المواضع كقوله: **اسكُن أَنْتَ وَزَوجكَ الجَنةَ** (البقـرة: 35) ولا جنّة يعهدها المخاطبون، ويعرفونها إلاّ جنة الخلد التي وعد الرحمن عباده بالغيب، فقد صار هذا الاسم علما بالغلبة، وإن كان في أصل الوضع عبارة عن البستان ذي الثمار والفواكه، وهذا كالمدينة لطيبة، والنـجم للثريا ونظائرها؛ فحيـث ورد اللفـظ معرفـا بالألف واللام انصرف إلى الجنة المعهودة المعلومة في قلوب المـؤمنين، وإمـا أن أريـد بـه جنّـة غـيرها، فإنّـها تـجيء منـكرة كـقـولـه: **جَنـتَين مـن أَعنَاب** (الكهف:23) أو مقيدة كقـوله **وَلولا إِذْ دَخلْتَ جَنتَـكَ** (الكهـف: 39) أو مقيـدة من السياق بما يدل على أنّها جنّة في الأرض كقوله **إنا بلَوناهم كمَا بَلَونَـا**

[1] - ابن قيم الجوزية، مفتاح دار السعادة، ج 1، ص 168.

[2] - المرجع نفسه، ص 172.

أَصحَابَ الجَنة إِذْ أَقْسَموا لَيَصرِمنهَا مصبِحين (القلم: 17) فهذا السياق والتقييد يدل على أنها بستان في الأرض[1]" يدرس ابن القيم في هذه الفقرة الآيات الكريمة دراسة نحوية؛ حيث تعرض لمختلف الحالات التي وردت فيها كلمة " الجنة " سواء كانت نكرة أو معرفة، أو مقيدة، وذلك بأسلوب واضح بعيد عن الغرابة والتكلف، وتظهر أيضا مقدرته العجيبة في المناقشة، لما يتمتع به من معرفة نحوية يستظهرها وقت الحاجة.

ونموذج آخر: يقول ابن القيم: "... فلما كسره سبحانه بإهباطه من الجنة جبره وذريته بهذا العهد الذي عهد إليهم؛ فقال تعالى: **فَإِمَا يَأْتِيَنكُم مني هدى** وهذه هي "إن" الشرطية المؤكدة بـ "ما" الدالة على استغراق الزمان والمعنى: أي وقت، وأي حين أتاكم مني هدى، وجعل جواب هذا الشرط جملة شرطية، وهي قوله: **فَمَن اتبَعَ هدَاي فَلا يَضل وَلا يَشْقَى** (طه: 123) كما تقول: إن زرتني فمن بشرني بقدومك فهو حر وجواب الشرط يكون جملة تامة، إما خبرا محضا كقولك: إن زرتني أكرمتك، أو خبرا مقرونا بالشرط كهذا، أو مؤكدا بالقسم أو بـ " إن" واللام كقوله تعالى: **وإِن أَطَعتُموهم إِنكُم لَمشرِكُون** (الأنعام: 121) وإما طلبا كقول النبي ﷺ: " إذا سألت فاسأل ا ، وإذا استعنت فاستعن با " ... وأكثر ما يأتي هذا النوع مع "إذا" التي تفيد تحقيق وقوع الشرط - لسر وهو إفادته تحقيق الطلب عند تحقق الشرط - فمتى تحقق الشرط، فالطلب متحقق، فأتى بـ " إذا" الدالة على تحقيق الشرط فعلم تحقق الطلب عندها، وقد يأتي مع " إن " قليلا كقوله تعالى: **وَإِن كَذبوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُم عمَلُكُم** (يونس: 41) وإما جملة إنشائية كقوله لعبده الكافر: إن أسلمت فأنت حر، ولامرأته: إن فعلت كذا فأنت طالق، فهذا إنشاء للعتق، والطلاق عند وجود الشرط- على رأي- أو إنشاء له حال التعليق، ويتأخر نفوذه إلى حين وجود الشرط – على رأي آخر- وعلى التقديرين، فجواب الشرط جملة إنشائية، والمقصود أن جواب الشرط في الآية المذكورة جملة شرطية، وهي قوله تعالى: **فَمَن تَبِعَ هدَايَ فَلا خَوفٌ عَلَيهِم وَلا هم يَحزَنُون** (البقرة: 38) وهذا الشرط يقتضي ارتباط الجملة الأولى بالثانية ارتباط العلة بالمعلول، والسبب بالمسبب، فيكون الشرط الذي هو ملزوم علة مقتضيا للجزاء الذي هو لازم، فإن كان بينهما تلازم من الطرفين، كان وجود كل

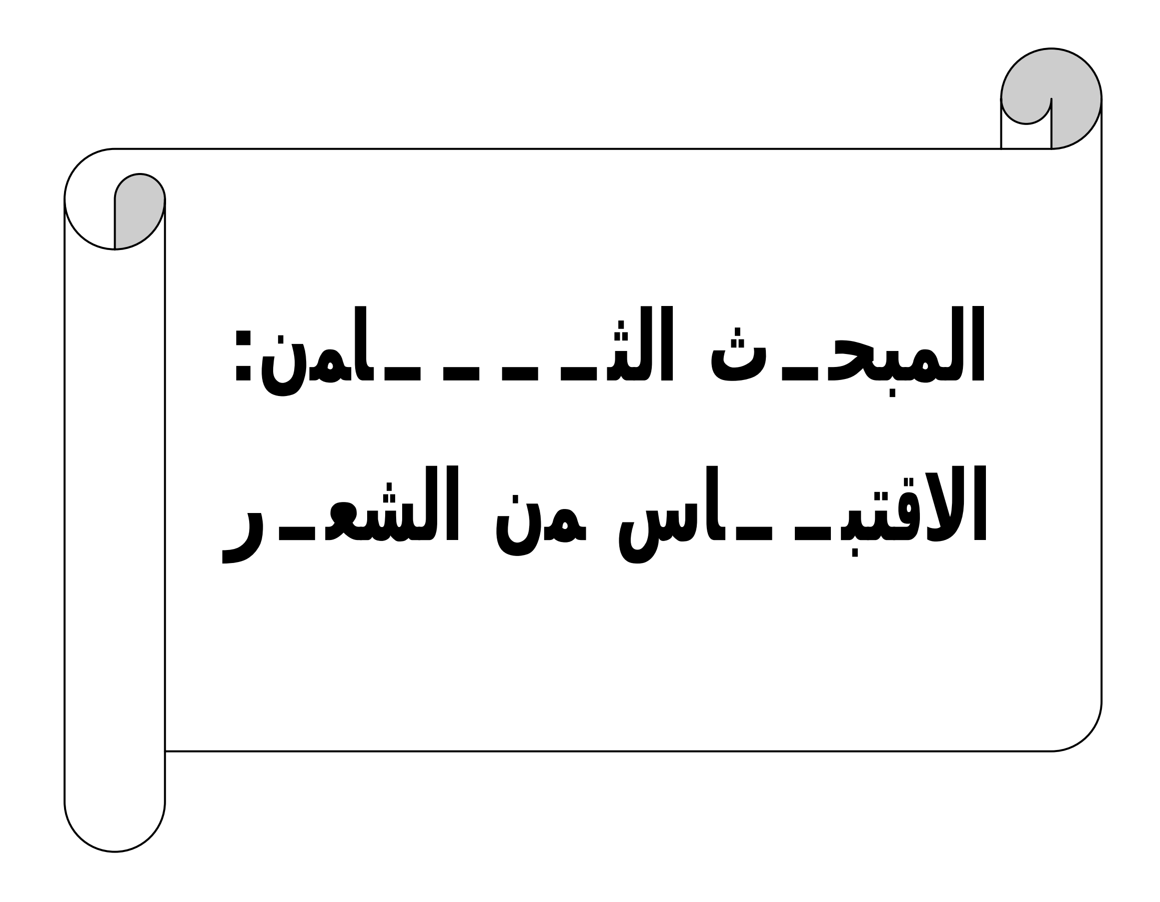
---

[1] - ابن قيم الجوزية، مفتاح دار السعادة، ج 1، ص 139- 140..

منهما بدون دخول الآخر ممتنعا، كدخول الجنة بلا إسلام، وارتفاع الخـوف والحـزن والضلال والشقاء مع متابعة الهوى[1]" يدرس ابن القيم في هذه الفقـرة الآيـة الكريمـة دراسة نحوية كافيـة شافيـة، فلا يترك شاردة ولا واردة إلا وتطرق إليها، ملما بكـل الجوانب النحوية الممكنة، ضاربا بالأمثلة، ومستشهدا بـآيات من القرآن الكريم، فـلا يترك القارئ تائها وسط المسائل الشائكة، بل يصول ويجول، حتى تبدو الأمور واضحة وهذا ما لاحظناه في هذا المثال خاصة، والأمثلة السالفة الـذكر عموما.

---

[1]- ابن قيم الجوزية، مفتاح دار السعادة، ج 1، ص 177- 178.



المبحـث الثـــــامن:

الاقتبــاس من الشعــر

الاقتبـــــاس مــن الشــعر:

ومن خصائص أسلوب ابن القيم أيضا الاستشهاد بـالشعر؛ حيث ظهر أثر الشعر في أسلوبه، فكان يقتبس منه دون أن يشعر القارئ باضطراب في الأسلوب أو قلـق فـي العبارة، وهذه الخاصية بادية على صفحات كتابه مفتاح دار السعادة، فلا تكـاد تقـف على موضع إلا وتجد شعرا رائقا، ونظما فائقا، مما يدلّ على ذاكرتـه العجيبـة فـي استحضاره من الشعـر ما يلائـم الموضوع الـذي يخـوض فيه، وأمثـلة ذلـك:

يقول ابن القيم: " وفيه تنبيه للعلماء على سلوك هدي الأنبياء وطريقتهم في التبليغ من الصبر والاحتمال، ومقابلة إساءة الناس إليهم بالإحسان والرفق بهم، واستجلابهم إلى ا بأحسن الطرق، وبـذل ما يمكن من النصيحة لهم؛ فإنه بذلك يحصل لهم نصيبهم مـن هذا الميراث العظيم قدره الجليل خطره، وفيه أيضا تنبيه لأهل العلم على تربية الأمـة كما يربي الوالد ولده؛ فيربونهم بالتدريج والترقي من صغار العلم إلى كباره، وتحميلهم منه ما يطيقون، كما يفعل الأب بولده الطفل في إيصاله الغذاء إليه، فإن أرواح البشـر بالنسبة إلى الأنبياء والرسل كالأطفال بالنسبة إلى آبائهم، بل دون هذه النسـبة بكثيـر ولهذا كل روح لم يربها الرسل لم تفلح ولم تصلح لصالحه كما قيل:

ومن لاَ يربيه الرسول ويسقه   لُباناً لَه قَـَد در من ثَدي قُدسه

فَـذَاك لَقيطٌ ماَ لَه نسبةُ الولاَ   ولاَ يتَعدى طَور َأبـنَاء جنسه[1]"

يتحدث ابن القيم في هذه الفقرة عن كمال الأنبياء وعظم نصحهم للأمم، وتمام نعمة ا عليهم وعلى أممهم، أن أزاح جميع العلل، وحسم جميع المواد التي توهم بعض النفوس أن الأنبياء من جنس الملوك الذين يريدون الدنيا وملكها، فحماهم ا سبحانه وتعالى من ذلك أتم الحماية، ونرى ابن القيم يستحضر من الشعر ما يلائم هذا الموضـوع؛ حيـث اقتبس ابن القيم قوله: " فإن أرواح البشر بالنسبة إلى الأنبياء والرسل كالأطفال بالنسبة إلى آبائهم، بل دون هذه النسبة بكثير، ولهذا كل روح لم يربها الرسل لـم تفلـح ولـم تصلح لصالحه " من قول الشاعر:

---

[1]- ابن قيم الجوزية، مفتاح دار السعادة، ج 1، ص 262.

ومن لا يربيه الرسول ويسقه لُباناً له قـَد در من ثَدي قُدسه

فَـذَاك لَقيطٌ ما له نسبةُ الولا ولا يتَعدى طَور أَبـنَاء جنسه.

ويقول أيضا: " فتأمل الآن موقع الكسرة التي حصلت له بالمعصية في هذا الموطن ما أعجبها، وما أعظم موقعها، كيف جاءت فمحقت من نفسه الدعاوى والرعونات وأنواع الأماني الباطلة، ثم أوجبت له الحياء والخجل من صالح ما عمل، ثم أوجبت له استكثار قليل ما يرد عليه من ربه، لعلمه بأن قدره أصغر من ذلك، وأنّه لا يستحقه، واسـتقلال أمثال الجبال من عمله الصالح بأن سيئاته وذنوبه تحتاج من المكفرات والماحيات إلـى أعظم من هذا؛ فهو لا يزال محسنا وعند نفسه المسيء المذنب منكسرا ذليلا خاضعا لا يرتفع له رأس، ولا ينقام له صدر، وإنما ساقه إلى هذا الذل- والـذي أورثـه إيـاه- مباشرة الذنب، فأي شيء أنفع له من هذا الدواء؟

لَعل عتبك محمود عواقبه وربما صحت الأجسام بالعلل

ونكتة هذا الوجه أن العبد متى شهد صلاحه واستقامته شمخ بأنفه وتعاظمت نفسه [1]..."

يتحدث ابن القيم في هذه الفقرة عن تمام العبودية، منها أنّه سبحانه يستخرج بذلك مـن عبده تمام عبوديته، فإن تمام العبودية هو بتكميل مقام الذل والانقياد، وأكمـل الخلـق عبودية أكملهم ذلا وانقيادا وطاعة، والعبد ذليل لمولاه الحق بكل وجه مـن وجـوه الذل، ونراه يستحضر من الشعر ما يلائم الموضوع، ولكن هذه المرة ليس اقتباسا مـن قول الشاعر، وإنما من شعره هو؛ أي من إنشائه، وذلك لتدعيم أفكاره وتقوية حججه.

ونموذج آخر: يقول ابن القيم: " وليس حال هـذا كمن ولـد فـي الأمـن والعافيـة والغنى والسرور؛ فإنّه لم يشعر بغيره، وربما قيضت له أسباب تخرجه عن ذلك إلـى ضده، وهـو لا يشعر، وربما ظن أن كثيرا من أسباب الهلاك والعطب تفضي به إلى السلامة والأمن والعافية؛ فيكون هلاكه على يـدي نفسه، وهو لا يشعر، وما أكثر هذا الضرب من الناس؛ فإذا عرف الضدين وعلم مباينة الطرفين، وعرف أسباب الهـلاك على التفصيل، كان أحرى أن تدوم له النعمة ما لم يؤثر أسباب زوالها على علم، وفي مثل هـذا قال القائل:

---

[1] ابن قيم الجوزية، مفتاح دار السعادة، ج 2، ص 268.

عرفتُ الشَر لاَ للشَر لكن لتوقيه   ومن لا يعرف الشر من الناس يقع فيه[1]"

تطرق ابن القيم في هذه الفقرة إلى معرفة الأمراض والأدواء، وذكر حال الإنسان الذي ولـد في الأمن والعافية والغنى والسرور؛ فإنّه لم يشعر بغيره، وربما ظن أن كثيـرا من أسباب الهلاك والعطب تفضي به إلى السلامة والأمن والعافية؛ فيكون هلاكه على يـدي نفـسه، ولتدعيـم أفكاره استشهد ابن القيم بقول الشاعر؛ حيث اقتبس قولـه:

" فيكون هلاكه على يـدي نفسه، وهو لا يشعر" من قول الشاعر:

عرفتُ الشَر لاَ للشَر لكن لتوقيه   من لا يعرف الشر من الناس يقع فيه.

ويقول ابن القيم: " ومنها أنّـه سبحانه يذيق عبده ألم الحجاب عنه والبعد، وزوال ذلك الأنس والقرب ليمتحن عبده، فإن أقام على الرضا بهذه الحال، ولم يجد نفسـه تطالبـه بحالها الأول مع ا ، بل اطمأنّت وسكنت إلى غيره، علم أنّه لا يصلح؛ فوضـعه فـي مرتبته التي تليق به، وإن استغاث استغاثة الملهوف، وتفلق تفلق المكروب، ودعا دعاء المضطر، وعلم أنّه قد فاتته حياته حقا؛ فهو يهتف بربه أن يرد عليه حياته، ويعيد عليه ما لا حياة له بدونه، علم أنّه موضع لما أهل له، فـرد عليه أحوج ما هو عليـه إليـه فعظمت به فرحته، وكملت به لذّته، وتمت به نعمته، واتّصل به سروره، وعلم حينئـذ مقداره، فعض عليه بالنواجذ، وثنى عليه الخناصر، وكان كحال ذلك الفاقد لراحلته التي عليها طعامه وشرابه في الأرض المهلكة إذا وجدها بعد معاينة الهلاك، فما أعظم موقع ذلك الـوجدان عنده، و أسرار وحكـم ومنبهات وتعريفات لا تنالها عقول البشر:

قَقُل لغَليظ القَلب ويحك لَيس ذاً   بعشك قَادرج طَالباً عشك البَالي

ولاَ تَك ممن مد باَعاً إلى جنىً   فَقَصر عنه قَالَ ذاَ لَيس بالحالي

ولَما تَذَكرتُ المنَازلَ بالحمى   ولَم يقض لي تَسليمةُ المتَزود

تَيقنتُ َأن العيشَ لَيس بنافعي   إذَا َأنَا لَم َأنظُر إلَيها بموعـ ـد[2]"

يتحدث ابن القيم في هذه الفقرة عن امتحان الرب عبده؛ فالعبد إذا بلـي بعـد الأنـس بالوحشة، وبعد القرب بنار البعاد اشتاقت نفسه إلى لذة تلك المعاملـة؛ فحنّـت وأنّـت وتصدعت وتعرضت لنفحات من ليس لها منه عوض أبدا، ولا سيما إذا تذكّرت بـره

---

[1] - ابن قيم الجوزية، مفتاح دار السعادة، ج 2 ، ص 289.

[2] - المرجع نفسه، ص 291.

واطفه وحنانه وقربه، فإن هذه الذكرى تمنعها القرار، وتهـيج منهـا البلابـل، ولقـد استحضر ابن القيم من الشعر ما يلائم هذا الموضوع.

ونموذج آخر: يقول ابن القيم: " وأما الجهاد فناهيك به من عبادة هي سنام العبـادات وذروتها، وهو المحك والدليل المفرق بين المحب والمدعي، فالمحب قد بـذل مهجتـه وماله لربه وإلهه، متقربا إليه ببذل أعز ما بحضرته، يود لو أن له بكلّ شـعرة نفسـا يبذلها في حبه ومرضاته، ويود أن لو قتل فيه ثم أحيي ثم قتل، ثم أحيي ثم قتل، فهـو يفدي بنفسه حبيبه وعبده ورسوله، ولسان حاله يقول:

يفديك بالنفس صب لو يكون له   أعز من نَفسه شيء فَداك به"[1]

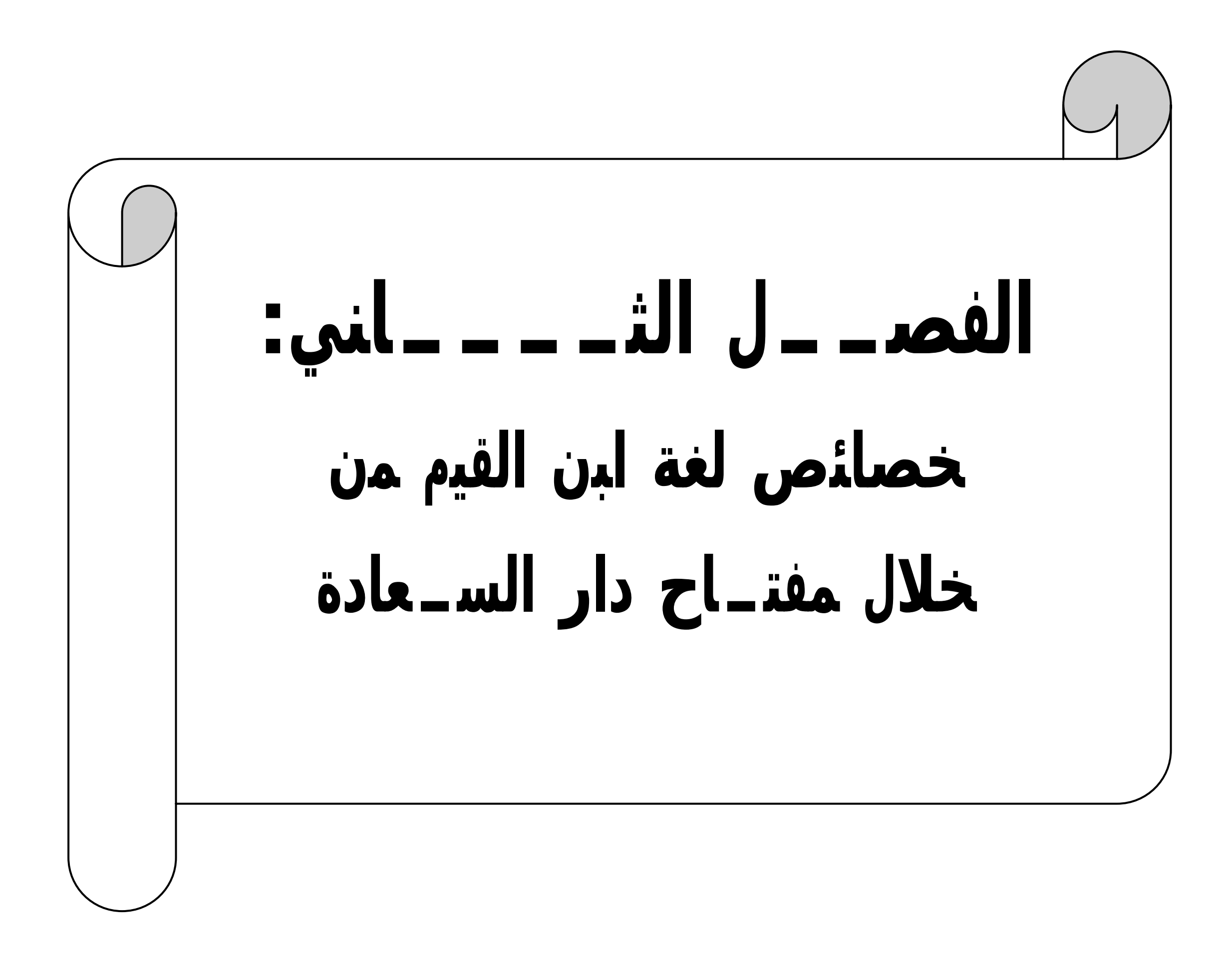
يتحدث ابن القيم في هذه الفقرة عن حسن الشرائع عقلا ونقلا، وخصص بالذكر الجهاد في سبيل ا ورسوله، ونلاحظ في هذه الفقرة تطابق بين: " يود أن لو قتل فيه ثم أحيي ثم قتل ثم أحيي ثم قتل، فهو يفدي بنفسه حبيبه وعبده ورسوله " وشعره:

يفديك بالنفس صب لو يكون له   أعز من نَفسه شيء فَداك به.

ومن خلال ما سبق يظهر أن ابن القيم يحفظ الكثير من الشعر، ولا يستشهد بالشعر إلا من حفظ الكثير منه، واستطاع أن يستحضر ما يتناسب مع الموضوع الذي يتكلم فيـه حتى يقع استشهاده في موضعه، ووضعه في مناسبات من عباراته توافقه وتليق به، ولم تقتصر معرفته الشعر على حفظه والاستشهاد به بحيث يختار من محفوظه ما يتناسب والمعنى الذي يعرضه، بل كان يقـول الشعر وقـد جـاءت قريحته نوعيـة سـماها الكافية الشافية في الانتصار للفـرقة الناجيـة.

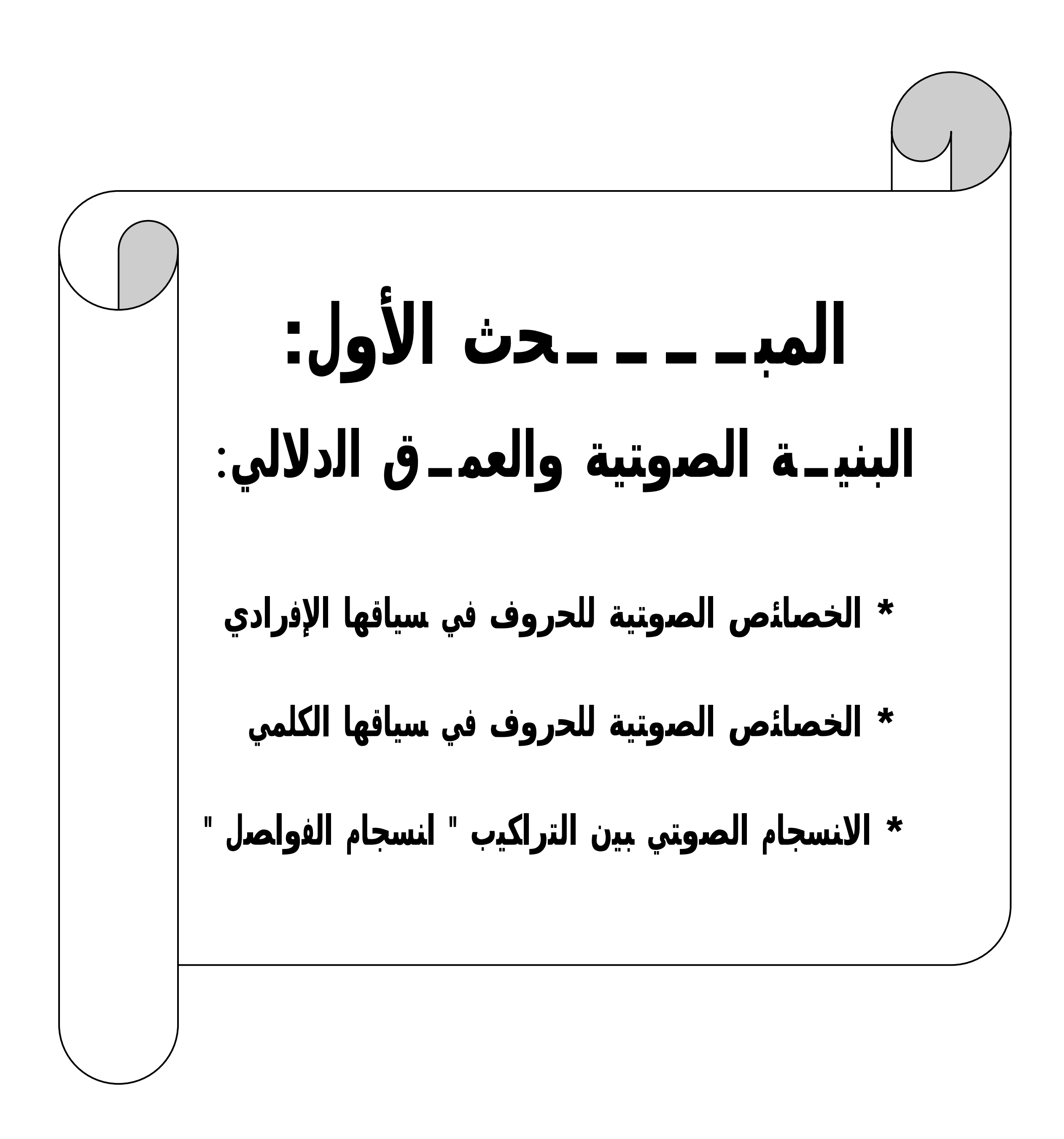
---

[1] - ابن قيم الجوزية، مفتاح دار السعادة، ج 2، ص 324.



الفصـــل الثـــــاني:

خصائص لغة ابن القيم من خلال مفتـاح دار السـعادة



المبـــــحث الأول:

البنيـة الصوتية والعمـق الدلالي:

* الخصائص الصوتية للحروف في سياقها الإفرادي
* الخصائص الصوتية للحروف في سياقها الكلمي
* الانسجام الصوتي بين التراكيب " انسجام الفواصل "

البنية الصـوتية والعـمق الدلالي:

مفهوم البنية الصوتية: يستدعي مفهوم" البنية (Structure) " بهذا الإطـلاق العـام مفهومي " النظام" و" العلاقات" لأن اللغة نسق من العلامات، أو منظومة تقـوم علـى علاقات وقواعد وعناصر ووحدات وبنى عديدة ومتضافرة، وتمتد دلالـة البنيـة هـذه لتشمل الأنظمة والقواعد والقوانين التي تأتلف على أساسها تلك الوحدات التـي يتعـذر على اللغة أن توجد من دونها؛ حيث إن البنية الصوتية ذات وحدات تأتلف لتتشكل على أساسها -وبموجبها- ظـواهر اللغة المترابطة في علاقات تتـسم بالتكامل والوحـدة.
ولما كانت اللغة منظومة أو نسقاً من العلامات اللغوية، فإن البنية الصوتية هي أيضـاً منظومة من الوحدات التي تكون الصوت اللغوي، وتدخل فـي بنائـه، وتكـون تلـك الوحدات قابلة للوصف والتحليل، وأهم تـلك الوحدات ما يعرف بالفـونيم.
وقـد عرف ابن جني اللغة قائلا: " أصوات يعبر بها كل قوم عن إغراضهم[1] " وقـد أفاض علماؤنا الأقدمون في دراسة هذه المادة اللغوية الصوتية؛ لأنّهم عرفوا أن لكـل حرف: صوته صفة ومخرجا مثلما عرفوا له إيحاءه دلالة ومعنى.

ولقد لاحظ العلماء " مناسبة حروف العربية لمعانيها، ولمحوا في الحرف العربي قيمة تعبيرية موحية؛ إذ لم يفهم من كل حرف أنه صوت، وإنما عناهم مـن صـوت هـذا الحرف أنّه معبر عن غرض، وأن الكلمة العربية مركبة من هذه المادة الصوتية التـي يمكن حلّ أجزائها إلى مجموعة من الأحرف والدوال المعبرة، فكل حرف منها يسـتقل ببيان معنى خاص ما دام يستقل بإحداث صوت معين، وكل حرف له ظـل إشـعاع إذ كان لكل حرف صدى وإيقاع[2]" وهذا معناه أن اللغة في شكلها الصوتي، واحـد مـن أنظمة الإبلاغ، يقوم على وحدات متماسكة مترابطة بعلاقات وشيجة، يـتم اسـتعمالها

---

[1] - ابن جني، الخصائص، تح محمد علي النجار، د ط. بيروت: 1957، دار الكتاب العربي للنشر والتوزيع، ج 1، ص 33.

[2] - صبحي صالح، دراسات في فقه اللغة، ط 12. بيروت: 1989، دار العلـم للملايـين للنشـر والتوزيع، ص 142.

وتؤدي وظائف عديدة بفضل تلك العلاقات، وهي وظائف أجمع أهل اللغة المعينة على طبيعتها، وأهميتها لتحقيق التواصل وفق قوانين تنتظم وتتناسق على أساسها تلك العلاقات التي تقوي الأداء الوظيفي للوحدات الصوتية، وتسهم في تنوع وظيفتها وتحسينها، وهي وحدات صوتية تتسلسل بحسب خط الزمان ذي الاتجاه الواحد؛ فلا توجد أبداً وحدتان صوتيتان في الوقت نفسه، وفي النقطة نفسها من البلاغ.

وقد سار مصطفى صادق الرافعي في هذا الاتجاه في كتابه تاريخ آداب العرب في بحث أسرار النظام اللغوي؛ إذ يقول: " لا نريد بمعنى النظام هذه الأحكام الظاهرة في اللغة كالإعراب والتصريف والقواعد اللسانية من نحو عدم الجمع بين ساكنين أو متحركين متضادين، فهذا كله ليس إلا أسبابا للنظام الذي نشرحه في هذا الفصل، وهو يشبه النظام النفسي من حيث تعلقه بالحكمة التي تضبط عواطف النفس وخطراتها، وقد رأينا ذلك في اللغة على ثلاثة أضرب:

1- نظام الألفاظ بالمعاني،

2- نظام المعاني بالألفاظ،

3- النظام المطلق، وهو نظام القرينة أو الحس النفسي..."[1] فالنظام اللغوي في نظر مصطفى صادق الرافعي ليست الأحكام الظاهرة في اللغة كالإعراب والتصريف والقواعد اللسانية، وإنّما هو يشبه النظام النفسي من حيث تعلقه بالحكمة التي تضبط عواطف النفس وخطراتها، وقد وفق ابن القيم إلى حد كبير في تجسيد هذه النظرية في كتاباته؛ إذ يجد المتصحف لكتاباته صورته النفسية في شدته ولينه، وفي سخطه ورضاه، وفي كل حالاته المختلفة... وكلّها مصورة في الصيغ الصوتية للألفاظ والكلمات والتراكيب الواردة في مفتاح دار السعادة، بارزة كما أحسها وشعر بها وقت الكتابة، وهذا ما سأبينه عندما أتناول في هذا المبحث الخصائص الصوتية في مفتاح دار السعادة، من خلال بحث علاقات الحروف والأصوات بعضها ببعض، ثم بحث علاقات الأصوات بالكلمة الواردة في العبارة والنص، ثم بحث علاقات هذه الأصوات بالتراكيب والفواصل... أو بعبارة أخرى دراسة الحروف المستعملة في مختلف النماذج

---

[1] - مصطفى صادق الرافعي، تاريخ آداب العرب، د ط. بيروت: 1974، دار الكتاب العربي للنشر والتوزيع، ص 222.

المقترحة للدراسة، لنعرف من خلال ذلك خصائص الحروف في هذا النص وخصائص الحروف في نص آخر، من حيث المخارج والصفات التي تفرزها الحروف وتميزها، ثم من حيث الأدوار الوظيفية، التي تتبع هذه الخصائص، ليتضح بعد ذلك مدى الانسجام بين سمات هذه الحروف وخصائصها، وبين الموضوعات وطبيعتها التي يطرحها ابن القيم في مفتاح دار السعادة.

وإن دراسة الخصائص الصوتية لمعرفة الإيقاع الصوتي أو الموسيقي يعتبر" من أهم مقومات النص الأدبي لأنّه ينقله من عالم الفكر والتحليل العقلي المجرد إلى عالم الديمومة الحركية[1]" وعليه؛ فإن هذه الدراسة تمثل مرحلة ضرورية وأساسية، تتلوها مرحلة أخرى هي البنى الإفرادية من خلال بحث خصائص الكلمة ودورها، ليمكن التعرف بعد ذلك بدقة على خصائص الجملة التي تتكون من عدة كلمات، والكلمة بدورها تتكون من مجموعة من الحروف والأصوات.

---

[1]- عبد الحميد بوزوينة، بناء الأسلوب في المقالة عند الإبراهيمي، د ط. الجزائر، د س، ديوان المطبوعات الجامعية، ص 97.

1- الخصائص الصوتية للحروف في سياقها الإفـرادي:

سنبحث في هذا القسم عن الخصائص الصوتية للحروف من حيث تحديد مخارجهـا وتحديد الصفات العامة التي تميزها، من شدة ورخاوة وجهر أو همـس، ثـم نبحـث علاقات هذه الحروف مع الحروف الأخرى التي تسبقها، والحروف التي تلحقها بتحديد مخارجها وصفاتها هي الأخرى، ليتبين لنا مدى التآلف والانسجام، أو التنافر والانفصام بين الحـرف والحرف الـذي يسبقه، أو يلـيه في مختلـف الكلـمات والألـفـاظ.
وعلى هذا لا بأس أن نسوق مجموعة من الأمثلة:

يقول ابن قيم الجوزية: "... تنتقل في منازل هذا السفر منزلة منزلة حتى تبلغ غايتها منه، فأحدث ذلك السفر، بقدرة الرب القادر، اختلاف الفصول من الصـيف والشـتاء والخريف والربيع، فإذا انخفض سيرها عن وسط السماء، برد الهواء، وظـهر الشتاء وإذا استوت في وسط السماء اشتد القيظ، وإذا كانت بين المسـافرين اعتـدل الزمـان وقامت مصالح العباد والحيوان، بهذه الفصول الأربعة، واختلفـت بسـببها الأقـوات وأحوال النبات، وألوانه ومنافع الحيوان والأغذية وغيرها، وانظر إلى القمر وعجائـب آياته! كيف يبديه ا كالخيط الدقيق، ثم يتزايد نوره، ويتكامل شيئا فشيئا كل ليلة، حتى ينتهي إلى إبداره وكماله وتمامه، ثم يأخذ في النقصان، حتى يعود إلى حالتـه الأولـى ليظهر من ذلك مواقيت العباد في معاشهم وعباداتهم ومناسكهم؛ فتميزت بـه الأشـهر والسنون، وقام به حساب العالم مع ما في ذلك من الحكم والآيـات والعبـر التـي لا يحصيها إلا ا "[1] تكتسي هذه المقاطع النثرية بطابع موسيقي خاص ينسـجم وطبيعـة الموضوع، وهو وصف مسير الشمس في فلكها في مدة سـنة، التـي لـولا طلوعهـا وغروبها لما عرف الليل والنهار، ولا المواقيت، ولأطبق الظلام على العالم أو الضياء ولـم يتميز وقت المعاش عن وقت السبات، وقد ذكرها ا عز وجل في قوله تعـالى:
وَالشمس وَالقَمَر وَالنجوم مسَخرَاتٌ بِأَمره أَلا له الخَلقُ وَالأمـر تَبَـارَكَ الـلـه رَب العَالَمين (الأعراف: 54) ومن خلال هذا الوصف يخيل إلى القارئ أنه يقـرأ كلامـا اجتـمعت فيه خصائص النظم وخصائص النثـر معا.

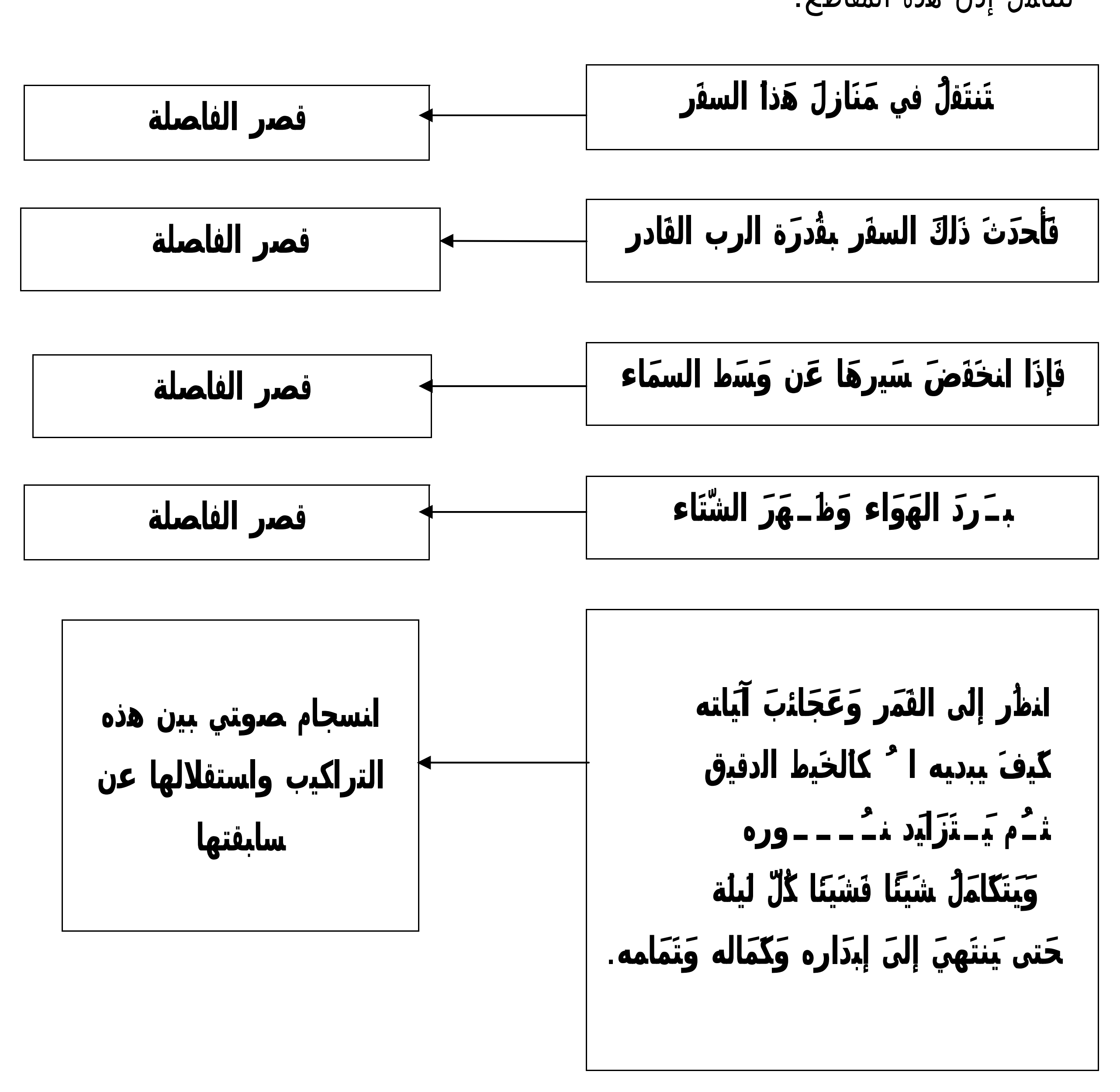
---

[1] - ابن قيم الجوزية، مفتاح دار السعادة، ج 2، ص 27.

وهذا يعود لهذه الأسباب:

- اختيار الأنماط الصوتية وحسن تركيبها فيما بينها.
- قصر التراكيب والفواصل.
- انسجام النغم الصوتي بين الفواصل والمقاطع.

لنتأمل إذن هذه المقاطع:



لا نكاد نجد في هذه المقاطع كلمات تقارب في مخارجها؛ لأنّها تكون حينئذ ثقيلة على السمع، متناهية في الثقل على اللسان، ويعسر النطق بها، وقد رأى علماء اللغة ومـن

بينهم السيوطي، أن أحسن البنية ما امتزجت فيه الحروف المتباعدة، لتنفك عن التنـافر والثقل.

فهل تحقق ذلك في النص؟ وللتأكيد على ذلك اخترنا عينة من الألفاظ الـواردة فـي النص، ألا وهي: (**تنتقل**، **قدرة، الدقيق، وسط ، الهواء، الشتاء ، القمر**)

- **تنتقل:** أصلها ثلاثي وحروفها: النون، القاف، اللام.

النون: أنفي لثوي متوسط، القاف: لهوي مهموس شديد مفخم. الـلام: لثـوي جـانبي متوسط.

فالنون من طرف اللسان والقاف من أقصى اللسان واللام من حافة اللسان إلى الطرف.

- **قدرة:** أصلها ثلاثي وحروفها: القاف، الدال، الراء.

القاف: لهوي مهموس شديد مفخم**،** الدال**:** أسناني لثوي مرقق مجهور شـديد، الـراء**:** لثوي مكرر متوسط.

القاف من أقصى اللسان، الدال من طرف اللسان، الراء من طرف اللسان**.**

- **الدقيق**: أصلها ثلاثي وحروفها: الدال، القاف، القاف.

الدال: أسناني لثوي مجهور شديد مرقق، القاف: لهوي مهموس شديد مفخم**.**

الدال من طرف اللسان، القاف من أقصى اللسان.

وقد جاءت كلمة " دقيقة" خفيفة على السمع رغم تكرار حرف القـاف بـالتوالي؛ لأن القاف الأولى تختلف في حركتها عن حركة القاف الثانية، فـالأولى وقعـت مكسـورة بحركة الكسر الطويلة، في حين وقعت الثانية مكسورة بحركة الكسرة القصيرة.

وتستمر سمة تباعد الحروف (مخارجها) في الكلمات بارزة فـي معظـم المفـردات الواردة في النص منها: (**وَسَط، الهَوَاء، القَمَـر، كماله، خيط، ظـهر**)

- **وسط**: فالواو من الأدنى، والسين والطاء من الوسط.
- **الهواء:** فالهاء والهمزة من الأعلى، الواو من الأدنى.
- **القمـر**: القاف من الأعلى، الميم من الأدنى، الراء من الوسط.
- **كماله:** الكاف من الوسط، الميم من الأدنى، اللام من الوسط.
- **خيط**: الخاء من الأعلى، الياء من الوسط، والطاء من الأدنى.

كما نجد من الكلمات ما تقاربت بعض حروفها في المخرج، ومع ذلك فهي تتفاوت في القوة والضعف، ولكنها لا تصل إلى درجة التنافر.

ومن هذه الكلمات: (**السفَر، تَمامه، ليلةٌ، نُوره، انظُر**) فهـذه الكلمـات الأخيـرة تشترك جميعا في أنها تشمل على حروف تقاربت مخارجها كتكرار حـ ـرف السـين فـي(السفر) وتكرار حرف الميم في (تمامه) وتكرار حرف الـلام فـي (ليلـة) واشتراك النون والراء في المخرج في (نور، انظر).

ونموذج آخر: يقول ابن القيم: " ونُنبه من مصالح النار على خلة صغيرة القدر عظيمة النفع، وهي في هذا المصباح الذي يتخذه الناس؛ فيقضون به من حوائجهم ما شاءوا من ليلهم، ولولا هذه الخلة لكان الناس نصف أعمارهم بمنزلة أصحاب القبور، فمن كـان يستطيع كتابة أو خياطة أو صناعة أو تصرفا في ظلمة الليل الداجي؟ وكيـف كانـت تكون حال من عرض له وجع في وقت من الليل؛ فاحتاج إلـى ضـياء، أو دواء، أو استخراج دم أو غير ذلك؟ "[1] ينبه ابن القيم في هذه الفقرة عن مصالح النار؛ أي ذلـك النور المحمول في ذبالة المصباح على صغر جوهره، كيف يضيء ما حـول النـاس جميعا؛ فيروا به القريب والبعيد، وشاءت حكمته تعالى في كونه خص بها الإنسان دون غيره من الحيوانات، فلا حاجة بالحيوان إليها، بخلاف الإنسان، فإنّه لو فقـدها لعظـم الداخل عليه في معاشه ومصالحه، وغيره من الحيوانات لا يستعملها ولا يتمتع بها.

فلنلاحظ إذن هذه الكلمات: (**مَصَالح، النفع، القُبور، خيَاطَة، شَاءوا، كَيفَ، المصبَاح**) جاءت هذه الكلمات رقيقة لطيفة عذبة على السمع هادئة، ولا تخلو كلمة من هذه الفقرة المقتبسة من حروف الهمس، وهذه الحروف المهموسة هي:

مصـالح ← حرف الحاء والصاد

النفـ ـع ← حرف الفاء

القبـ ور ← حرف القاف

خيـاطة ← حرف الخاء والطاء والتاء

شـ اءوا ← حرف الشين

كـ يف ← حرف الكاف والفاء

[1] - ابن قيم الجوزية، مفتاح دار السعادة، ج 2، ص 267.

المصباح ←——————— حرف الصاد والحاء.

ولنتأمل هذه النماذج:

ظلمة الليل: أغلب حروف هاتين الكلمتين مجهورة وهي (الظاء واللام والميم والياء) وتزداد اللام شدة بتكرارها أربع مرات، مرة في كلمة (ظلمة) وثلاث مرات في كلمة (الليل).

البعيد: أغلب حروف هذه الكلمة مجهورة، وهي الباء والعين والدال.

تصرفا: أغلب حروف هذه الكلمة مهموسة، وهي التاء والصاد والفاء، وحرف الـراء المشدد زاد من شدة الكلمة وقوتها، فانسجم كل ذلك مع مدلول الكلمة.

وهكذا تستمر ظاهرة الانسجام الصوتي مع مدلول الكلمة، ومدلول العبـارة ومـدلول الفقرة، فيأتي الجهر وشدة الصوت ليرفد ويؤكد شدة المعنى ويوحي إليه.

خلاصة: اتسمت الأبنية التي قمنا بتحليلها بحسن التأليف؛ لأنها امتزجت فيها الحـروف المتباعدة التي تكون المدرج الصوتي، وقد قسمنا هذا الجهاز إلى ثلاث[1]:

1- **القسم الأعلى:** الذي يضم حروف الحلق وهي: الهمزة، الهاء، الخـاء، العـين الغين، وكذا الحرف الحلقومي اللهوي وهو القاف.

2- **القسم الأوسط:** ويضم الحروف الطبيعية وهو حرف الكاف، والحروف الغارية وهي: الشين، الجيم، الياء، والحروف اللثوية وهي: اللام الراء والنون.

3- **القسم الأدنى:** ويضم المخرج الأسناني اللثوي وحروفه: الضاد، الدال، والطاء التاء، الزاي، الصاد، السين.

كما يضم هذا القسم أيضا الحروف الأسنانية وهي: الظاء، الذال، الثاء، وكذا المخـرج الشفوي أسناني وهو: حرف الفاء، ويضم أخيرا الحروف الشفوية وهي: حـرف البـاء الميم، الواو، وهكذا تراوحت أصوات الكلمات بين الشدة والرخاوة والقـوة والضـعف ليتحقق الانسجام بين مدلول الكلمة، وبين النغم الصوتي الذي تبعثه طبيعة الحرف الذي يؤلف مع غيره من حروف الكلمة.

---

[1] - اقتبسنا هذا التقسيم من النظام الصوتي الفصحى المعاصرة لـ : تمام حسان، اللغـة العربيـة معناها ومبناها، د ط. المغرب: 2001، دار الثقافة للنشر والتوزيع، ص 79.

2- الخصائص الصوتية للحروف في سياقها الكلمي:

بعد أن تعرضنا للخصائص الصوتية مفردة، وعلاقات الحروف بعضها ببعض سنتعرض لدراسة تلك الخصائص على مستوى علاقات الحروف والأصوات بعضها ببعض في إطار الكلمات، ثم البحث عن الأثر الدلالي لتلك الكلمة بمكوناتها وخصائصها الموسيقية والصوتية؛ لنصل إلى المعنى الذي حرص المؤلّف على إبلاغه للقارئ وإدراكه له، **يقول ابن القيم:** " قالوا: فإن كان آدم أُسكن جنّة الخلد، وهي دار القدس التي لا يدخلها إلا طاهر مقدس، فكيف توصل إليها إبليس الرجس النجس الملعون المذموم المدحور، حتى فتن فيها آدم، وإبليس فاسق قد فسق عن أمر ربه وليست جنة الخلد دار الفاسقين، ولا يدخلها فاسق البتة، إنّما دار المتقين وإبليس غير تقي[1]" والعبارات المثيرة في هذه الفقرة هي: (إبليس فاسق، قد فسق، دار الفاسقين، لا يدخلها فاسق) ومصدر الإثارة والتأثير في هذه الكلمات هو إيحاءاتها الصوتية، وطبيعة الحروف المكونة لهذه الألفاظ، وما يستتبع هذه الأصوات من دلالات متميزة توحي بالحالة النفسية والشعورية التي تتملك ابن القيم، وهو يصف إبليس الملعون الذي نعته بالفاسق.

والملاحظة الأولى التي نسجلها هنا هو تكرار كلمة فاسق أربع مرات، وكأّن بابن القيم يريد أن يبين سخطه على إبليس، وفي تكرار كلمة فاسق دلالة صوتية مؤثرة في القارئ، وتأثيرها في النفس والوجدان إنما يأتيان من جهتين:

1- دلالتها المعجمية: " (فسق) الفسْق، العصيان والترك لأمر الله عز وجل والخروج عن طريق الحق، فسق يفْسقُ ويفْسقُ فسقاً وفُسوقاً[2]"

2- دلالتها الصوتية: وحروفها الأصلية هي الفاء والسين والقاف، وهي كلها حروف مهموسة، والمهموس في تعريف سيبويه " فحرف أضعف الاعتماد في موضعه حتى

---

[1] - ابن قيم الجوزية، مفتاح دار السعادة، ج 1، ص 128.

[2] - ابن منظور، لسان العرب، ط 1. بيروت، د س، دار صادر للنشر والتوزيع، ج 13، مادة فسق.

جرى النفس معه... فإذا أردت إجراء الحروف، فأنت ترفع صوتك إن شئت بحروف اللين والمد، أو بما فيها منها، وإن شئت أخفيت...[1]" ومن هنا يتبين لنا السر في تكرار هذه الكلمة عما سواها من الكلمات الأخرى التي تشترك معها في الدلالة والمعنى، **وفي موضع آخر يقول ابن القيم**" ثم تأمل الحكمة في خلق النار على ما هي عليه من الكمون، والظهور لو كانت ظاهرة أبدا- كالماء والهواء- كانت تحرق العالم وتنتشر **ويعَظّم** الضرر بها والمفسدة، ولو كانت كامنة لا تظهر أبدا لفاتت المصالح المترتبة على وجودها[2] " فالكلمة المثيرة في هذه العبارة هي (**يعَظّم**) فقد أورد ابن القيم "يعظّم" بدلا عن غيرها من الكلمات؛ لأن هذه الكلمة تصور المعنى الوارد أكثر مما تصوره كلمات أخرى كـ يعم وينتشر... وذلك من جهتين اثنتين:

جهة الدلالة المعجمية، وجهة الدلالة الصوتية.

1- دلالتها المعجمية: جاء في المعجم الوسيط " عظم، يعظم، كبر وفخّم[3]"

2- دلالتها الصوتية: فكلمة "يعظّم" أثرها في الأذن، ومن ثم على الوجدان والشعور.

فالعين ما بين الشديد والرخو، الظاء مجهور مفخم رخو، الميم أنفي شديد.

وكل هذه الصفات المصاحبة لحروف الفعل (عظم) لا شك لها دلالتها على أثر النار التي تحرق العالم، فيعم بها الفساد والضرر، فقد ذكرها الله سبحانه وتعالى وقال:

أَفَرَأَيتُم النارَ التّي تَرَون أَأَنتُم أَنشَأتُم شَجَرَتَهَا أَم نَحن المنشئُون نَحن جَعَلنَاهَا تَذكِرَةً وَمَتَاعاً للمقوِين فَسَبح باسم رَبكَ العَظيم (الواقعة: 17- 74) فهذا الفعل أنسب بكثير من الأفعال الأخرى لما يحمل من دلالة تتناسب وطبيعة الموضوع.

ومثال آخر: يقول ابن قيم الجوزية: " إن الجهل كالليل في ظلمته وحندسه، والعلماء كالعباد بمنزلة القمر والكواكب الطالعة في تلك الظلمة، وفضل نور العالم فيها على نور العابد كفضل نور القمر على الكواكب[4]" ولقد شبه ابن القيم في هذا المثال الجهل

---

[1] - سيبويه، الكتاب، تح محمد هارون، ط 4. بيروت: 1988، عالم الكتب للنشر والتوزيع ص 23.

[2] - ابن قيم الجوزية، مفتاح دار السعادة، ج 2، ص 74.

[3] - المعجم الوسيط، ج 2، مادة عظم.

[4] - ابن قيم الجوزية، مفتاح دار السعادة، ج 1، ص 259.

بالليل، وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب، وهذا تشبيه مطـابق لحال القمر والكواكب، فإن القمر يضيء الآفاق، ويمتد نوره إلى العالم، وهـذه حـال العالم، وأما الكواكب فنوره لا يجاوز نفسه، والكلمات المثيرة في هـذا المثـال هـي: الجهل- ظلمة، وسنحاول أن نبين الدلالة المعجمية والصوتية لهذه الكلمات.

أ- الجـهل:

1- دلالتها المعجمية: جاء في المعجم الوسيط مادة جهل: " الجهل في اصطلاح أهـل الكلام اعتقاد الشيء على خلاف ما هو عليه، والجهل البسيط عدم العلم عما من شـأنه أن يكون عالما[1]"

2- دلالتها الصوتية: وحروفها الأصلية هي الجيم، الهاء، اللام. أما من حيث المخرج فهي من الأوسط إلى الأعلى ثم إلى الأوسط.

الجيم مجهور، الهاء مهموس، اللام متوسط منحرف جانبي.

ب- ظلمة:

- دلالتها المعجمية: جاء في الصحاح مادة ظلم " والظُّلْمةُ: خلافُ النور، والظُّلُمةُ بضم اللام: لغةٌ فيه، والجمع ظُلَم وظُلُماتٌ وظُلْماتٌ، وقد أظْلَم الليل، وقالوا: ما أظْلَمه ومـا أضوأه [2]"

2- دلالتها الصوتية: والحروف الأصلية لهذه الكلمة هي الظاء، اللام، الميم.

فالظاء مجهور مفخم، اللام متوسط منحرف جانبي، الميم أنفي متوسط.

---

[1] - المعجم الوسيط، مادة جهل.

[2] - إسماعيل بن حمـاد الجوهري، الصحاح في اللغة، تح أحمد عبد الغفـور عطار، د ط بيروت، د س، دار العلم للملايين للنشر والتوزيع، مادة ظلم.

الانسجام الصوتي بين التراكيب:

انسجام الفواصل

إن الخاصية الأخرى التي تتميز بها البنية الصوتية في لغة ابن القيم من خلال مفتاح دار السعادة هي اختياره للفواصل المتناسقة، والأوزان المتماثلة، والأصوات المتجانسة والمنسجمة بين التراكيب، أو ما يعرف **بانسـجام الفواصـل**؛ أي تماثـل التراكيـب والفواصل في طول النفس أو قصره، فالتركيب الأول يكاد يتوازن مع التركيب الثـاني الذي يرتبط في المعنى والمدلول، أو يتساويان في الألفاظ والكلمات من حيـث العـدد والوزن؛ إذ لو قطع التركيب الأول وحددت تفعيلاته وأجزاؤه، لكانت هي نفسـها فـي التركيب الثاني الذي يتصل بالأول في المعنى والمدلول، فيكمل الثاني معنى التركيـب الأول، حتى يخيل للقارئ لنصوصه أنه يقرأ نظما منثورا أو نثرا منظوما.

وقد أضفى هذا الانسجام في العبارات والفواصل على نصوص ابن القيم بطابع غنائي موسيقي متميز، فيجد القارئ من خلال ذلك متعة من النادر إيجادها في كتب أخـرى. وهذا ما يسمى في باب البلاغة " السـجع والازدواج " وفي هذا الشأن يقول أبو هلال العسكري: " لا يحسن منثور الكلام، ولا يحلو حتى يكون مزدوجا، ولا تكاد تجد لبليـغ كلاما يخلو من الازدواج، ولو استغنى كلام عن الازدواج لكان القرآن، لأنّه في نظمه خارج من كلام الخلق، وقد كثر الازدواج فيه حتى حصل في أوساط الآيات فضلا عما تزاوج في الفواصل منه كقول ا تعالى: **الحَمد الذي خَلَقَ السـمَوات وَالأَرض وَجَعَلَ الظلُمَات وَالنور** (الأنعـام: 1) وأما ما زوج بينه بالفواصل فهو كثير، مثل قوله تعالى: **فَإِذَا فَرَغتَ فَانصب وَإِلى رَبكَ فَارَغب** (الشرح: 7-8) وقوله سبحانه: **فَأَمَا اليَتيمَ فَلا تَقـهَر وَأَما السائلَ فَلا تَنهَر** (الضـحى: 9-10) وقوله جل ذكره **وَأَنـه هوَ أَضحَكَ وَأَبكَى وَأَنه هوَ أَحيَا** (النجم: 43-44) ثم يقول: فكل هذا يـؤذن بفضـيلة التشجيع على شرط البراءة من التكاف والخلو من التعسف، والسجع على وجوه، فمنها أن يكون الجزآن متوازنين متعادلين لا يزيد أحدهما على الآخر مع اتفـاق الفواصـل على حرف بعينه... ومنها أن يكون ألفاظ الجزأين المزدوجين مسجوعة فيكون الكـلام سجعا في سجع، وهو مثل قول البصير: حتى عاد تعريضـك تصـريحا، وتمريضـك

تصحيحا ... وهذا الجنس إذا سلم من الاستكراه فهو أحسن وجوه السجع...[1]" وقد تبين أن ابن القيم يقتبس هذه الفنون من القرآن الكريم، ويدعم بلاغته ببلاغة الحديث النبوي الشريف؛ فالانسجام الصوتي بين التراكيب ثابت فيهما، والأمثلة على ذلك كثيرة جدا فمنها قوله تعالى: **إذَا الشمس كُوِّرَت وَإذَا النجوم انكَدَرَت، وَإذَا الجبَالُ سيرَت وَإذَا العشَار عطِّلَت وَإذَا الوحوشُ حشرَت، وَإذَا البِحَار سجِّرَتْ وَإذَا النفُوس زوجَتْ وَإذَا المَوْؤودَةُ سئلَتْ بأَي ذَنْبٍ قُتلَتْ** (التكوير: 1-9) وقال تعالى: **قَد أَفْلَحَ المؤْمنُونَ الذينَ هم في صَلاتهم خَاشعون وَالذينَ هم عَن اللغْو معرضون وَالذينَ هم للزكَاة فَاعلُون وَالذينَ هم لِفُروجهم حَافظُون** (المؤمنون: 1-5) والأمثلة من الأحاديث كثيرة أيضا ومستفيضة منها قول الرسول ﷺ **أَيهَا الناس أَفْشُوا السلام وَأطْعموا الطعَام وَصلُوا الأَرحَام وَصَلوا بِالليل وَالناس نيَام تَدخُلُوا الجَنةَ بِسَلام** وظاهرة الانسجام الصوتي بين التراكيب في مفتاح دار السعادة كثيرة ومستفيضة منها:

يقول ابن القيم: " فلم يزل ﷺ قائما بأمر ا لا يرده عنه راد، داعيا إلى ا لا يصده عنه صاد، إلى أن أشرقت برسالته الأرض بعد ظلماتها، وتألفت به القلوب بعد شتاتها، وسارت دعوته مسير الشمس في الأقطار، وبلغ دينه ما بلغ الليل والنهار، فلما أكمل ا به الدين، وأتم النعمة على عباده المؤمنين، استأثر به، ونقله إلى الرفيق الأعلى من كرامته، والمحل الأرفع الأسنى من أعلى جناته، ففارق الأمة، وقد تركها على المحجة البيضاء، التي لا يزيغ عنها إلاّ من كان من الهالكين[2]" يلاحظ في هذه العبارة فواصل متناسقة ومنسجمة وهي:

الفاصلة الأولى	**الفاصلة الثانية**
قائما بأمر ا لا يرده عنه راد	داعيا إلى ا لا يصده عنه صاد
أشرقت برسالته الأرض بعد ظلماتها	تألفت به القلوب بعد شتاتها
وسارت دعوته مسير الشمس في الأقطار	بلغ دينه ما بلغ الليل والنهار
الرفيق الأعلى من كرامته	المحل الأسنى من أعلى جناته

---

[1] - أبو هلال العسكري، كتاب الصناعتين، د ط. بيروت: 1986، المكتبة العصرية، ص 260.

[2] - ابن قيم الجوزية، مفتاح دار السعادة، ج 1، ص 105.

يلاحظ في هذا المثال انسجام الفواصل، فالتركيب الأول يكاد يتوازن مع التركيب الثاني الذي يرتبط في المعنى والمدلول، أو يتساويان في الألفاظ والكلمات من حيـث العـدد والوزن.

ويقول ابن القيم: " والقلب السليم الذي ينجو من عذاب ا ، هو القلب الذي قد سلم من هذا وذاك، فهو القلب الذي قد سلم لربه، وسلم لأمره، ولم تبقى فيه منازعة لأمره، ولا معارضة لأمره، ولا معارضة لخبره، فهو سليم مما سوى ا وأمره، لا يريـد إلا ا ولا يفعل إلا ما أمره ا ، فا وحده غايته، وأمره وسيلته، ومتى كان القلب كذلك، فهو سليم من الشرك، وسليم من البدع، وسليم من الغي، وسليم من الباطل"[1] تكتسي هـذه المقاطع بطابع موسيقي خاص، مما زادها جمالا وحلاوة، وذلك لتكرار بعض الحروف في أكثر من موضع من جهة، وتناسق الفواصل من جهة أخرى، ونبين ذلك كالآتي:

الفـاصلة الأولـى	الفـاصلة الثـانية
والقلب السليم الذي ينجو من عذاب ا	هو القلب الذي قد سلم من هذا وذاك
سلم لربه	سلم لأمره
منازعة لأمره	معارضة لأمره
لا يريد إلا ا	ولا يفعل إلا ما أمره ا
وحده غايته	أمره وسيلته

ويقول أيضـا: " إن العبد له قوتان: قوة الإدراك والنظر، وما يتبعها من العلم والمعرفة والكلام، وقوة الإرادة والحب، وما يتبعه من النية والعزم والعمل، فالشبهة تؤثر فسـادا في القوة العلمية النظرية ما لم يداوها بدفعها، والشهوة تؤثر فسادا في القـوة الإراديـة العملية ما لم يداوها بإخراجها"[2] فالمقاطع في كل تركيب تقابل المقاطع فـي التراكيـب الأخرى، وهي كما يلي:

---

[1] - ابن قيم الجوزية، مفتاح دار السعادة، ج 1، ص 200.

[2]- المرجع نفسه، ص 196.

مقاطع التركيب الثاني	مقاطع التركيب الأول
قوة الإرادة والحب	قوة الإدراك والنظر
وما يتبعها من النية والعلم	وما يتبعها من العلم والمعرفة
والشهوة تؤثر فسادا في القوة الإرادية العملية	فالشبهة تؤثر فسادا في القوة العلمية النظرية
ما لم يداوها بإخراجها	ما لم يداوها بدفعها

وما يلاحظ في هذا النموذج، تماثل التراكيب والفواصل في طول النفس أو قصره. فالتركيب الأول يكاد يتوازن مع التركيب الثاني، الذي يرتبط في المعنى والمدلول أو يتساويان في الألفاظ والكلمات من حيث العدد والوزن؛ إذ لو قطع التركيب الأول وحددت تفعيلاته وأجزاؤه لكانت هي نفسها في التركيب الثاني الذي يتصل بالأول في المعنى والمدلول، فيكمل الثاني معنى التركيب الأول.

ومن كلامه أيضا: " فكلّ خائف حزين، وكل حزين خائف، وكلّ من الخوف والحزن يكون على فعل المحبوب، وحصول المكروه[1]" وما يلاحظ في هذا النموذج أيضا تماثل التراكيب في طول النفس أو قصره؛ فالتركيب الأول يكاد يتوازن مع التركيب الثاني، ونبين ذلك كالآتي:

مقاطع التركيب الثاني	مقاطع التركيب الأول
وكل حزين خائف	فكلّ خائف حزين
وحصول المكروه	فعل المحبوب

وفي موضع آخر يقول: " فالحزين إنما يحزن في المستقبل على ما مضى، والخائف إنما يخاف في الحال مما يستقبل[2]" وإذا تأملنا هذه النماذج لرأينا ذلك الانسجام الصوتي بين تركيبين صوتا وموسيقى ووزنا، وتعادلهما في عدد المقاطع والكلمات، وهذا هو أحسن وجوه السجع والازدواج عند علماء البلاغة، وعليه تتميز البنية الصوتية في لغة

---

[1] - ابن قيم الجوزية، مفتاح دار السعادة، ص 180.

[2]- المرجع نفسه، ص 181.

ابن القيم من خلال مفتاح دار السعادة بالانسجام الصوتي بـين الفواصـل والتراكيـب ومرجع ذلك هو اختيار ابن القيم للفواصل المتناسقة والأوزان المتماثلـة، والأصـوات المتجانسة والمنسجمة بين التراكيب، فالتركيب الأول يكاد يتوازن مع التركيب الثـاني الذي يرتبط في المعنى والمدلول، أو يتساويان في الألفاظ والكلمات من حيـث العـدد والوزن؛ إذ لو قطع التركيب الأول، وحددت تفعيلاته وأجزاؤه لكانت هي نفسـها فـي التركيب الثاني الذي يتصل بالأول في المعنى والمدلول فيكمل الثاني معنـى التركيـب الأول، حتى يخيلَ للقارئ لنصوصه أنّـه يقرأ نظما منثـورا أو نثـرا منظـوما.



المبحـــث الثـــاني:

الخصائص الصرفية في مفتاح دار السعادة

- الاقتباس من المعجم القرآني.
- الترادف.
- الاشتقاق.

مدخل: للكلمة في اللغة حياة خاصة بها تشبه حياة الأحياء، فكما يعترى البشـر القـوة والضعف، والنشاط والخمول، كذلك تتداول هذه الخصائص المختلفة المتناقضة علـى الكلمة، فقد تولد كلمة معينة في حياتنا أو تولد بعدنا أو ولدت قبلنا، وقد تنتشر ويتـواتر استعمالها، فتشتهر أو تضمر؛ فيقل استعمالها فتنحصر، أو تموت ضمن نصوص معينة في زمن معين لا تتعداه، وقد تنبعث من جديد ليعبر بها عن معنى من المعاني.

ولهذه العوامل المختلفة يختلف الأدباء في كتابـاتهم، فيسـمو بعضـهم عـن بعـض ويتفاوت الحسن والإمتاع والجودة وحسن السبك بين نص ونص آخر، وقد قـال عبـد القاهر الجرجاني: " فإنك تجد متى شئت الرجلين قد استعملا كلما بأعيانها، ثم ترى هذا قد فرع السماك، وترى ذلك قد لصق بالحضيض[1]" وهكذا اجتهد أهل الصناعة في اللغة العربية، فبذلوا جهدهم لاختيار الحسن من الألفاظ فاسـتعملوه، وأنفـوا مـن القبـيح فتجاوزوه، وليس هناك قانون محكم لإحكام هذا الاختيار والإتيان بها على غايـة مـن الضبط، وقدر من الإحكام، وإنما استحسان الألفاظ واستهجانها يعود إلى الحس، ويرجع إلى الحس، ويرجع إلى الذوق، ولا غرو أن يكون القرآن الكريم المعيار الأول لجمـال الكلمة إذا جاءت عذبة على مسمع مستقبلها، طيبة المجرى على اللسان، معتدلـة فـي الوزن، نازلة على أحسن هيأة الإيقاع، وجاءت حروفها على قدر الضرورة، فلم يـزد فيها زيادة ترهق السمع أو تسبب الملل، وإنما كان كل حرف في موضعه؛ بحيـث لا يمكن أن يستغني عنه أو يستبدل به غيره.

---

[1]- عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ط 8. القاهرة: 1989، مكتبة الخانجي للنشر والتوزيـع ص 48.



الاقتباس من المعجم القرآني

الاقتـباس من المعـجم القـرآني:

*** مفـهوم الاقتباس:** يمكن أن نعرف الاقتباس على أنّه " أن يضمن الكلام شيئا مـن القرآن أو الحديث لا على أنّـه منه[1]" فالاقتباس بهذا المفهوم يقتصر على القرآن الكريم والحديث النبوي؛ إذ يمكن أن يضمن كلامنا شيئا من القرآن أو الحديث لا علـى أنّـه منه، وقـد نقل جلال الدين السيوطي عـن الراغب قـوله: " فألـفاظ القرآن الكـريم هي لب كلام العرب وزبدته وواسطته وكرائمه، وعليها اعتماد الفقهاء والحكمـاء فـي أحكامهم وحكمهم، وإليها مفـزع حداق الشعراء والبلغاء في نظمهم ونثرهم، وما عداها وما عدا الألفاظ المتفرعات عنها والمنتقات منها هو بالإضافة إليها كالقشـور والنـوى بالإضافة إلى أطـايب الثمـرة، وكالحـثالة والتبن بالنسبة إلى لبوب الحنطة[2]" ومعنى هذا القول أن سمة الاقتباس من المعجم القرآني وتغذية اللغة بكلمات من القرآن الكريم قد سمت إلى الطبقة العليا من البلاغة؛ إذ إن ألفاظ القرآن الكريم تعبـر عـن قضـايا ومدلولات ضخمة في حيز يستحيل على البشر أن يعبروا فيه عن مثل هذه الأغـراض وذلك بأوسع مدلول، وأدقّ تعبير مع التناسب العجيب بين الكلـمة والمدلول، وفي هذا الصدد يقول ابن القيم: " القرآن كلام ا ، وقد تجلى ا فيه لعباده بصفاته؛ فتارة يتجلى في جلباب الهيبة والعظمة والجلال، فتخضـع الأعنـاق وتنكسـر النفـوس وتخشـع الأصوات، ويذوب الكبر كما يذوب الملح في الماء، وتارة يتجلى في صـفات الجمـال والكمال، وهو كمال الأسماء، وجمال الصفات، وجمال الأفعال الدال على كمال الـذات فيستنفد حبه من قلب العبد قوة الحب كلها بحسب ما عرفه من صفات جماله ونعـوت كماله[3]" وهكذا كان القرآن الكريم دقيقا في اختيار ألفاظه وانتقاء كلماته، فـإذا اختـار اللفظ كان ذلك لسبب، وإذا انتقاه نكرة كان ذلك لغرض، كذلك إذا كان اللفظ مفردا كان ذلك لمقتضى يطلبه، وإذا كان مجموعا كان لحال يناسبه، وقد يختار الكلمـة ويهمـل

---

[1]- عبد المتعالي الصعيدي، بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة، ج 4، ص 114.

[2] - جلال الدين السيوطي، المزهر، ط 3. القاهرة، د س، دار التـراث للنشر والتـوزيع، ج 1 ص 201.

[3] - ابن قيم الجوزية، الفوائد، د ط، بيروت، د س، المكتـبة الثقـافية للنشر والتوزيع، ص 30.

مرادفها الذي يشترك معه في الدلالة، وقد يفضل كلمة على أخرى، والكلمتان بمعنى واحد، وربما يتخطى في التعبير المحسن اللفظي والجمال البديعي على قدره وحسنه لغرض أسمى وهو الحسن المعنوي، وكل ذلك لغرض يرمي إليه، وهكذا دائما لكل مقام مقال في التعبير القرآني.

وسأحاول هنا أن أسجل ظاهرة الاقتباس من القرآن الكريم في مفتاح دار السعادة وسأحاول أيضا أن أحدد ما إذا كان ابن القيم قد التزم بالصيغ الصرفية لهذه الأسماء والأفعال كما وردت في القرآن الكريم، أم أنّه تصرف في هذه الكلمات تبعا لما تمليه عليه الفكرة والنص.

ثم إن المحاور التي سأركز عليها هي تلك التي تدور حولها الكلمات الموظفة في لغة ابن القيم المقتبسة من القرآن الكريم لا تكاد تتعدى هذه الأركان:

أ- تطابق الصيغ الاسمية أو الفعلية بين القرآن الكريم ومفتاح دار السعادة.

ب - تصريف الألفاظ من اسمية في القرآن الكريم إلى فعلية في مفتاح دار السعادة.

ج - تصريف الألفاظ من فعلية في القرآن الكريم إلى اسمية في مفتاح دار السعادة.

د - تصريف الألفاظ من صيغ اسمية في القرآن الكريم إلى صيغ اسمية أخرى في مفتاح دار السعادة.

هـ - تصريف الألفاظ من صيغ فعلية في القرآن الكريم إلى صيغ فعلية أخرى في مفتاح دار السعادة.

أولا: تطابق الصيغ الاسمية بين القرآن الكريم ومفتاح دار السعادة: فمن هذه الكلمات **قول ابن القيم**: "... ولكن اقتضت حكمته أن خلق لهم دارا يتزودون منها إلى الدار التي خلقت لهم، وأنهم لا ينالونها إلا بالزاد[1]" فلفظة (الزاد) تطابقت مع قول الله عز وجل: **وَتَزَودوا فَإن خَيرَ الزاد التقْوَى** (البقرة: 197).

ومنها قول ابن القيم: " وباع الموفقون نفوسهم وأموالهم من الله وجعلوها ثمنا للجنة[2]" تطابقت كلمتا (نفوسهم) و(أموالهم) مع ما ورد في قول الله تعالى: **إن اللَه اشْتَرَى مِنَ المؤْمنينَ أَنفُسهم وَأَموَالهم بِأَن لَهم الجَنة** (التوبة:111).

---

[1] - ابن قيم الجوزية، مفتاح دار السعادة، ج 1، ص 124.

[2] - المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

وفي موضع آخر يقول ابن القيم " ... فقد أخبر سبحانه خبرا محكما غير مشتبه أنّه لا يصعد إليه إلا كلم طيب وعمل صالح[1] " اقتبس قوله (كلم طيب) و(عمل صالح) من قوله عز وجل **﴿إليه يَصعَـد الكلم الطيب وَالعَـمَلُ الصالِح يرفَعه﴾** (فاطر: 100).

إلى غير ذلك من الكلمات التي يتطابق ورودها في القرآن الكريم مع ورودها في مفتاح دار السعادة تعريفاً وتنكيرًا وتذكيرًا وجمعًا وإفرادا.

ثانيا: تطابق الصيغ الفعلية بين القرآن الكريم ومفتاح دار السعادة: يقول ابـن القيم:

" ... فقد أخبر سبحانه خبرا محكما غير مشتبه أنه لا يصعد إليه إلا كلم طيب وعمل صالح[2] " اقتبس قوله (لا يصعد) من قوله عز وجل **﴿إليه يَصعَـد الكلـم الطيـب وَالعَمَلُ الصالِح يَـرفَـعه﴾** (فاطر: 100).

ومنها قول ابن القيم: "والملائكة لا تـقول ولا تعمل إلا بما تؤمر به لا غير[3]" فالفـعل (تؤمر) متطابقة مع قوله تعالى **﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرونَ يَرفَعه﴾** (النحل: 50).

وفي موضع آخر يقول ابن القيم: " تكفّل ا لمن قرأ القرآن، وعمل بمـا فيـه أن لا يضلّ في الدنيا ولا يشقى في الآخرة[4]" فالفعلان (لا يضل) و (لا يشقى) متطابقـان مع قـوله تعالى: **﴿فَـإمَا يَأْتينَكُم مني هـدَى فَمَـن اتبَعَ هـدَاي فَـلا يَضَـل وَلا يَشْقَى﴾** (طه: 123).

ثالثا: تصريف الألفاظ من اسمية في القرآن الكريم إلى فعلية في مفتاح دار السعادة:

اقتبس ابن القيم كثيرا من الكلمات القرآنية، ولكنه لم يتقيد بالتزام صيغتها في القـرآن الكريم، بل نقلها من الاسمية إلى الفعلية؛ أي كانت أسماء في القرآن الكريم وصاغ منها أفعالا، وهذا ما سأحاول أن أبينه في هذا الجزء.

يقول ابن القيم: " فالغاية الحميدة التي يحصل بها كمال بني آدم وسـعادتهم ونجـاتهم هي معرفة ا ومحبته وعبادته وحده لا شريك له، وهي حقيقة قول العبد: لا إله إلا ا وبها بعثت الرسل، ونزلت جميع الكتب، ولا تصلح النفس **ولا تزكـو،** ولا تكتمـل إلا

---

[1] - ابن قيم الجوزية، مفتاح دار السعادة، ص 130.

[2] - المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[3] - المرجع نفسه، ص 127.

[4] - المرجع نفسه، ص 181.

بذلك[1]" فقد أخذ ابن القيم هذا المعنى من قول ا تعالى **وَوَيلٌ لِلمشْـركين الـذينَ لا يؤْتُونَ الزكَاة** (فصلت: 6-7) فقد أتى بالفعل تزكو، بينما وردت في القرآن الكـريم الزكاة.

رابعا: تصريف الألفاظ من صيغ فعلية في القرآن الكريم إلى صيغ اسمية في مفتـاح دار السعادة: فهذه الحالة تختلف عن الحالة السابقة؛ حيث إن ابن القيم يقتبس كلمات من القرآن الكريم مبنية على وزن من الأوزان الفعلية، ويصوغها في مفتاح دار السـعادة على صيغة من صيغ الأسماء، **يقول ابن القيم**: " إن إبليس لم يصـل إليهـا، ولكـن **وسوسته** وصلت[2]" فقد أخذ هذا التعبير من قول ا تعالى **فوسوس إليه الشيطان** (طه: 120) فاللفظة وسوس في القرآن الكريم فعل ماضي، فصاغ منـه ابـن القـيم وسوسة، والتي جاءت مصدرا في نص ابن القيم. **ويقول أيضا**: "عم سبحانه **بالـدعوة** وخص **بالهداية** المفضية إليها، فمن هداه إليها فهو ممن دعاه إليها، فمن اهتـدى مـن الجن فهو من المدعوين إليها[3]" اقتبس ابن القيم هذا المعنى من قولـه تعـالى **وَا ُ يَدعو إلىَ دَارِ السلام وَيَهدي مَن يَشَاءُ إِلى صرَاط مستَقيم** (يونس: 25) فالفـعلان (يدعو) و (يهدي **)** في الآية فعلان مضارعان، بينما في نص ابن القـيم مصـدرين اسميين. **ويقول أيضا** " كل من لا خوف عليه ولا حزن فهو من أهل الجنة[4]" اقتـبس ابن القيم هذا المعنى من قوله تعالى **فَلاَ خَوفَ عَلَيهِم وَلاَ هم يَحزَنُون أولَئِكَ أَصحَاب الجَنة خَالِدينَ فيهَا جَزَاء بِمَا كانُوا يَعمَلُون** (الأحقاف: 14) فالفعل (يحزنون) فـي الآية الكريمة فعل مضارع، بينما صاغ منه ابن القيم في نصه (لا حزن) والذي جاء مصدرا اسميا.

خامسا: تصريف الألفاظ من صيغ اسمية في القرآن الكريم إلى صيغ اسمية أخـرى في مفتاح دار السعادة: في هذه النقطة يحتفظ ابن القيم بالصيغة الاسمية للكلمة الواردة في القرآن الكريم، ويصوغ منها صيغة مختلفة في كتابه عندما يقوم بنقل المعنى ضمن

---

[1] - ابن قيم الجوزية، مفتاح دار السعادة، ج 3، ص 27.

[2] - المرجع نفسه، ج 1، ص 129.

[3] - المرجع نفسه، ص 192.

[4] - المرجع نفسه، ص 193.

النطاق الاسمي دائما، كأن تكون الكلمة معرفة في القرآن الكريم فيوردهـا نكـرة، أو تكون في أصلها نكرة فيعرفها في كتابه، أو تكون الكلمة في القرآن الكريم في موضـع رفع فترد عنده في مفتاح دار السعادة موضع نصب أو جر أو يكون العكس، إلى غير ذلك من الحالات التي تطرأ على اسمية الكلمة في نص القرآن الكريم ونص الكتاب.

يقول ابن القيم: "... ثم أنظر إلى قطعها المتجاورات، وكيف ينزل عليها مـاء واحـد فتنبت الأزواج المختلفة المتباينة في اللون والشكل والرائحة والطعم والمنفعة واللقـاح واحد والأم واحدة [1]" اقتبس هذا المعنى من قوله عـز وجـل **وَفِـي الْأَرْضِ قِطَـعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِـدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ** (الرعد: 4).

فالكلمات (قطعها المتجاورات) تتطابق بين نص الآية ونص ابن القيم، إلا أنها وردت معرفة في نص ابن القيم، ووردت نكرة في النص القرآني.

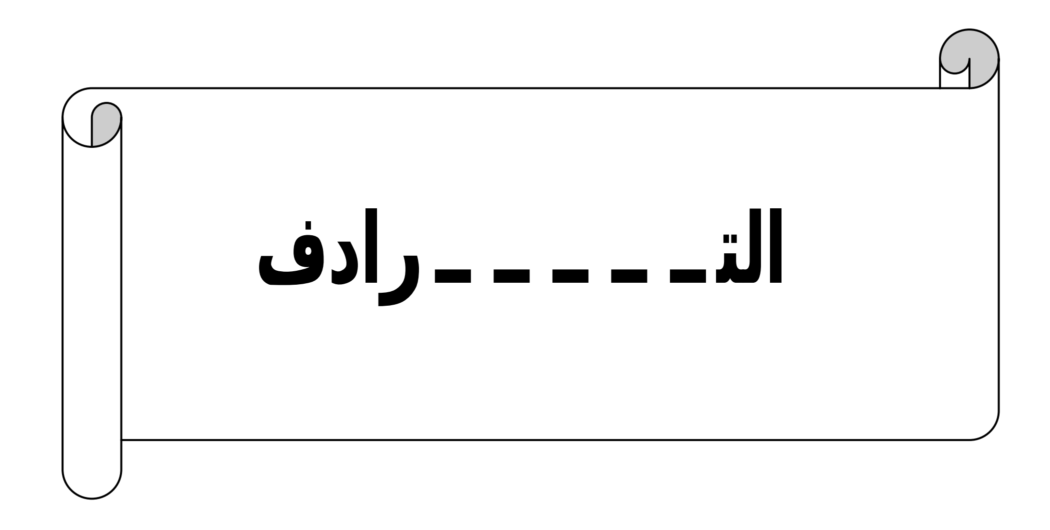
سادسا: تصريف الألفاظ من صيغ فعلية في القرآن الكريم إلى صيغ فعلية أخرى فـي مفتاح دار السعادة: ويتعلق الأمر في هذه الحالة بالأفعال؛ إذ يقتبس كثيرا من الأفعـال القرآنية ضمن دلالاتها؛ فينسج على منوالها في مفتاح دار السعادة، وإن كان لا يلتـزم في كثير من الأحيان صيغتها الفعلية، بل ينقلها إلى صيغ فعلية أخرى، كأن ينقل الفعل من صيغة الماضي في القرآن الكريم إلى المضارع في كتابه، أو من المضـارع إلـى المضارع أو الأمر، أو من ضمير المفرد إلى الجمع، أو من ضمير الغائب إلى ضمير المتكلم، إلى غير ذلك من الحالات التي ترد عليها من مفتاح دار السعادة، كما قد يلتزم بصيغتها القرآنية، ومن أمثلة ذلك: **يقول ابن القيم:** " فأخبر تعالى أن ما قدمت أيـديهم سبب لإصابة المصيبة إياهم، وأنّه سبحانه أرسل رسوله وأنزل كتابه [2]" فقد أخـذ هـذا المعنى من قوله عز وجل **وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْـدِيهِمْ فَيَـقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ** (القصص: 47).

---

[1] - ابن قيم الجوزية، مفتاح دار السعادة، ج 2، ص 32.

[2] - المرجع نفسه، ج 3، ص 12.

فالأفعال (قدمت، أرسل) تتطابق بين نص الآية الكريمة، ونص ابن القيم، وهكذا كان ابن القيم يعتمد على الأدلة المباشرة في الدفاع عن آرائه، وكان محتاجا إلى بيان قوي وأسلوب مقنع واضح يبين به رأيه، وينافح به عن فكرته، وهذه السمة هي وضوح العبارة وتأكيدها أهم ما يميز أسلوبه، ولذلك يلجأ ابن القيم إلى الاقتباس من القرآن الكريم، وليس غريبا أن يكون القرآن الكريم المعيار الأول لجمال الكلمة؛ إذ جاءت عذبة على مسمع مستقبلها، طيبة المجرى على اللسان، معتدلة في الوزن، نازلة على أحسن هيأة في الإيقاع، وجاءت حروفها على قدر الضرورة، فلم يزد فيها زيادة ترهق السمع، أو تسبب الملل، وإنما كان كل حرف في موضعه؛ بحيث لا يمكن أن يستغني عنه أو يستبدل به غيره.


التـ ـ ـ ـ ـرادف

التـــــــرادف:

ومن السمات المعجمية الواردة في مفتاح دار السعادة، الإكثار من الألفاظ المترادفـة. والترادف: " هو الألفاظ المفردة الدالة على شيء واحد باعتبار واحد... والفرق بينـه وبين التوكيد، أن أحد المترادفين يفيد ما أفاده الآخر كالإنسان والبشر، وفي التوكيد يفيد الثاني تقوية الأول..."[1] فالـترادف إذن هو مجموعة من الألفاظ المفردة التي تدل على شيء واحد، وفي التوكيد يفيد الثاني تقوية الأول، أو هو" قيام لفظ مقـام لفـظ لمعـان متقاربة يجمعها معنى واحد كما يقال: أصلح الفاسد ولم الشّعث، ورتق الفتق، وشـعب الصدع، وهذا أيضا ممّا يحتاج إليه البليغ في بلاغته، فبحسن الألفاظ واختلافهـا علـى المعنى الواحد، ترصع المعاني في القلوب، وتلتصق بالصدور، ويزيد حسنه وحلاوته[2]" فالترادف ذو أهمية بالغة، وهو وجه من أوجه البلاغة، ممّا يحتاج إليـه البليـغ فـي بلاغته، فبحسن الألفاظ واختلافها على المعنى الواحد، ترصع المعـاني فـي القلـوب وتلتصق بالصدور، ويـزيد حسـنه وحـلاوته.

وفسر هذا الفريق ورود هذه المترادفات، ويعتلون لوجودها في اللغة " فذهب ثعلـب وابن فارس، وأبو علي الفارسي إلى أن الاسم فيها واحد، وما سواه صـفات أشـاعها الاستعمال؛ حتى حلّت محلّ الاسم الأول في إطلاقها على المسمى[3]" فيرى هذا الفريق أن الاسم واحد، وما سواه صفات أشاعها الاستعمال، فحلت مقـام الاسـم الأول، أمـا الفريق الثاني يشهد على أن اختـلاف العبارات والأسـماء يوجب اختلاف المعاني أن " الاسم كلمة تـدلّ على معنى دلالة الإشارة، وإذا أشير إلى الشيء مرة واحدة فعرف فالإشارة إليه ثانية وثالثة غير مفيدة... فهذا يدل على أن كلّ اسمين يجريـان علـى معنى من المعاني وعين من الأعيان.. فـإن كلّ واحد منهما يقتضي خلاف ما يقتضيه

---

[1] - جلال الدين السيوطي، المزهر، ص 402.

[2] - المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[3] - محمد حسين آل ياسين، الـدراسات اللغوية عند العرب، ط 1. بيـروت: 1980، دار مكتبـة الحياة للنشر والتوزيع، ص 414.

الآخر، وإلاّ لـكان الثاني فضلا لا يحتاج إليه..[1] " فالاسم حسب هؤلاء كلمـة تـ ـ دلّ على معنى دلالة الإشارة، وإذا ما أشير إلى الشيء مرة واحدة فعرف، فالإشارة إليـه ثانية وثالثة غير مفيدة، ولكن الفريق الثالث يتوسط رأيه بين هؤلاء وهؤلاء فيرون" أن العربية قد امتازت بوفرة كلماتها في المعنى الواحد، وليس معنى ذلك أن هذه الكلمـات كلّها تدل على هذا المعنى الواحد بدون فروق دقيقة يلاحظها المتكلم أو السامع، لا بـل بين هذه الألفاظ فروق دقيقة في الدلالة...[2]" فـهذا الفريق يقر بوجود التـرادف فـي اللغـة، فقد امتازت بوفرة كلماتها في المعنى الواحد، مع وجود فـروق دقيقـة فـي الدلالة، ويرى هؤلاء أن " للشّيء المسمى وجوها وصفات كثيرة، ويمكـن أن يسـمى بأكثر من صفة من صفاته، وأن يشتق له من الألفاظ كلمات متعددة تبعا لتلك الوجـوه والصفات كـ: دار، منزل، مسكن، بيت، وكل لفظ من هذه الألفاظ يدلّ على المقصود نفسه بأحد هذه الاعتبارات التي يقصدها المتكلم ويلاحظها...[3]" ويلاحظ هذا الفريق أن للشّيء المسمى وجوها وصفات كثيرة، ويمكن أن يسمى بأكثر من صفة مـن صـفاته ويمكن أن يشتق له من الألفاظ كلمات متعددة تبعا لتلك الوجوه والصفات، وهكذا كـان الترادف في اللغة العربية موضع أخذ ورد منذ القديم بين علماء اللغة، ففريق ينتصـر لهذه الظاهرة اللغوية؛ فيثبت وجود الترادف في العربية، وأنّها تمتاز بذلك عن غيرهـا من اللغات العالمية الأخرى، وهناك من ينكر هذه الظاهرة، وهناك من يقـف موقـف وسط بينهما، فمـن أمثلة الألفاظ المتـرادفة فـي مفتاح دار السعادة ما يلي:

يقول ابن القيم: " وإذا **نظرت** إلى الأرض وكيف خلقت، **رأيتها** من أعظم آيات فاطرها وبديعها، خلقها سبحانه فراشا ومهادا، وذللها لعباده، وجعل فيهـا أرزاقهـم وأقـواتهم ومعايشهم... **فتأمل** كيف استجار هذا الجسم الثقيل العظيم بهذا اللطيف الخفيف، وتعلق به حتى أمن من الغرق، وهذا كالذي يهوي في قليب؛ فيتعلق بذيل رجل قـوي شـديد يمتنع عن السقوط في القليب فينجو بتعلقه به، فسبحان من علّق هذا المركـب العظـيم

---

[1] - أبو هلال العسكري، الفروق اللغويـة، د ط. بيـروت: 1991، دار الآفـاق الجديـدة للنشـر والتوزيع، ص 13.

[2] - عبد الفتاح لاشين، صفاء الكلمة، د ط. الرياض: 1983، دار المريخ للنشر والتوزيع، ص 60.

[3] - المرجع نفسه، ص 62.

الثقيل بهذا الهواء اللطيف من غير علاقة ولا عقدة تشاهد[1] " فالملاحظ في هذه الفقرة ورود الترادف في هذه الكلمات: (**نظرت، رأيتها، فتأمل**) فهـل هـي كلمـات ذات مدلول واحد، أم أن بينها فروقا دقيقة؟ وهل وفّق ابن القيم في اختيار الألفـاظ الدقيقـة المعبرة في هذه الجمل، وفي كل مقطع؟ ولمعرفة ذلك لابـد أن نبحث عن دلالة تلـك الألفاظ.

1- **نظر**: جاء في لسان العرب لابن منظور: " نظر، النظَر حس العين نَظَره ينْظُـره نَظَراً ومنْظَراً ومنْظَرة ونَظَر إِليه، والمنْظَر مصدر نَظَر الليث، العرب تقـول: نَظَـر ينْظُر نَظَراً، قال: ويجوز تخفيف المصدر تحمله على لفظ العامة من المصادر، وتقول نَظَرت إِلى كذا وكذا من نَظَر العين ونَظَر القلب[2] "

2- رأى: " رأى : الرؤية بالعين تتعدى إلى مفعول واحد، وبمعنى العلم تتعدى إلـى مفعولين. يقال: رأى زيداً عالِماً، ورأى رأْياً ورؤْيـةً وراءةً، مثـل راعـة، والـرأْي معروف، وجمعه أراء[3]"

3- **تأمل**: " والتأَملُ التثَبت، وتأَملت الشيء َأي نظرت إِليه مستثْبِتاً له، وتأَمل الرجـلُ تَثَبت في الأَمر والنظر[4]"

من خلال الدلالة المعجمية لهذه الألفاظ يتضح أن هذه الألفاظ لم تـأت فـي هـذا النسق للتعبير عن شيء واحد أو مدلول بعينه، بل كل كلمة وردت في مقطعهـا لتـدل على معنى أدق، فلا يمكن إذن أن نضع أحد المترادفات في مقطع غير الذي وردت فيه من مقاطع نصها، وإذا أتينا إلى ترتيب هذه الكلمات فهي كالآتي:

---

[1] - ابن قيم الجوزية، مفتاح دار السعادة، ج 2، ص 34.

[2]- ابن منظور، لسان العرب، مادة نظر.

[3] - الجوهري، الصحاح في اللغة، مادة رأى.

[4] - المرجع نفسه، مادة أمل.

المعنى	الكلمة
حس العين والقلب	(نظر)
الرؤية بالعين، وبمعنى العلم	(رأى)
التأملُ التثبت	(تأمل)

وهذه الكلمات مرتبة وفقا لما تمليه مراحل الرؤية والنظر.

فالمرحلة الأولى هي النظر إلى الأرض وكيف خلقت، وهي نظرة بالعين والقلب معا ثم تتلوها مرحلة ثانية، وهي نظرة أكثر تأملا وهي العلم والإدراك، وأخيرا نظرة أكثر تأملا من الثانية، وهي التأمل والتثبت، وفي المثال نفسه يتبين أن ابن القيم يورد العديد من المترادفات وهي: (فراشا ومهادا) و (أرزاقهم وأقواتهم ومعايشهم).

وفي موضع آخر يقول ابن القـيم: " ثم انظر الحكمة البالغة في تركيب العظام **قوامـا** للبدن و**عمادا** له، وكيف قدرها **ربها** و**خالقها**..." [1] فالملاحظ في هـذه العبـارة ورود الترادف في الكلمتين: (ربها، خالقها) و (قواما وعمادا له) والعبارتان يجمعها معنى واحد. **ويقول أيضا**: " ... ثم جملهما بالأجفان **غطاء** لهما و**سترا** و**حفظا** و**زينة** ولمنافع أخرى وراء **الجمال والزينة** [2]" فالملاحظ في هذه العبارات ورود الترادف فـي هـذه الكلمات (غطاء، سترا، حفظا) و (الجمال والزينة).

وفي موضع آخر يقول ابن القيم: " وإذا نظرت إلى الأرض وكيف خلقت، رأيتها من أعظم آيات فاطرها، خلقها سبحانه **فراشا ومهـادا**، وجعل فيهـا **أرزاقهـم وأقـواتهم ومعايشهم**، وأرسـاها بالجبال... **فمـدها وبسطها** [3]" فالتـرادف يظهر في الكلمات: (فراشا، مهادا) و (أرزاقهم، أقواتهم، معايشهم) و (مدها، بسطها).

---

[1] - ابن قيم الجوزية، مفتاح دار السعادة، ج 2، ص 8.

[2] - المرجع نفسه، ص 9.

[3] - المرجع نفسه، ص 31.

ويقول أيضـا: " ثم انظر إلى عجائب السفن وسيرها في البحر تشقه وتمخره بلا **قائـد** يقودها، ولا **سائق** يسوقها، وإنما قائدها وسائقها الرياح التي يسـخرها ا لإجرائهـا"[1] فالكلمات المترادفة هي (تشقه وتمخره) و (قائدها وسائقها).

ويقول أيضا: " ونصب سبحانه قصبة الأنف في الوجه فأحسن **شكله وهيأته ووضـعه** وفتح فيه المنخرين، وحجز بينهما بحاجز، وأودع فيهما حاسة الشم التي تـدرك بهـا أنواع الروائح **الطيبة الزكية**، **والخبيثة الضارة**، وليتنشق به الهواء، فيوصله إلى القلب فيتروح به ويـتغذى[2]" فالكـلمات المترادفة هي (شكله وهيأته ووضعه) و (الطيبة الزكية) و (الخبيثة والضارة) إلى غـير من المترادفات الـواردة فـي مفتـاح دار السعادة.

ومن خلال ما سبق، يمكن القول إن ابن قيم الجوزية يورد العديـد مـن المترادفـات للمسمى الواحد، حتى بدا ذلك ظاهرة من الظواهر اللغوية التي يمكن ملاحظتها بجـلاء في كتابه، وقد يكون من الأسباب التي أملت عليه ذلك ما يلي:

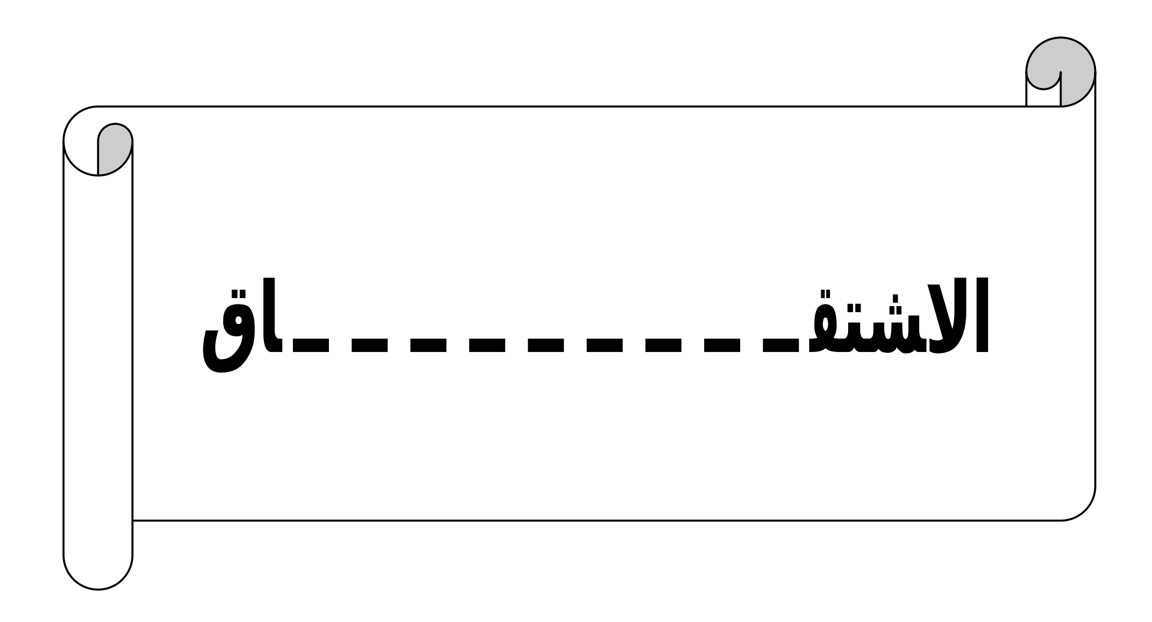
أولا: رغبته في إظهار براعته اللغوية، وكان هذا جليا في كتابه مفتـاح دار السـعادة خاصة وفي مؤلفاته الأخرى عامة.

ثانيا: مراعاة السجع مماّ جره ذلك إلى استغلال الترادف للتوسع في الكلام، ثم لتلافـي تكرار نفس اللفظ في الفقرة الواحدة كقوله: "... ثم إنّه سبحانه ربـط تلـك الأعضـاء والأجزاء بالرباطات، فشد بها أسرها، وجعلها كالأوتار، تمسكها وتحفظها [3]" فالترادف ملاحظ بين كلمتي (شد، ربط).

[1] - ابن قيم الجوزية، مفتاح دار السعادة، ج 2، ص 43.

[2] - المرجع نفسه، ص 11.

[3] - المرجع نفسه، ص 15.


الاشتقـــــــــــاق

الاشتقـــاق:

تتميـز اللغة العربية بألفاظها التي يتوالد بعضها من بعض باستمرار لمسـايرة كـل جديد، فالاشتقاق بهذا الاعتبار برهان على نزعة الحريـة، وهـي حريـة مضـبوطة ومنظّمة، وتـؤدي العربية بهذه الطريقة الحية وظيفتها في الحياة؛ إذ تقابل كل مولـود جديد حسياّ كان أو معنويا بمولود جديد مثله، ونقل صاحب المزهر عن شرح التسهيل: " الاشتقاق أخذ صيغة من أخرى، مع اتفاقهما معنى ومادة أصلية، وهيئة تركيب لهـا ليدلّ بالثانية على معنى الأصل بزيادة مفيدة لأجلها اختلفا حروفا وهيئة [1]" فالاشـتقاق بهذا المفهوم هو أخذ صيغة من أخرى شرط اتفاقهما في المعنى والمادة الأصلية، مـع الزيادة المفيدة والاختلاف في الحروف والهيأة ويحدد ابن عصفور الاشتقاق في بـاب "ما يدخله التصريف وما لا يدخله" بقوله: " اعلم أن التصريف لا يـدخل فـي أربعـة أشياء، وهي الأسماء الأعجمية التي عجمتها شخصية كـ " إسماعيل" ونحـوه، لأنهـا نقلت من لغة قوم ليس حكمها كحكم هذه اللغة والأصوات كـ "غاق" ونحـوه، لأنهـا حكاية ما يصوت به، وليس لها أصل معلوم والحروف، وما شُبـّه بها مـن الأسـماء المتوغلة في البناء نحو " من " و " ما " لافتقارها بمنزلة جزء من الكلمة التي تـدخل عليها...[2]" ومن خلال هذا يتبين أن التصريف لا يدخل في أربعة أشياء، وهي: الأسماء الأعجمية والأصوات التي ليس لها أصل معلوم، الحروف، وما شُبـّه بها من الأسماء المتوغلة في البناء كـ من وما ويؤكد السيوطي أن " اشتقاق العرب من جواهر الألفاظ قليل جدا، والأكثر من المصادر، ومن الاشتقاق من الجواهر قولهم: استحجر الطـين، استنوق الجمل...[3]" وهكذا اتجه العرب إلى الاشتقاق من المصادر أكثر من اشـتقاقهم من جواهر الألفاظ وإلى خلاف هذا الرأي يذهب بعض الدارسين فيقـرون أن كلمـات

---

[1] - جلال الدين السيوطي، المزهر، ج 1، ص 346.

[2] - ابن عصفـور، الممتع في التصريف، ط 4. بيـروت: 1979، دار الآفـاق الجديـدة للنشـر والتوزيع، ج 1، ص 35.

[3] - جلال الدين السيوطي، المزهر، ج 1، ص 350.

اللغة جميعا مشتقة بهذا الاعتبار: " وقالت طائفة من المتأخرين اللغـويين كـل الكلـم مشتق، ونسب ذلك إلى سيبويه والزجاج[1] " وهكذا تعتبر طائفة من المتأخرين اللغويين أن كلمات اللغة جميعا مشتقة، وفي هذا الصدد يقول تمام حسان: " فما دام لكلّ كلـمة من كلمات العرب مادة تصاغ منها، فلها اشتقاق منسوب إلى هـذه المادة، ولا يبقى في الصرف ما يسميه الصرفيون الاسم الجـامد[2]" فيرى تمام حسان أن لكلّ كلـمة مـن كلمات العرب مادة تصاغ منها، فلها اشتقاق منسوب إلى هـذه المادة، وعليه فلا يبقى في الصرف ما يسميه الصرفيون الاسم الجـامد، وهكذا تتضارب الآراء حول ظاهرة الاشتقاق، وإذا كان الرأيان الأخيران يتباينان في تعميم الاشتقاق أو تحديده، فـإلى أي رأي يميل ابن القيم؟ وبعد الدراسة والتمعن في مفتاح دار السعادة، تبين أن ابن القـيم رأيه إلى رأي الفريق الثاني أقرب، وخصائصه في الاشتقاق أمران:

أ- اشتقاق مصادر وأفعال من جواهر الألفاظ: إن اللغة العربية لا تـزال تجـري على قواعد يمكن أن تنزل منزلة السنن الطبيعية في الحياة، بحيث لا تأبى في عصـر من العصور أن يضاف إليها شيء من المستحدثات الزمنية؛ فكما تبسط الأولون فيهـا حتى بلغت بهم من السعة، وجاء القرآن الكريم من ألفاظهم نفسها وأجـراه فيمـا لـم يستعملوه، ولا لهم به عهد وهو معجزة القوم، وفصـحت الألفـاظ المولـدة وأسـماء المستحدثات العلمية، حتى ألحقت بمادة اللغة بعد ذلك، كذلك يمكن للأدبـاء والكتـاب والعلماء في كل زمان أن يتبسطوا فيها بما يستحدثونه من معان وأشياء ليحق للغة؛ إذ ذاك أن تكون لغة العصر ... وإنما يتأتى ذلك ويصح بملاحظة ما تنص عليه طبيعـة اللغة من أوزانها وقواعدها وطرق الوضع والاستعمال فيها، وأمثلة هذا الباب في مفتاح دار السعادة مايلي:

أ1- اشتقاق أفعال من جواهر الألفاظ: يقول ابن القيم: " وأما حسـن الزكـاة ومـا تضمنته من مواساة ذوي الحاجات والمسكنة والخلة من عباد ا الذين يعجزون عـن إقامة نفوسهم، ويخاف عليهم التلف إذا خلاهم الأغنياء وأنفسهم، وما فيها من الرحمـة

---

[1] - جلال الدين السيوطي، المزهر ، ص348.

[2] - تمـام حسان، منـاهج البحث في اللغة، د ط. المـغرب: 1986، دار الثـقافة للنشر والتوزيع ص 218.

والإحسان والبر والطهرة، وإيثار أهل الإيثار والاتصاف بصفة الكرم والجود والفضل والخروج من سما أهل الشح والبخل والدناءة: فأمر لا **يستريب** عاقل في حسنه ومصلحته، وإن الآمر به أحكم الحاكمين[1]" ونلاحظ في هذا المثال اشتق ابن القيم الفعل يستريب من المصدر ريب.

وجاء في المعجم الوسيط: " استراب – يستريب: رأى منه ما يريبه، والريب: الظن والشك والتهمة [2]" ومعنى هذا القول أن ليس يجوز في العقل ولا في الفطرة البتة أن ترد شريعة من الحكيم العليم بضد ذلك أبدا.

أ2- اشتقاق مصادر من جواهر الألفاظ:

* **اشتقاق مفرد مؤنث من المطر: يقول ابن القيم**: " فإذا تأملت **السحاب** الكثيف المظلم كيف تراه يجتمع في جو صاف لا كدورة فيه، وكيف يخلقه الله متى شاء، وإذا شاء وهو مع لينه ورخاوته حامل للماء الثقيل بين السماء والأرض إلى أن يأذن له ربه وخالقه في إرسال ما معه من الماء، فيرسله وينزله منه مقطعا بالقطرات... يرشّ السحاب الماء على الأرض رشا، ويرسله قطرات مفصلة لا تختلط قطرة منها بأخرى ولا يتقدم متأخرها ولا يتأخر متقدمها[3]" اشتق ابن القيم في هذا المثال مفرد مؤنث من المطر وهو السحاب، وقد وردت هذه الكلمة في صحيح مسلم عن النبي ﷺ قال: " بينما رجل بفلاة من الأرض إذ سمع صوتا في سحابة: اسق حديقة فلان، فمر الرجل مع السحابة حتى أتت على حديقة، فلما توسطتها أفرغت فيها ماءها، فإذا برجل معه مسحاة يسحي الماء بها فقال ما اسمك يا عبد الله ؟ قال: فلان، للاسم الذي سمعه في السحابة...[4]"

ب – اشتقاق الصيغ الدقيقة للمعاني الدقيقة: وقد وفق ابن القيم في انتقاء الكلمات والصيغ الدقيقة التي لا تقل أو تزيد عن مقاس المعاني التي يريد إيصالها غير منقوصة، بل تصور المعنى تصويرا دقيقا لا يقوم مقامها لفظ آخر.

---

[1] - ابن قيم الجوزية، مفتاح دار السعادة، ج 2، ص 321.

[2] - المعجم الوسيط، ج 2، مادة ريب.

[3] - ابن قيم الجوزية، مفتاح دار السعادة، ج 2، ص 164.

[4] - صحيح مسلم (2984).

يقول ابن القيم: " ونكتة هذا الوجه أن العبد متى شهد صلاحه واستقامته شـمخ بأنفـه **وتعاظمت** نفسه ... فإذا ابتلي بالذنب **تصاغرت** إليه نفسه[1]" والألفـاظ التـي تسـتوقف القارئ هي قوله (**تعاظمت- تصاغرت)** فالأولى على وزن تفاعلت، وأصـل الكلمـة عظم – يعظم – عظمة.

وجاء في المعجم الوسيط مـادة عظم: " تعاظم فلان: تصنع العظمة[2]" وتعاظمت هنـا أوفق من عظمت؛ لأن النفس إذا تعاظمت، أوجبت له الحياء والخجل من صـالح مـا عمل، ثم أوجبت له استكثار قليل ما يرد عليه من ربه، لعلمه بأن قدره أصغر من ذلك وأنّه لا يستحقه، والثانية على وزن تفاعلت، وأصل الكلمة صغر- يصغر- صغر.

وجاء أيضا في المعجم الوسيط مادة صغر: " تصاغر فلان، سـلك مسـلك الصـغار تصاغرت إليه نفسه: صغرت في عينه ذلا ومهانة[3] " وتصـاغرت هنـا أوفـق مـن صغرت؛ لأن إذا تصاغرت إلى العبد نفسه، فسيئاته وذنوبه تحتـاج مـن المكفـرات والماحيات إلى أعظم من هذا، فهو لا يزال محسنا، وعند نفسه المسيء المذنب منكسرا ذليلا خاضعا لا يرتفع له رأسه لا ينقام له صدر.

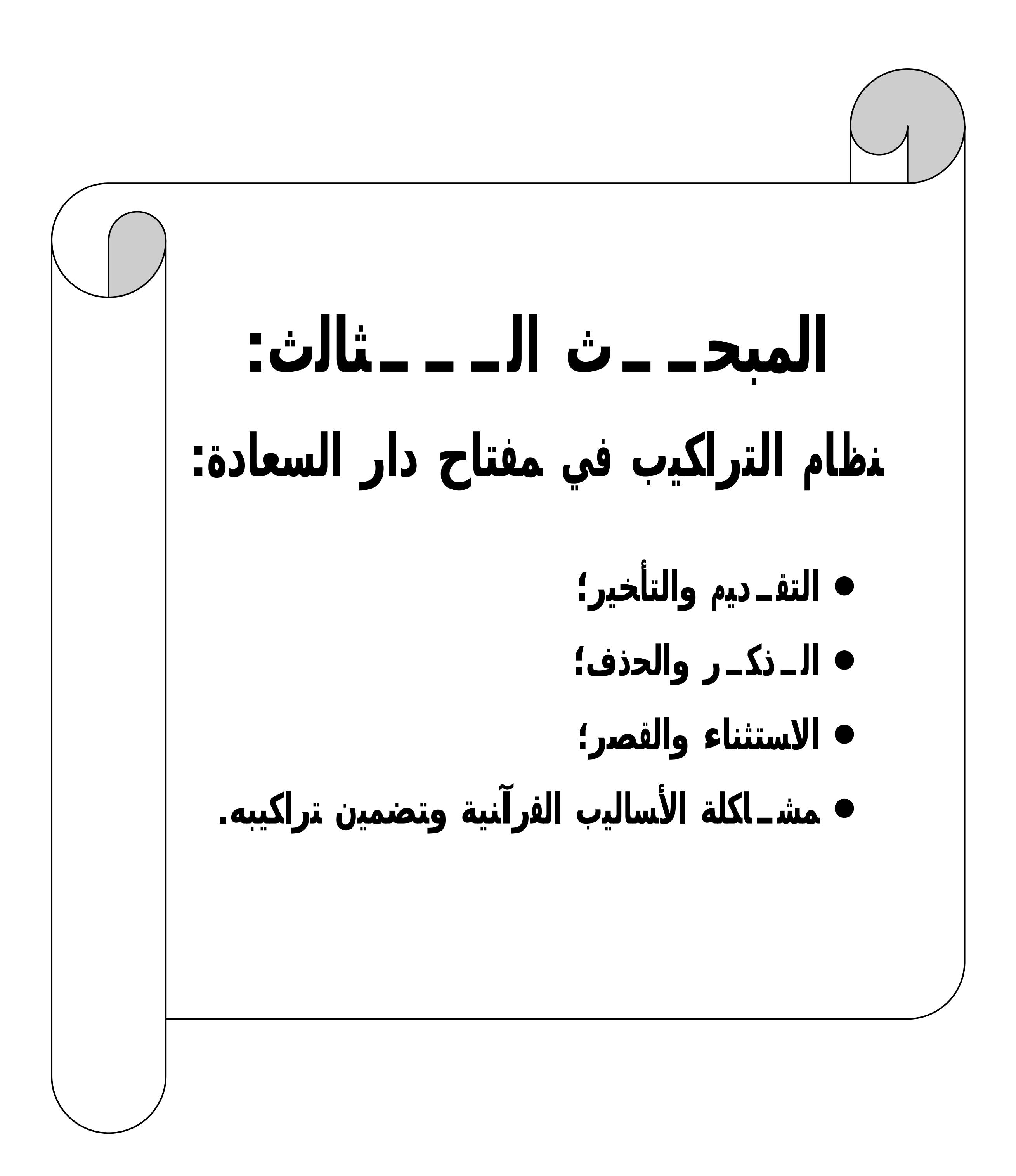
نستنتج من هذه الأمثلة أن ابن القيم كان يطـعم لغته بألفاظ تتناسب وطبيعة الموضوع الـذي يغـوص فيـه، وكل هذه الألفاظ نابعة من طبع ابن القيم، فقد كـان ذا طبـع صارم تصدر عنه الألفاظ الصارمة، حتى في المواقف التي تقتضي ألفـاظا لينة وهذه الألفاظ المدوية ترجع إلى طبعه وتفكيره ونمطه، فقد كان ابن القيم ذا طبع صارم ونفس ثائرة فلا يجد وسيلة للتعبير عما يجيش في نفسه إلا هذه الألفاظ القوية، ثم يرى منهـا ضربا من الافتخار لأنها قوية، والقوة عنوان الفحولة والرجولة.

---

[1] - ابن قيم الجوزية، مفتاح دار السعادة، ج 2، ص 269.

[2] - المعجم الوسيط، ج 2، مادة عظم.

[3] - المرجع نفسه، ج 1، مادة صغر.



المبحـــث الـــثالث:

نظام التراكيب في مفتاح دار السعادة:

- التقـديم والتأخير؛
- الـذكـر والحذف؛
- الاستثناء والقصر؛
- مشـاكلة الأساليب القرآنية وتضمين تراكيبه.

نظام التراكيب في مفتـاح دار السـعادة:

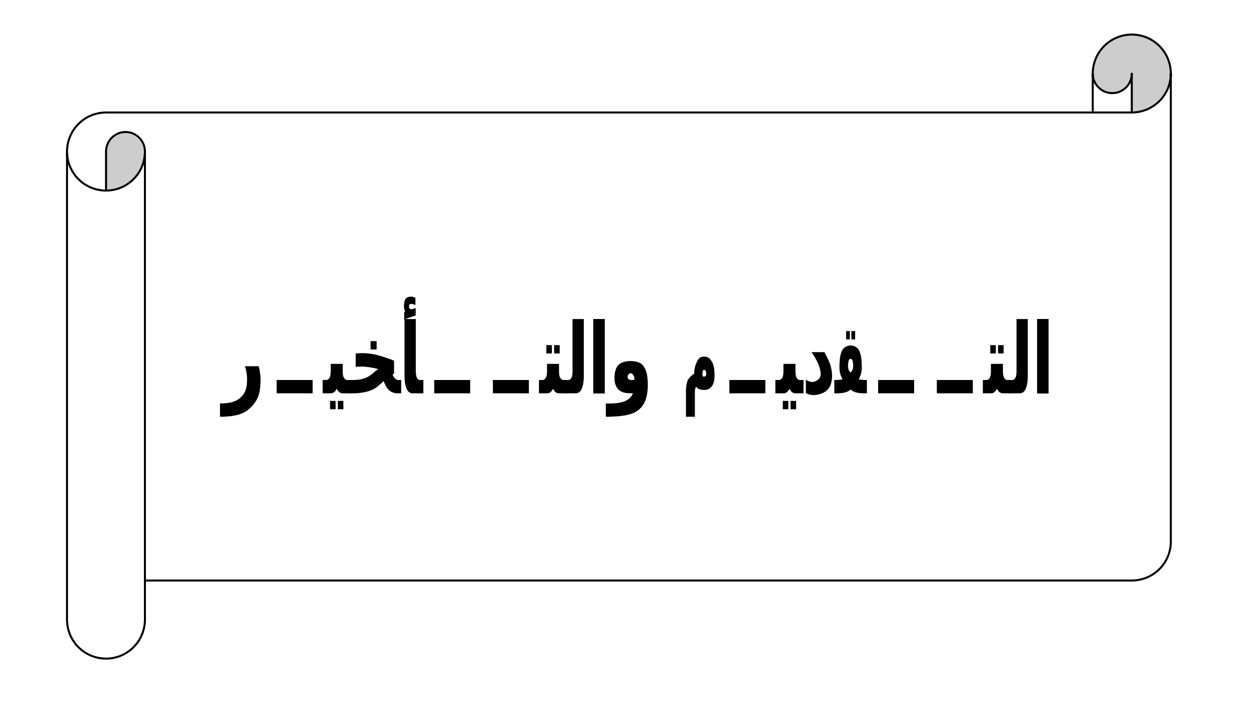
مدخـل: نعني بدراسة التراكيب في هذا الفصل إحصاء مجموعة من الظواهر التـي يتميز بها بناء الجمل في مفتاح دار السعادة، مـن حيـث التقـديم والتـأخير والـذكر والحذف... وغيرها من الظواهر التي تتصل بالبناء الداخلي للجمل من جهة، وتتصـل من جهة أخرى بالكشف عن علاقات بنـاء التـراكيب بيـن نصوص ابن القيـم.

وإن الباحث في كتب النحاة القدامى لا يجـد بابـا اسـمه الجملـة، بـل سيصـطدم بمصطلحات مرادفة لها: الكلام مثلا، أو يجد أبوابا تتحدث عن أجزائها منفصلة، كباب الفعل، وباب المنصوبات والمضاف إليه ... ولا نكاد نجد في هذه الكتب تعريفا للجملة بقـدر ما اهتم هؤلاء النحاة بتحليل أجزائها، وسرد أقسـامها وأنواعهـا، وإذا كـانوا تعرضوا لتعريف الكلام والكلم، فإنهم لم يبينوا العلاقة بـين الكـلام والجملـة، أهمـا مترادفان أم هناك فرق بينهما، ومثلما اختلف العلماء في تعريف الجملة اختلفـوا فـي تقسيماتها باختلاف منطلقاتهم، فهناك الاسمية والفعلية والإنشائية والخبريـة والظرفيـة والشرطية، والجملة الصغرى والكبرى والمجردة والموسـعة والتامـة والناقصـة... وأساس هذا التمييز بين النوعين اعتبار العنصر الأول الذي تتألف منه الجملـة، فـإذا ابتدأت باسم سميت جملة اسمية، وإن ابتدأت بفـعل سميـت جمـلة فعلـية.

أما النظام النحوي، فهو " جوهر دراسة علوم العربية وأصل من أصول تفكير العلماء العرب، وهو يشكّل وشيجة متينة تربط عناصر النظام اللغوي بعضها مع بعض، وتمثل الضوابط والأحكام التي ينبني عليها الكلام، وتتضح بها المعاني[1]" فالنظام النحوي بهذا المفهوم هو لب الدراسات اللغوية، على اعتبار أنّه قلـب الأنظمـة اللغويـة جميعهـا وواسطة العقد بينها، فهو الذي يصل بين الأصوات والمعاني.

---

[1] - فارس محمد عيسى، علم الصرف منهج في التعليم الذاتي، ط 1. عمان: 2000، دار الفكر للنشر والتوزيع، ص 33.


التـ ـقديـم والتـ ـأخيـر

التقديم والتأخيـر:

لكل لغة من لغات البشر نسق معين في ترتيب الكلام، يلتزمه المتكلم فـي كلامـه ويرتبط بالتسلسل المنطقي والتدرج الذهني، فمن المعروف في الّلغة العربية أن يـأتي المبتدأ وبعده الخبر، والفعل وبعده الفاعل، وأن يتأخر المفعول عن الفاعل، وهذا النسق المنظم يعتمد على المنطق السليم وحسن الإدراك، ولكن ما نفكّـر فيه أحيانا لا يتم بهذا الترتيب الطبيعي، بل يحدث فيه تقديم وتـأخير يرتبـ ـطان بمـا فـي أذهاننـا مـن اهتمامات، وما في إدراكنا من ميل إلى التعبير من إحساس نريد نقله للآخرين بصورة مقنعة مؤثرة، فيقول الجرجاني:" هو باب كثير الفوائد، جم المحاسن، واسع التصـرف بعيد الغاية لا يزال يفتر لك عن بديعة، ويفضي لديك موقعه، ثم تنظر فتجد سـبب أن راقك ولطف عندك أن قدم الشيء، وحول اللفظ من مكان إلى مكان"[1] فيـرتبط تعبيـر نسق الكلام تقديما وتأخيرا، بتغيير إدراكنا للأمور، وبما يكون في أنفسنا من رغبـات وتبيين قدرة أصحاب البلاغة والبيان حين يستخدمون هـذه الغايـة المعنويـة للتقـديم والتأخير في تحقيق هدف آخر، وهو روعة موسيقى العبارة، واكتمال جمالهـا الفنـي ومراعاة التناسق بين العبارات جميعا، وقد أفرد أهل اللغة والنحو منـذ القـديم أبوابـا خاصة للتقديم والتأخير في كتب النحو والبلاغة، فقد بين سيبويه العلـة فـي التقـديم والتأخير بقـوله: " كأنهم يقدمون الذي بيانه أهم وهم ببيانه أعنى، وإن كـان جميعـا يهمانهم ويعنيانهم[2]" وهكذا يعد التقديم والتأخير واد من أودية البلاغة، وكنز من كنـوز البيان، ولقد وضح الإمام عبد القاهر الجرجاني علّة التقديم والتـأخير بقولـه: " لأنـك تقتضي في نظمها آثار المعاني، وترتبها على حسب ترتب المعـاني فـي الـنفس... والفائـدة في معرفة هذا الفرق أنّك إذا عرفته عرفت أن ليس الغرض بنظم الكلـم، أن توالت ألفاظها في النطق، بل أن تناسقت دلالتها، وتلاقت معانيها علـى الوجـه الـذي

---

[1] - عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 84- 85.

[2] - سيبويه، الكتاب، ج 1، ص 34.

اقتضاه العقل..."[1] فترتيب الألفاظ حسب عبد القاهر الجرجاني تـأتي حسـب ترتـب المعاني في النفس، وليس الغرض بنظم الكلم، أن توالت ألفاظها في النطـق، بـل أن تناسقت دلالتها وتلاقت معانيها على الوجه الذي اقتضاه العقل، والقـارئ لمفتـاح دار السعادة سيجد عناية كبيرة بهذه المسألة، مسألة التقديم والتأخير، والتـي تـدور حـول المحاور التالية:

- تقديم الخبر على المبتدأ.
- تقديم المفعول على فاعله.
- تقديم الظرف على الفعل....

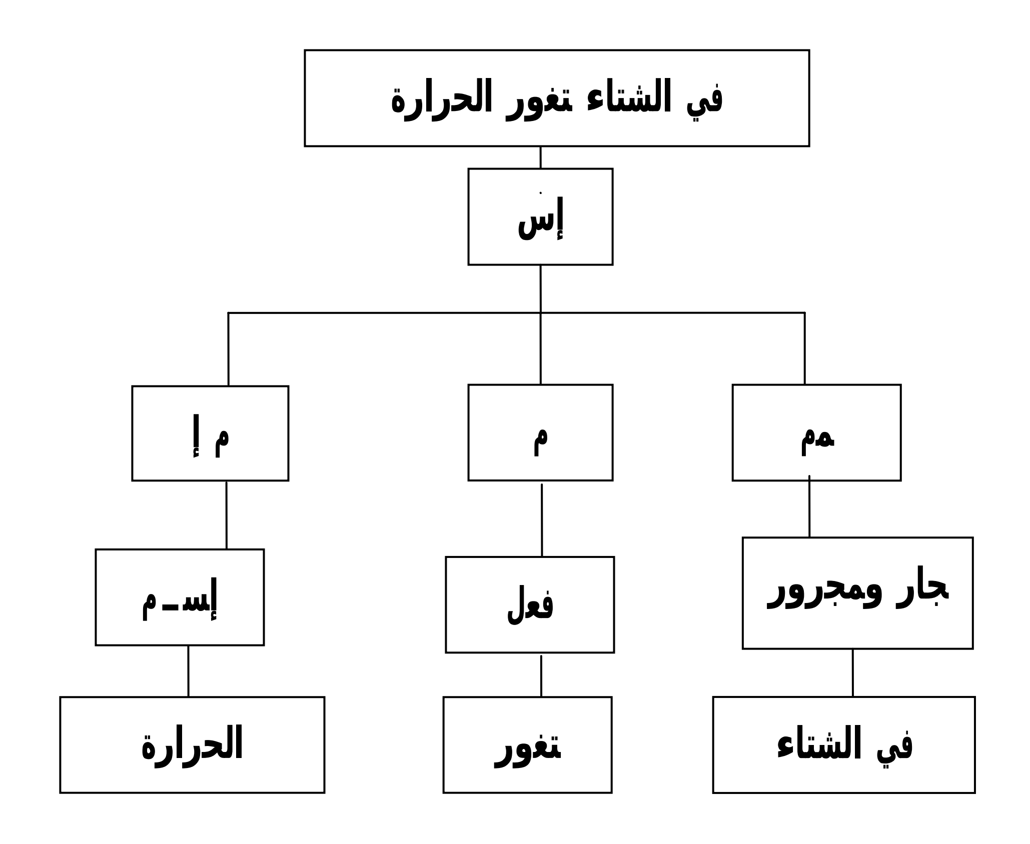
ولبيان أهمية التقديم والتأخير، نقوم بتحليل بعض الأمثلـة الـواردة فـي مفتـاح دار السعادة، **يقول ابن القيم:** " في الشتاء تغور الحرارة في الأجـواف وبطـون الأرض"[2] يمثل هذا التركيب بناء إسناديا لأنّه يتضمن عناصر الإسناد التي ينبغي أن تتوفر فـي التراكيب الأساسية للغة العربية، ممثلة في الجمل الفعلية والجمل الاسـمية، وعناصـر الإسناد هي المسند (م) والمسند إليه (م إ) والمتمم (مم).

ويبقى تقديم المسند والمسند إليه أحدهما على الآخر راجعا إلى نمط الجملة من اسـمية أو فعلية، ويمكننا تحديد نمط هذه الجملة (اسمية أو فعلية) وتحديد رتبـة المكونـات الأساسية للمثال بهذا المشجر البياني المعتمد لدى المدرسة اللسـانية الحديثـة، وهـي المدرسة التحويلية التوليدية.

---

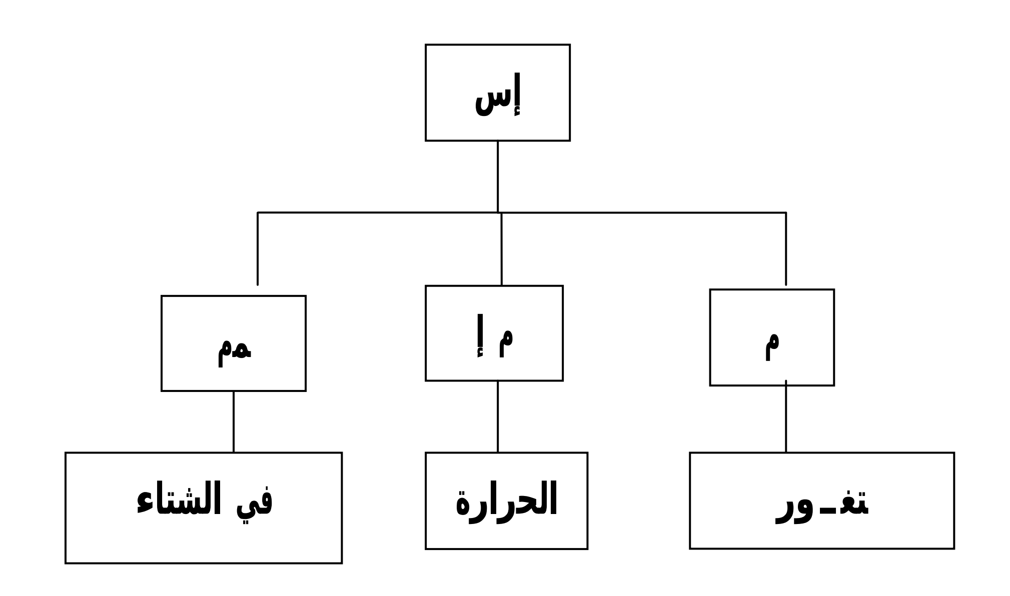
[1] - عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 49- 50.

[2] - ابن قيم الجوزية، مفتاح دار السعادة، ج 2، ص 52.



فهذه الجملة فعلية بناء على التحليلين القديم والحديث، وهي جملة فعلية لـدى القـدماء لأن المسند قد سبق المسند إليه، وهما الفعل وفاعله (تغور الحرارة) وهي كذلك عند المحدثين؛ لأنها تضمنت فعلا بصرف النظر عن كونه سابق لفاعله أم لاحق.

ويمكن أن نسجل ملاحظة أخرى، وهي تقدم المتمم (مم) على رتبته، فقـد ورد فـي صدر الكلام، والأصل في رتبته أن يرد في آخر الكلام كما هو مبين في هذا الشكل:



ويدخل المتمم التركيب العربي كركن إضافي يسهم في تحديد معنى الكلام، ويأتي بعد الفعل وفاعله، ويقول سيبويه: " ... إلاّ أنّك إذا أردت الإلغاء، فكلما أخّرت الذي تلغيـه كان أحسن، وإذا أردت أن يكون مستقرا تكتفي به، فكلما قدمته كان أحسن... "[1] ومعنى هذا أن في تركيب الجملة العربية عناصر يمكننا أن نلغيها، وكلما أخّرنا الذي نلغيه كان أحسـن، وإذا أردنـا عكس ذلك تكتفي به، فكلما قـدمناه كـان أحسـن.

ويضيف:" والتـقديم ههنا والتأخير فيما يكون ظرفا أو يكون اسما في العناية والاهتمام مثله فيما ذكرت لك في باب الفاعل والمفعول، وجميع ما ذكرت لك من التقديم والتأخير والإلغاء والاستقرار عربي جيـّد كثير، فـمن ذلك قوله عـز وجل: **وَلَـم يَكُـن له كُفُوًا أحد** "[2] فالتقديم والتأخير يشمل حتى الظروف والأسماء، وهي عربي جيـد.

وقد حدد عبد القاهر الجرجاني التقديم على وجهين: " تقديم يقال إنه على نية التـأخير وذلك في كل شيء أقررته مع التقديم على حكمه الذي كان عليه، وفي جنسه الذي كان فيه كخبر المبتدأ إذا قدمته على المبتدأ، والمفعول إذا قدمته على الفاعل كقولك" منطلق زيد" " و" ضرب عمرا زيد " معلوم أن " منطلق" و" عمرا " لم يخرجا بالتقديم عما كانا عليه، من كون هذا خبر مبتدأ ومرفوعا بذلك... وتقديم لا على نية التأخير، ولكن على أن تنقل الشيء من حكم إلى حكم، وتجعل له بابا غير بابه، وإعرابا غير إعرابه... أن

[1]- سيبويه، الكتاب، ج 1، ص 57.

[2] - المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

تنقله عن كونه خبرا إلى كونه مبتدأ[1]" ومن هنا يتبين أن تقديم الشـيء علـى الشـيء ضربان: تقديم على نية التأخير، وذلك في شيء أقر مع التقديم على حكمه الذي كـان عليه، كتقديم الخبر على المبتدأ، أو المفعول على الفاعل، وتقديم لا على نيـة التـأخير ولكن على أن ينقل الشيء عن حكم إلى حكم، ويجعل له إعرابا غير إعرابه، كما فـي اسمين يحتمل كل منهما أن يجعل مبتدأ والآخر خبرا له، فيقدم تـارة هـذا علـى ذاك وأخرى ذاك على هذا، فما علة التقديم في المثال الذي أوردناه؟

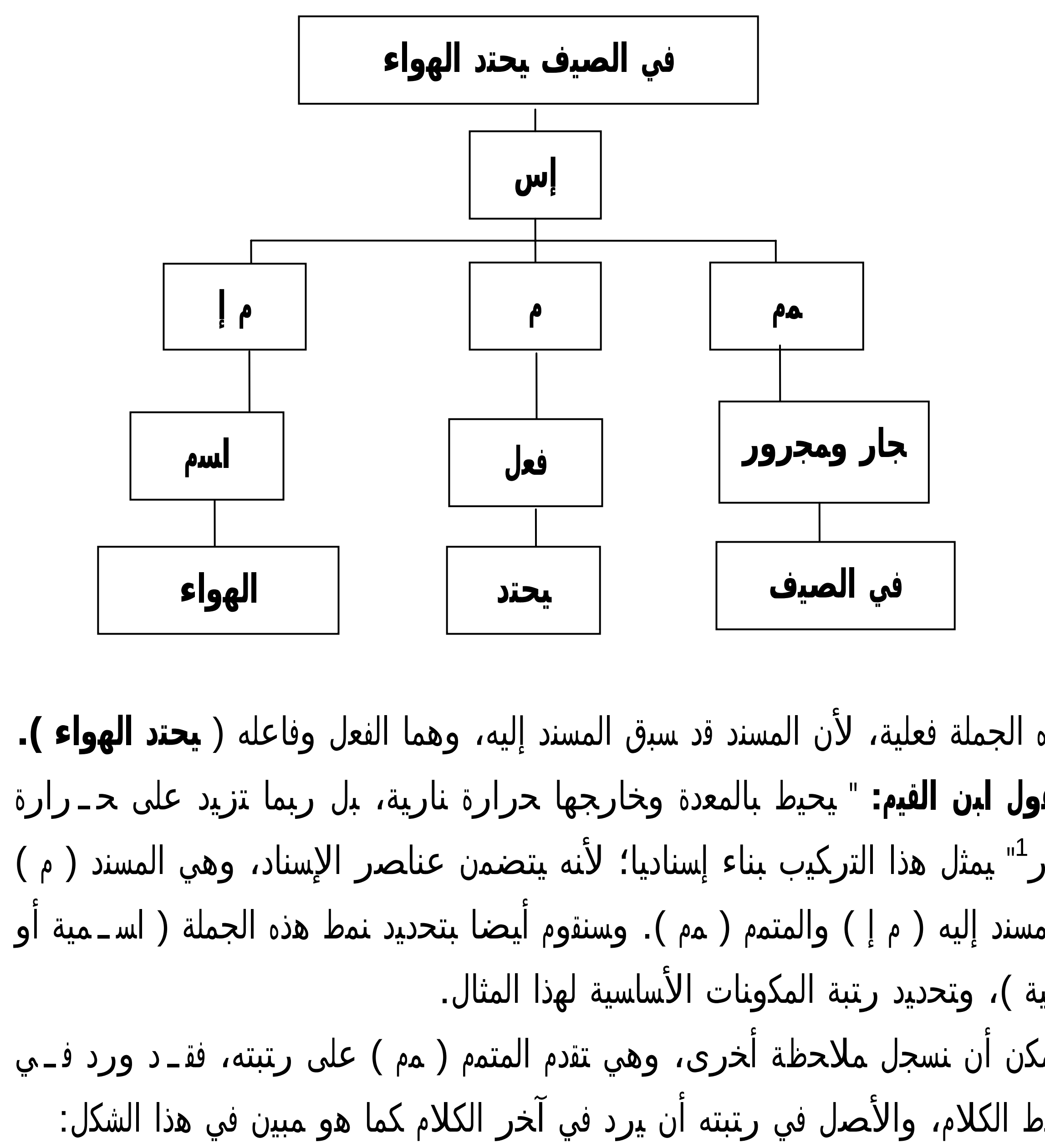
لعل المعنى المتضمن في هذه العبارة هو تأكيد ابن القيم شدة الحرارة فـي الأجـواف وبطون الأرض في فصل الشتاء، والتناقض في آن واحد؛ لأن فصل الشـتاء يعـرف بالبرودة وتدني درجة الحرارة فيه، وإن كان الأمر كذلك فكيف تغور الحرارة في فصل الشتاء؟ فيلاحظ أن التقديم في عبارة ابن القيم هو تقديم على نية التأخير؛ إذ لم يخـرج هذا المتمم المقدمة عن حكمها الذي كانت عليه، وجنسها الذي كانت فيه، فهي حركـة تحويلية للركن اللغوي (متمم- مم -) الذي احتفظ بدوره ووظيفته الدلالية، وحركتـه الإعرابية.

وشبيه هذا المثال قول ابن القيم: " وفي الصيف يحتد الهواء، ويسخن جدا، فتنضـج الثمار وتنحل فضلات الأبدان...[2]" و يمثل أيضا هذا التركيب بنـاء إسنـاديا؛ لأنـه يتضمن عناصر الإسناد التي ينبغي أن تتوفر في التراكيب الأساسية للغـة العربيـة ممثلة في الجمل الفعلية والجمل الاسمية، وعـناصر الإسـناد هـي المسـند (م) والمـسند إليه (م إ) والمتمم (مم) وسنقوم بتحـديد نمـط هـذه الجمـلة (اسمية أو فعلية) وتحديد رتبة المكونات الأساسية لهذا المثال.

---

[1]- عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 106.

[2] - ابن قيم الجوزية، مفتاح دار السعادة، ج 2، ص 52.



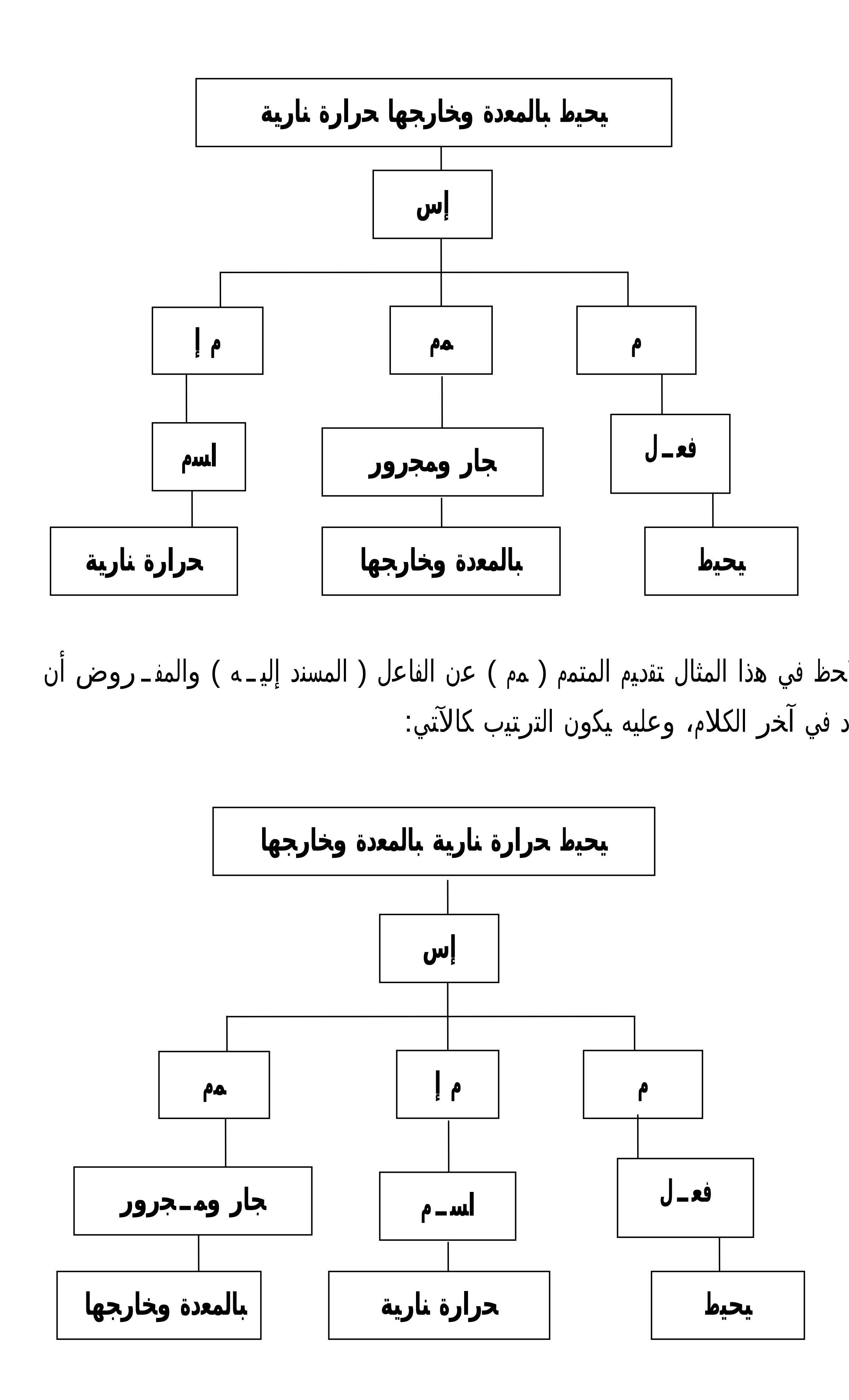
فهذه الجملة فعلية، لأن المسند قد سبق المسند إليه، وهما الفعل وفاعله (**يحتد الهواء).**

ويقول ابن القيم: " يحيط بالمعدة وخارجها حرارة نارية، بل ربما تزيد على حـرارة النار[1]" يمثل هذا التركيب بناء إسناديا؛ لأنه يتضمن عناصر الإسناد، وهي المسند (م) والمسند إليه (م إ) والمتمم (مم). وسنقوم أيضا بتحديد نمط هذه الجملة (اسـمية أو فعلية)، وتحديد رتبة المكونات الأساسية لهذا المثال.

ويمكن أن نسجل ملاحظة أخرى، وهي تقدم المتمم (مم) على رتبته، فقـد ورد فـي وسط الكلام، والأصل في رتبته أن يرد في آخر الكلام كما هو مبين في هذا الشكل:

---

[1] - ابن قيم الجوزية، مفتاح دار السعادة، ج 2، ص 21.



يلاحظ في هذا المثال تقديم المتمم (مم) عن الفاعل (المسند إليـه) والمفـروض أن يرد في آخر الكلام، وعليه يكون الترتيب كالآتي:

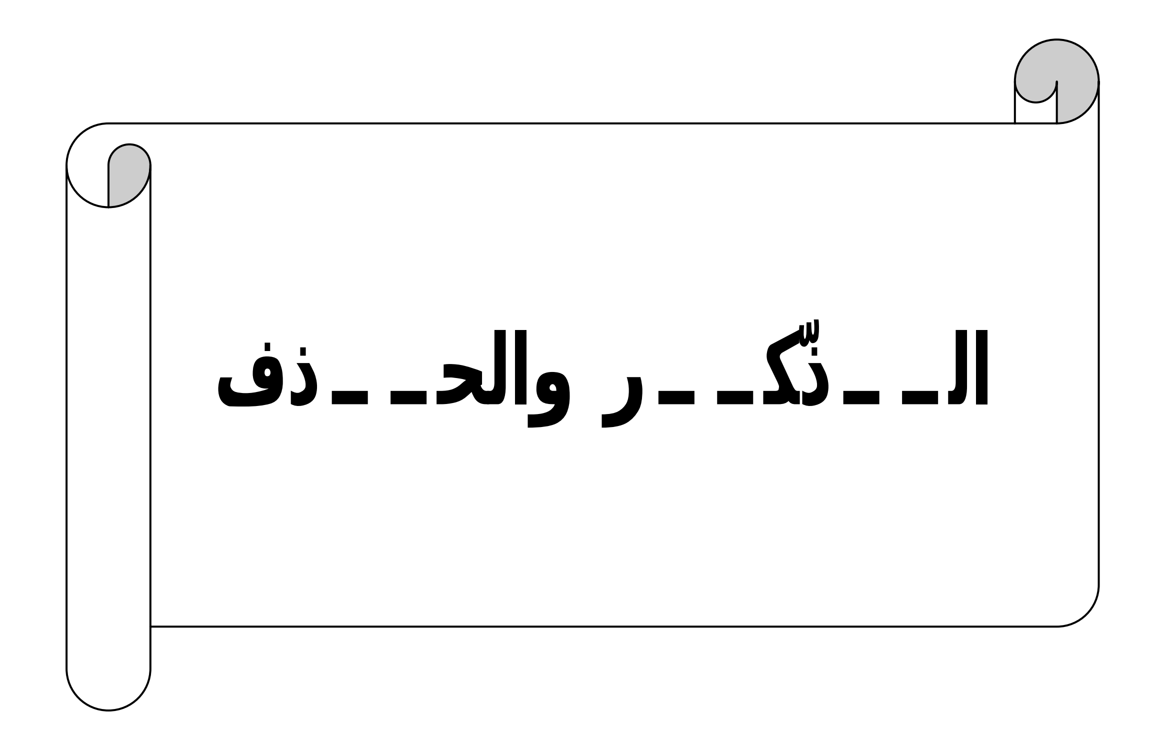
نموذج آخر عن التقديم والتأخير: يقول ابن القيم: " من آياته البـاهرة هـذا الهـواء اللطيف[1]" ما يلاحظ في هذا المثال تقديم الخبر (م) وهو (من آياته البـاهرة) عـن المبتدأ (م إ) وهو (هذا الهواء اللطيف) والمفروض أن ترد الجملة كما يلـي: هـذا الهواء اللطيف من آياته الباهرة.

ومثال آخر: **يقول ابن القيم**: " والأقوال إذا تعـارضت وتعذّر الترجيح، كان دليلا على فسـادها وبطـلانها[2]" يلاحظ في هذا المثال تقـديم الفـاعل (م إ) وهو (الأقوال) عن الفعل (م) تعارضت، ومن سنن ترتيب الجملة الفعلية في اللغة العربية أن تـرد الجملة وفق هذا الترتيب: فعل + فاعل + مفعول به. وعليه فترتيب هذه الجملة يكـون كالآتي: وإذا تعارضت الأقوال... ويظهر جليا أن ابن القيم يميل كثيرا في لغته إلـى التقديم والتأخير، وتتبين قدرته في البـلاغة والبيان، حين يستخدم هذه الغاية المعنوية للتقديم والتأخير في تحقيق هدف آخر، وهو روعة موسيقى العبارة، واكتمـال جمالهـا الفني، ومـراعاة التناسق بين العبارات جميعا.

---

1 - ابن قيم الجوزية، مفتاح دار السعادة، ج 2، ص 33.

[2] المرجع نفسه، ج 3، ص 49.


الـ ـذّكـ ـر والحـ ـذف

الذكـر والحـذف:

*** الذّكـر والحذف:** إن الذّكـر والحذف ثنائية تركيبية تتعلق بظواهر النقص والزيادة في العبارة، وقد جعل منهما القدماء طرفين منحرفين عن وسط هو النمط، أو الأسـاس المثالي، وهو ما أطلقوا عليه اسم المساواة، ويعرف الإمام عـبد القـاهر الجرجـاني الذكـر والحذف، بقوله:" هو باب دقيق المسلك لطيف المأخذ عجـيب الأمر، شبيـ ـه بالسحـر، فإنك ترى بـه ترك الـذكر، أفصح من الذكر، والصمت عن الإفادة، أزيد للإفادة، وتجدك أنطق ما تكون إذا لم تنطق، وأتم ما تكون بيانا إذا لم تبن[1]" وهكذا يتبين أن الذكر والحذف من الأبواب الطريفة في اللغة العربية الذي أتحف أساليبها واكسـبها البلاغة والبيان، وعلى قدر معرفة الكاتب والشاعر للأماكن التي يحسن فيها الـذكر أو الحذف، تبين مكانته في الفصاحة، وامـتلاك ناصية البيان.

*** الحذف:** نسـق من أنساق الأداء يكون العدول عنـه فسـادا، كما في قوله تعـالى:
لا أُقْسم بِيَوم الْقيَامَة * وَلا أُقْسم بِالنفْس اللوامَة (القيامة: 1- 2) ومن الملاحـظ أننا لا نجد جواباً للقسم الذي ابتدأت به السورة، وإنما نجد ما يدل عليه وهو هذه الآيـة فجواب القسم محذوف ويقدره النحاة (لتبعثن) وهذا الحذف يتناسب هو والعجلـة التـي دلت عليه النفس اللوامة وجوها ـ أي جو العجلة - الذي طبعت به السورة، وقد تناوله القدماء ومن بينهم ابن جني، وبينوا أماكنه في اللغة الفنية؛ إذ إنـه يعتـرى " الجملـة والمفردة والحرف، والحركة[2]" فالحذف في رأي ابن جني يعتري الجملـة والمفـردة والحرف، والحركة، وقـد يتناول الحذف أيضا المبتدأ (م إ) وقـد يتناول الخبـر أو الفعل (م) كما يمكن أن يتناول المتمم (مم) وهو يتناول الكلمة والكلمتين، أو العبارة والفقرة...

*** الـذكر:** فهو ما يقابل الحذف، وقد تتمركز فيه عناصر الإبداع؛ إذ لا تقتصر علـى الحذف وحده، ويكثر ذكـر المبتدأ، الضمير، عند الحـديث عـن الصـفات الإلهيـة والأسماء الحسنى، كما جاء في قوله تعالى: **هوَ الـذي لا إلـهَ إلا هـوَ المَلـك**

[1] - عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 146.

[2] - ابن جني، الخصائص، ج 2، 360.

القـدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون هو ا ُ الخالقُ البارئ المصور له الأسماء الحسنى (الحشر:23- 24) فصرح ا تعالى بذكر الضمير ست مرات ليكون لكل اسم من الأسماء الحسنى ترسيخ في نفس سـامعه بارتباطه بمبتدئه المذكور، وفيه توضيح أكبر لتلك الأسماء الحسنى مع هذا الذكر، وهذه الفـائدة المعنوية للذكر تعضدها فائدة موسيقية تتجلى في التناسق الموسـيقي المتـأني منه، وكل هذه الحالات ملاحظة في نصوص ابن القيم من خلال مفتـاح دار السعادة.

يقول ابن القيم: " فانظر الآن إلى النطفة بعين البصيرة، وهي قطرة من مـاء مهـين ضعيف مستقذر، لو مرت بها ساعة من الزمن فسدت وأنتنت، كيف اسـتخرجها رب الأرباب العليم الخبير من بين الصلب والترائب منقادة لقدرته مطيعة لمشيئته... كيـف جمع سبحانه بين الذكر والأنثى وألقى المحبة بينهما، كيف قادها بسلسلة الشهوة والمحبة إلى الاجتماع الذي هو سبب تخليق الولد وتكوينه، كيف قدر اجتماع ذينك الماءين مـع بعد كل منهما عن صاحبه، وساقهما من أعماق العروق والأعضاء، وجمعها في موضع واحد، جعل لهما قرارا مكينا لا يناله هواء يفسده، ولا برد يجمده، ولا عارض يصـل إليه، ولا آفة تتسلط عليه...[1] " يمثل هذا المثال مجموعة من التراكيب الإسنادية، والذي يعنينا منها هو تلك المركبات التي يحذف منها المسند أو المسند إليه أو المتمم.

فجملة (استخرجها رب الأرباب) قد اكتمل فيها أركان الإسناد وهي (م- م إ – مم).

بينما يلاحظ الحذف في هذه الجمل:

- كيف جمع سبحانه بين الذكر والأنثى ...
- كيف قادها بسلسلة الشهوة والمحبة إلى الاجتماع...
- كيف قدر اجتماع ذينك ...

فما هو المحذوف هنا؟ أهو (م) أم (م) أم (مم)؟

ولمعرفة ذلك لابـد من وجود الدليل على المحذوف " وهو أهم شروط الحذف، فلا بـد من وجود قرينة تـدل على العنصر أو العناصر التي يريدها المتكلم، ويسـتغنى عـن

---

[1] - ابن قيم الجوزية، مفتاح دار السعادة، ج 2، ص 6-7.

ذكرها بدلالـة القريـنة[1]" فالقرينة إذن شرط من شروط الحذف، فلا بد من وجودهـا لتدل على العنصر أو العناصر التي يريدها المتكلم، ويستغنى عن ذكرها بدلالة القرينة. فالمحذوف في هذه الجمل هو الفاعل (م إ) وهو " رب الأرباب " كما حذف فعل الأمر " انظر" (م) والقرينة التي تدل عليه هي قوله: " فانظر الآن إلـى النطفـة...كيـف استخرجها رب الأرباب العليم ".

ويمكن تقدير المحذوفات كما يلي:

1 - انظر كيف جمع رب الأرباب سبحانه بين الذكر والأنثى...

2 - انظر كيف قادها رب الأرباب بسلسلة الشهوة والمحبة إلى الاجتماع...

3 - انظر كيف قدر رب الأرباب اجتماع ذينك...

إن الـذكر والحذف من الأبواب الطريفة في اللغة العربية، وهـي خاصـية مـن خصائص لغة ابن القيم، مما أتحـف أساليبها، وأكسبها البلاغة والبيان، وعلـى قـدر معرفة ابن القيم للأماكن التي يحـسن فيها الـذكر أو الحـذف، تبـين مكانتـه فـي الفصاحة، وامتلاك ناصية البيان.

---

[1] - طاهر سليمان حمودة، ظاهرة الحذف في الدرس اللغوي، د ط. الإسـكندرية: 1999، الـدار الجامعية للطباعة والنشر والتوزيع، ص 112.



الاســتثنــاء والقــصــر

الاستثناء والقصر:

عرف ابن مالك في التسهيل الاستثناء والقصر بقوله: " هو المخرج تحقيقا أو تقديرا من مذكور، أو متروك بـ إلا أو ما في معناها، بشرط حصول الفائدة"[1] أو هو" الإخراج بـ إلاّ أو إحدى أخواتها لما كان داخلا في الحكم السابق عليها"[2] فالاستثناء بهذا المفهوم هو المخرج تحقيقا أو تقديرا من مذكور أو متروك بأداة النفي إلا أو ما في معناها، أو بإحدى أخواتها شرط حصول الفائدة، والاستثناء عند أبي الهلال العسكري على" ضربين: أحدهما أن تأتي معنى تريد توكيده والزيادة فيه فتستثني بغيره، فتكون الزيادة التي قصدتها، والثاني استقصاء المعنى والتحرز من دخول النقصان فيه..."[3] فالاستثناء في نظر أبي الهلال العسكري على ضربين: أحدهما توكيد المعنى والزيادة فيه، والثاني استقصاء المعنى والتحرز من دخول النقصان فيه.
أما ابن هشام فيقول: " ويستثنى بـ " ليس" أو بـ " لا يكون" أو بـ " ما خلا " أو بـ " ما عدا " مطلقا، أو بـ إلاّ بعد كلام تام موجب، أو غير موجب، وتقدم المستثنى نحو **فشربوا منه إلا قليلا منهم** (البقرة: 249) وغير الموجب: إن ترك فيه المستثنى منه فلا أثر فيه لـ إلاّ ويسمى مفرغا..."[4] من خلال هذا القول يتضح أن أدوات الاستثناء كثيرة، ويستثنى بـ إلا بعد كلام تام موجب، أو غير موجب وتقدم المستثنى، وغير الموجب إن ترك فيه المستثنى منه، فلا أثر فيه لـ إلا ويسمى مفرغا، ومن معاني الاستثناء إفادة القصر، والقصر تخصيص الموصوف عند السامع بوصف دون ثان، كقولك: زيد شاعر لا منجم، لمن يعتقده شاعرا ومنجما، وللقصر طرق أربعة:

---

[1] - ابن هشام، أوضح المسالك، ط 5. بيروت، د س، دار الجيل للنشر والتوزيع ج 2، ص 249.

[2] - عباس حسن، النحو الوافي، ط 9. القاهرة، د س، دار المعارف للنشر والتوزيع ج 2، ص 316.

[3] - أبو هلال العسكري، كتاب الصناعتين، ص 408.

[4] - ابن هشام، شرح شذور الذهب، د ط. بيروت، د س، دار الجيل للنشر والتوزيع ص 259.

- " **أحدهما**: طريق العطف، كما في قصر الموصوف على الصـفة إفـرادا أو قلبـا حسب مقام السامع: عمـر شاعر لا منجم، وما عمـر منجم بل شاعـر..
- **ثانيهما**: النفي والاستثناء، كما تقول في قصر الموصوف على الصفة إفرادا أو قلبا: ليس زيد إلا شاعرا، أو ما زيد إلا شاعر، وقوله تعالى: **وما محمد إلا رسول** (آل عمران: 144).
- **ثالثها:** استعمال إنّما: كما تقول في قصر الموصوف على الصفة: إنما زيد جاء...

رابعها: التقديم كما تقول في قصر الموصوف على الصفة: تميمي أنا...[1]" ومن خـلال هذا يتّضح أن من معاني الاستثناء إفادة القصر، ولـه طرق أربعـة وهـي: طريـق العطف، النفي والاستثناء، استعمال إنما، التقديم: كما تقول في قصر الموصوف علـى الصفة.

وأمثلة الاستثناء والقصر في مفتاح دار السعادة كثيرة ومستفيضة، ومن ذلك قول ابن القيم: "... إن كمال النفس وسعادتها المستفاد عن الرسل صلوات ا عليهم ليس عندهم اليوم منه حس، ولا خبر، ولا عين، ولا أثر، فهم أبعد الناس مـن كمـالات النفـوس وسعادتها، وإذا عرف ذلك، وأنّه لا بد للنفس من مراد محبوب لـ ـذاته لا تصـلح إلا بـه، ولا تكتمل إلا بحبه وإيثاره، وقطع العلائق من غيره، وأن ذلك هو النهاية وغاية مطلوبها ومرادها الذي إليه ينتهي الطلب، فليس ذلك إلا ا الذي لا اله إلا هـو قـال تعالى: **أَم اتخَذُوا آلِهَةً منَ الأرض هم يَنْشُرون لو كانَ فيهَما آلهَة إلا ا لفَسَدَتا** (الأنبياء: 21-22) وليس صلاح الإنسان وحده وسعادته إلا بذلك، بل وكذلك الملائكة والجـن، وكل حي شاعر لا صلاح له إلا بأن يكون ا وحده إلهه ومعبـوده وغايـة مـراده [2]" والطريق الذي يسلكه ابن القيم في هذه الفقرة هو الاستثناء بأداة النفي " لا " أو " ليس" و" إلا " حتى غدا ذلك واضحا بجـلاء في كتابه، ومن الملاحظ أيضا فـي هذه الأمثلة أن ابن القيم يبـدأ بالأسلوب التقريري المباشر، ويعـ ـدل عنـه بأسـلوب الاستثناء، لا لشيء سوى أن الاستثناء يخدم المعنى من جهتين:

---

[1] - السكاكي، مفتاح العلوم، ط 1. بيروت: 1983، دار الكتـب العلمية للنشـر والتـوزيـع ص 288.

[2] - ابن قيم الجوزية، مفتاح دار السعادة، ج 3، ص 33.

أولا: أن تأتي معنى تريد توكيده والزيادة فيه فتستثني بغيره، فتكـون الزيـادة التـي قصدتها.
ثانيا: استقصاء المعنى والتحرز من دخول النقصان عليه...
وإذا تأملنا هذه الفقرة المقتضبة من نص ابن القيم، فسنجد أن ابن القيم كان يحيط بهذه المعاني الدقيقة، والفروق اللغوية والدلالية لأدوات الاستثناء، وكـل الأدوات الأخـرى ويجيد توظيفها في الكتابة؛ فتغـدو المعاني والألفاظ لا يتجاوز بعضها بعضا، وعنـدما يثبت ابن القيم للقارئ هذه المعاني، وكأنّني به يخاطب من يجهلها، بل وينكرها وهـي الفئة الغالبة من المسلمين في زمانه وفي غير زمانه، أو كأنني به يقدمها لمن سينكرها عليه، وهو إثباته أن لا كمال للنفس ولا سعادة لها إلا بحب الله عز وجل الذي لا إله إلا هو، ولعل هذا الحس الذي أثبتناه لابن القيم تدل عليه أشياء كثيرة منها:
أولا: ما يدل عليه السياق في بداية الكلام؛ إذ يقول: إن كمال النفس وسعادتها المستفاد عن الرسل – صلوات الله عليهم- ليس اليوم منه حس، ولا خبر ولا عين ولا أثر، فهم أبعد الناس من كمالات النفوس وسعاداتها.
ثانيا: تكرار أسلوب الاستثناء في الفقرة السابقة (لا...إلاّ) و(ليس... إلاّ).
ومن أمثلة الاستثناء أيضا في مفتاح دار السعادة ما يلي:
يقول ابن القيم: " من المعلوم بالضرورة أنّه ليس في السماء حمل ولا ثور ولا حيـة ولا عقرب ولا دب ولا كلب ولا ثعلب، إلا أن المتقدمين لما قسموا الفلك إلـى اثنـي عشر قسما، وأرادوا أن يميزوا كل قسم منها بعلامة مخصوصـة: شـبهوا الكواكـب المذكورة في تلك القطعة المعينة بصورة حيوان مخصوص، تشـبيها بعيـدا جـدا "[1]
والطريق الذي يسلكه ابن القيم في هذه الفقرة هو الاستثناء بأداة النفي " ليس " و" لا " وإلا.
ويقول أيضا: " حاجة الناس إلى الشريعة ضرورية فوق حاجتهم إلى كـل شـيء، ولا نسبة لحاجتهم إلى علم الطب إليها، ألا ترى أن أكثر العالم يعيشون بغير طبيـب، ولا

[1] - ابن قيم الجوزية، مفتاح دار السعادة، ج 3، ص 48.

يكون الطبيب إلا في بعض المدن الجامعة... "[1] والطريق الذي يسلكه ابن القيم في هذه الفقرة هو الاستثناء بأداة النفي " لا " و" إلا ".

وإذا تأملنا هذه النماذج المقتضبة من نصوص ابن القيم، فسنجد أنه يحـيط بالمعـاني الدقـيقة، والفروق اللغوية والدلالية لأدوات الاستثناء، وكل الأدوات الأخـرى ويجيـد توظيفها في الكتابة؛ فتغـدو المعاني والألفاظ لا يتجاوز بعضها بعضا، وعندما يثبـت ابن القيم للقارئ هذه المعاني، وكأنّني به يخاطب من يجهلها، بل وينكرها، وهي الفئـة الغالبة من المسلمين في زمانه وفي غير زمانه.

[1] - ابن قيم الجوزية، مفتاح دار السعادة، ج 2، ص 319.



مشاكلة الأساليب القرآنية وتضمين تراكيبه

مشاكلة الأساليب القرآنية وتضمين تراكيبه:

*** مفهوم المشاكلة:** يعرف الدكتور عبد القادر عبد الجليل المشاكلة قائلا:" المشـاكلة **لغة:** المماثلة والموافقة والنظير، **اصطلاحا:** ذكر الشيء بغير لفظه لوقوعه في صحبته وبنيتها تؤكد المدار التكراري[1] " وهي سمة أخرى في مؤلفات ابن القيم؛ حيث يقتـبس من القرآن الكريم أساليبه العالية ويضمن تراكيبه؛ لأن القرآن الكريم يتخيـر حـروف الكلمة وينتقي أصواتها صافية الذوق في مخارجها، لذيذة السماع طيبة المجرى علـى اللسان معتدلة في تأليفها، خفيفة في الفم، نازلة على أحسن هيئة فـي الإيقـاع، قويـة الإيحاء، شديدة البعث لما تتضمنه من المعاني المرادة، والأهداف المقصودة من الآيـة الكريمة.

وهذا الكتاب المقدس الذي لقي من أهله تقديسا، فلا يكادون يدينون بإعجاز كتاب آخر له مثل هـذه المكانة، وقد انفرد به من أساليب لم يألفها أهله، وإن كانوا أهل هذه اللغة التي نـزل بها، ولهم وحدهم الحقّ في التصرف فيها بما تجـعلها طبيعيـة سـهلة عليه، ومنح القرآن الكريم اللغة العربية قوة ورقياً ما كانت لتصل إليه لـولا القـرآن الكريم، بما وهبها ا من المعاني الفياضة، والألفاظ المتطورة، والتراكيـب الجديـدة والأساليب العالية الرفيعة، فأصبحت بذلك محطّ جميع الأنظار، والاقتباس منها منـاط العـز والفخّـار، وغـدت اللغة العربية تتألق وتتباهى على غيرها من اللغـات بمـا حازت عليه من محاسن الجمال وأنواع الكمال.

ومشاكلة الأساليب القرآنية وتضمين تراكيبه واضحة في مفتـاح دار السـعادة فـي مواضع كثيرة، منها: **يقول ابن القـيم:** " أخبر تعالى أن ما قدمت أيديهم سبب لإصابة المصيبة إياهم، وأنّه سبحانه أرسل رسوله وأنزل كتابه[2]" وفي القرآن الكريم ما يشـبه هذا النسق كقوله تعالى: **وَلَـولا أَن تُصيبَهم مصيبَة بِمَا قَـدمَتْ أَيديهم فَيَقُولُوا رَبنَا لولا أَرسَلتَ إِلينَا رَسولاً فَنَتبع آياتكَ وَنكُون منَ الْمؤْمنين** (القصص: 47)

فلنلاحظ العبارات الواردة في النص:

---

[1] - عبد القادر عبد الجليل، الأسلوبية، ط 1. عمان: 2002، دار صفاء للنشر والتوزيع، ص 535.

[2] - ابن قيم الجوزية، مفتاح دار السعادة، ج 3، ص 15.

- قدمت أيديهم: جاءت هذه العبارة تماما كما وردت في الآية الكريمة.
- أرسل: توافـق زمني بين النص والآية الكريمة.

ويقول أيضا: " ولهذا كان من آمن با خالقه ورازقه وربه ومليكه، ولم يؤمن بأنّـه لا إله يعبد، ويحب ويخشى ويخاف غيره، بل أشرك معه في عبادته غيره، فهو كافر بـه مشرك شركا لا يغفره ا [1]" وقريبا من عبارة ابن القيم قوله تعالى: **إن ا لا يَغفـر أن يشْرَكَ بِه** (النساء: 116).

وفي موضع آخر يقول ابن القيم: " فأخبر أن من أحب شيئا سوى ا مثل ما يحـب ا ، فقد اتّخذ من دون ا أندادا[2]" أخذ ابن القيم هذا المعنى من قوله تعـالى: **مـِنَ الناس مَـن يَتَخذ مـن دون ا أنْـدَاداً يحـبوَنُهم كـحب ا** (البقـرة: 165).

ويقول أيضا: " فالتوحيد من أقوى أسباب الأمن من المخاوف، والشـرك مـن أعظـم حصول المخاوف، ولذلك من خاف شيئا غير ا سلط عليه، وكان خوفـه منـه هـو تسليطه عليه، ولو خاف ا دونه، ولم يخفه، لكان عدم خوفه منه وتوكله على ا مـن أعظم أسباب نجاته منه [3]" والملاحظ في هذه العبارة قصـر الفواصـل، وكـل هـذه الفـواصل أفعـال وأسماء، فيلاحظ تكرار الفعل "خاف" ثلاث مرات، وتكـرار كلـمة " المخاوف" مرتان، وكلمة " الخوف " مرتان، وكلها ذات دلالة واحدة، وهي الخـوف. وفي القرآن الكريم ما يشبه هذا النسق كقوله تعالى: **وَكَيفَ أَخَافُ ما أَشْرَكْتُم بِه وَلا تَخَافُونَ إِنكُم أَشْرَكْتُم بِا مَا لم ينزل بِه عَلَيكُم سلْطَاناً فَأي الفَـرِيقَين أَحَق بِالأَمنِ إن كُنْتُم تَعلَمون** (الأنعام: 18).

ويقول أيضا: " تأمل العبرة في وضع هذا العالم وتأليف أجزائه ونظمها علـى أحسـن نظام، وأدلّه على كمال قدرة خالقه وكمال علمه، وكمال حكمته وكمال لطفه... ففي هذا أعظم دلالة وأوضحها على أن العالم مخلوق لخالق حكيم قدير عليم، قدره أحسن تقدير ونظّمه أحسن نظام، وأن الخالق له يستحيل أن يكون اثنين بل إله واحد، لا إله إلا هـو تعالى عما يقول الظالمون والجاحدون علوا كبيرا، وأنّه لو كان في السموات والأرض

---

[1] - ابن قيم الجوزية، مفتاح دار السعادة، ج 3، ص 28.

[2]- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[3]- المرجع نفسه، ص 387.

إله غير ا لفسد أمرهما[1]" اقتبس ابن القيم قوله: " وأنّه لو كان في السموات والأرض إله غير ا لفسد أمرهما " من الآية الكريمة: **لو كانَ فيهِمَا آلِهَـةٌ إلا ا لفَسَـدَتَا فَسبحَان ا رب العَرشِ العَظيم** (الأنبياء: 22).

نموذج آخر: يقول ابن القيم: " ... والطيرة سبب للمكروه على المتطير، فـإذا توكـل على ا ، ووثق به واستعان به لم يصده التطير عن حاجته، وقال: اللهـم لا طيـر إلا طيرك، ولا خير إلا خيرك، ولا إله غيرك، اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت، ولا يذهب بالسيئات إلا أنت، ولا حول ولا قوة إلا بك[2] " وقريب من هذه العبارة قول ا سبحانه وتعالى: **ا ُ لا إله إلاّ هـو الحَي القَيوم لا تأْخُذُه سنَةٌ وَلا نَوم له مَا في السـمَوَات وَالأرض** (البقرة: 55).

وهكذا يقتبس ابن القيم من القرآن الكريم أساليبه العالية ويضمن تراكيبه؛ فأضفى على لغته مسحة خاصة، وهذه توحي بمدى تأثر ابن القيم ببيان القرآن الكريم وتعلقه بأساليبه وإعجازه؛ حيث نجد في النص القرآني ألفاظا وتعبيرات معروفـة مألوفـة يسـتخدمها الأدباء البلغاء من البشر، لكنها تبقى جامدة، أما عندما تتناولها الريشة القرآنية المعجزة فإنّها سرعان ما تـدب فيها الحياة الشاخصة، والحركة المجددة ذات أرواح ومشاهـد حيـّـة.

---

[1] - ابن قيم الجوزية، ج 2، ص 46.

[2] - المرجع نفسه، ج 3، ص 386.



المبحـــث الـــرابع:

الخصائص البـلاغيـــة:

أســـلوب الالتـفـات

أسـ ـ ـلوب الالتـ ـ ـفات:

الالتفـات: تعريفه: ورد في أساس البلاغة مادة (لـ.ف.ت) " لفته عن رأيه: صـرفه وفلان يلفت الكلام لفتا: يرسله على عواهنه لا يبالي كيف جاء[1]" والمعنى الاصطلاحي للالتفات: الانتقال من صيغة إلى أخرى، كالانتقال من خطاب حاضر إلى غائب، أو من مفرد إلى جمع أو من مثنى إلى عكس ذلك.

أنواعـ ـه:

1**- العدد:** يكون فيه الالتفات من الجمع إلى المفرد.

يقول ا تعالى: **لِتُخْرِجَ الناسَ منَ الظلُمَات إلى النور** (إبـراهيم: 01) فالظلمـات جمع، والنور مفرد.

2**- الضمائر:** وهو انصراف المتكلم عن المخاطبة إلى الإخبار، وعن الإخبـار إلـى المخاطبة وما شابه ذلك، ومن طرق الالتفات بالضمائر نجده:

- في الانتقال من التكلم إلى الغيبة: يقول تعالى: **وَمَا أَرسَلْنَا من رَسولٍ إلا بِلسَـانِ قَومه لِيبَينَ لهم، فَيضل مَن يَشاء** (إبراهيم: 04) فقد ورد في الآية انتقال من صيغة التكلم " أرسلنا " إلى الغائب " فيضل ا " ولقد تم العدول إلى صيغة المسـتقبل كـذلك بعدما استعمل صيغة الماضي، والغرض من ذلك هو استحضار الصورة والدلالة على التجدد؛ إذ نجد البيان من الرسل عليهم السلام المتعاقبة عليهم.

- في الانتقال من الخطاب إلى الغيبة: في قوله تعالى: **حَتى إِذَا كُنْـتُم فـي الفُلـك وَجَرَينَ بِهم** (يونس:22) في قوله تعالى: **إن يَشأ يذهبكُم وَيَـأْت بِخَلْـق جَـدي إبرَاهيم وَمَا ذَلِكَ عَلى ا بِعَزيز** (إبراهيم: 19-20).

- فـي الانتقال مـن الغيبة إلى التكـلم: كـقوله تعالى: **سبحَانَ الـذي أَسـرَى بِعَبـْده لَيلا منَ المَسـْجِد الحَرَام إلى المَسجِد الأَقْصَى، الذي بَارَكْنَا حَوله لِنُريه مـن آياتنَا** (الإسراء: 01) ثم التفت ثانيا إلى الغيبة، فقـال: **إنـ ـه هـ ـوَ السـميع البَصـير** (الإسراء: 01) ولقد تطرق العلماء القدامى إلى الالتفات أو أشـاروا إليـه

---

[1] - الزمخشري، أساس البلاغة، تح عبد الرحمن محمود، د ط. لبنان: 1979، دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع، مادة لفت.

وكل تناوله تحت المبحث الذي يراه، فمنهم من جعله تحت مبحث علم البيان، ومنهم من جعله تحت مبحث علم المعاني، وآخر جعله تحت مبحث علم البديع، وكذلك اختلفوا في تسميته.

ويعرف أبو هلال العسكري الالتفات بقوله: " الالتفات على ضربين، فواحد أن يفرغ المتكلم من المعنى، فإذا ظننت أنّـه يريد أن يجاوزه يلتفت إليه، فيذكره بغير ما تقـدم ذكره به ... والضرب الآخر أن يكون الشاعر (أو الكاتب) آخذا في معنـى، وكأنـه يعترضه شك أو ظن أن رادا يرد قوله أو سائلا يسأله عن سببه، فيعود راجعا إلى مـا قدمه، فإما أن يؤكـده أو يذكر سببه أو يزيل الشك عنه..[1]" فالالتفات في رأي أبـي هلال العسكري على ضربين، أحدهما أن يفرغ المتكلم من المعنى، الثـاني أن يكـون الشاعر (أو الكاتب) آخذا في معنى، وكأنه يعترضه شك أو ظن أن رادا يرد قوله أو سائلا يسأله عن سببه، فيعود راجعا إلى ما قدمه، إما أن يؤكـده أو يذكر سببه أو يزيل الشك عنه، ويحدده ابن رشيق بقوله: " هو الاعتراض عنـد قـوم، وسـماه آخـرون الاستدراك حكاه قدامـة، وسبيله أن يكون الشاعر أخذ في معنى ثم يعرض له غيـره فيعدل عن الأول إلى الثاني، فيأتي به، ثم يعود إلى الأول من غير أن يختل في شـيء مما يشد الأول...[2]" ومعنى كلامه هذا أن للالتفات مترادفات أخرى، وهي: الاعتراض الاستدراك، وسبيله أن يكون الشاعر أخذ في معنى ثم يعرض له غيره، فيعـدل عـن الأول إلى الثاني، فيأتي به، ثم يعود إلى الأول من غير أن يختل في شيء ممـا يشـد الأول، ومن أمثلة الالتفات في القرآن الكريم قوله تعالى في سورة الفاتحة: **الحَمد ـ رب العَالمين إيـاكَ نَعبد وَإياكَ نَستَعين** (الفاتحة: 1-2-3-4).

وقـال الزمخشري في تفسير هذه السورة: " فـإن قلت: لم عدل عن لفـظ الغيبة إلـى الخطاب؟ قلت: هذا يسمى الالتفات في علم البيان، قد يكون من الغيبة إلى الخطـاب ومن الخطاب إلى الغيبة، ومن الغيبة إلى المتكلم، كقوله **حَتى إذَا كُنْـتُم فـي الفُلْـك**

---

[1] - أبو هلال العسكري، كتاب الصناعتين، ص 392.

[2] - ابن رشيق القيرواني، العمدة، تح محمد بن عبد القادر أحمد عطـا، د ط. بيـروت، د س، دار الكتب العلمية للنشر والتوزيع، ج 2، ص 45.

وَجَرَيْنَ بِهِم (يونس: 22) وقوله: **وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ** (فاطر: 9)"[1] وهذا هو تفسير الزمخشري لهذه السورة.

والذي يميز أسلوب الالتفات عند ابن القيم، أنه كثيرا ما يكون آخذا في معنى ثم يلتفت إلى القارئ فجأة ليسأله أو يطلب منه شيئا أو يحذره؛ فينتقل بذلك من الكلام عن الكون وخلق الإنسان والجبال والشمس والقمر ... فيخاطب فجأة القارئ، إما بإسداء النصائح أو ينهال عليه بسيل من الأسئلة، وأمثلة الالتفات في مفتاح دار السعادة كثيرة ومستفيضة، **يقول ابن القيم**: " أما نحن فلا يلزمنا شيء من هذه اللوازم من الطرفين فإنّا لم نسلك واحدا من الطريقين، فلا سبيل لإحدى الطائفتين إلى إلزامنا بلازم واحد باطل و الحمد، فمن رام ذلك فليبده [2]" فالالتفات وارد في العبارة الأخيرة، وهي قوله " فمن رام ذلك فليبده " حيث تم الانتقال من صيغة التكلم " نحن فلا يلزمنا و" فإنا لم نسلك" إلى الغائب " رام ذلك فليبده".

وشبيه هذا المثال: يقول ابن القيم:" وننبه من مصالح النار على خلة صغيرة القدر، عظيمة النفع، وهي في هذا المصباح الذي يتخذه الناس؛ فيقضون به من حوائجهم ما شاؤوا من ليلهم، ولولا هذه الخلة لكان الناس نصف أعمارهم بمنزلة أصحاب القبور، فمن كان يستطيع كتابة أو خياطة أو صناعة أو تصرفا في ظلمة الليل الداجي؟ [3]" يظهر الالتفات في العبارة الأخيرة، وهي قوله " يستطيع " حيث تم الانتقال من صيغة التكلم " ننبه " إلى الغائب " يستطيع".

ومن أمثلة الالتفات أيضا في مفتاح دار السعادة قوله: " ... فأخبر أنّه يتعالى عن الأمر بالفحشاء، بل أوامره كلها حسنة في العقول، مقبولة في الفطر، فإنّه أمر بالقسط لا بالجور، وبإقامة الوجوه له عند مساجده لا لغيره، وبدعوته وحده مخلصين له الدين لا بالشرك، فهذا هو الذي يأمر به تعالى لا بالفحشاء، أفلا تراه كيف يخبر بحسن ما

---

[1] - الزمخشري، الكشاف، تح محمد عبد السلام شاهين، ط 1. بيروت: 1995، دار الكتب العلمية للنشر والتوزيع، ج 1، ص 13-14.

[2] - ابن القيم، مفتاح دار السعادة، ج 3، ص 15.

[3] - المرجع نفسه، ج 2، ص 76.

يأمر به ويحسه[1] " فالالتفات وارد في العبارة الأخيرة وهي قوله " أفلا تراه " حيث تـم الانتقال من صيغة الغائب " أمر " إلى المخاطب" أفلا تراه " والملاحظة الثانيـة هـي تحويل في زمن الفعل؛ أي من الزمن الماضي" أمر" إلى المضارع " تراه".

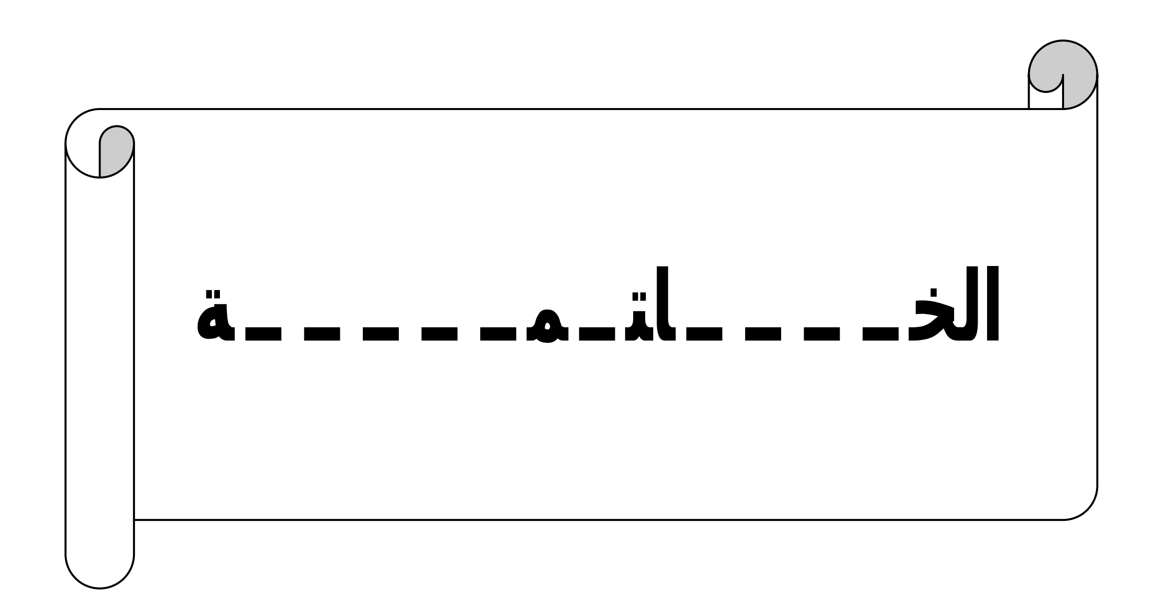
ومثال آخر: يقول ابن القيم: "... فنزه نفسه سبحانه وباعدها عن هذا الحسبان، وأنـه يتعالى عنه ولا يليق به لقبحه، ولمنافاته لحكمته وملكه وإلهيته، أفلا ترى كيف ظهـر في العقل الشهادة بدينه وشرعه وبثوابه وعقابه ... فقد تطابقت شهادة العقل والـوحي على توحيده وشرعه، والتصديق بوعده ووعيده [2]" فالالتفات وارد في العبـارة، وهـي قوله " أفلا ترى " حيث تم الانتقال من الغيبة " نزه " إلى الخطاب " أفلا تـرى " ثـم التفت ثانية إلى الغيبة فقال" تطابقت".

إن القارئ لمفتاح دار السعادة يلاحظ أن ابن القيم يكثر من الالتفات فـي نصوصـه ولعل السبب في ذلك هو التفنن والانتقال من أسلوب إلى آخر، لما في ذلك من تنشـيط السامع واستجلاب صفائه، واتسـاع مجاري الكلام، وتسهيل الوزن والقافية لأن الكلام إذا جاء على أسلوب واحد وطال حسن تغيير الطريقة.

---

[1] - ابن قيم الجوزية، مفتاح دار السعادة، ج 2، ص 335.

[2] - المرجع نفسه، ص 340.


الخـــــاتـمـــــــــة

خاتـمة: وبعد هذا الجهد المضني الذي بذلته في خضم هذا البحث، فإني توصلت إلى نتائج من أهمها ما يلي:

1- إن الإمام ابن القيم – رحمه ا نشأ في أسرة ذات علم وفضل، وكانـت السـبب الرئيسي في تكوين شخصيته العلمية.

2- بدأ يشتغل بالعلم، ويكب على تحصيله في السن السابعة.

3- أما من خلال دراستي لكتاب " **مفتاح دار السعادة** " فقد سجلت النقاط التالية:

أ - إن موضوع الكتاب يدور حول العلم والإرادة.

ب - إن منهج ابن القيم فيه متميز، وقد كشفت عن جوانب مهمة من نصه ومميزاته.

ج – إن كتاب مفتاح دار السعادة يعتبر مرجعا أساسيا في علم أصـول الفـقه.

أمـا عن خصائص لغة ابن القـيم في مفتاح دار السعادة، وهي لـب دراسـتنا، فقـد سجلت النقاط التالية:

أولا: الخصائص الأسلوبية: يتميز أسلوب ابن القيم في مفتاح دار السعادة بما يلي:

- **الاستطراد**: وهي خاصية عـرف بها ابن القيم واشتهرت في أبحاثه، فكان إذا بحث مسألة استرسل في الكلام واستطرد فيها، حتى يخرج عن موضـوعه الأصـلي إلـى موضوع آخر، قد يكون أنفع للناس من المسألة المبحوثة فيها أصلا، وهذا مماّ يدل على غـزارة فكـره، وعلى جـوده بعلمـه.

- **أسلوب الحوار**: استخدم ابن القيم أسلوب الحوار في غـالب مناقشته لخصومه حتى يعطي حيوية أكثر للموضوع، ويجعل القارئ يتابعه باهتمام وتـركيز، ويشعر وكـأنّه حضر مجلس مناضرة، وقد تقابل الخصمان؛ فأدلى كل منهما بحجته، وهـذه خاصية بارزة في مواضع كثيرة في مفتـاح دار السعـادة.

- **الأسلوب الأدبي**: لجأ ابن القيم في كتابه إلى الأسلوب الأدبي، ففيه السجع وسـائر المحسنات، لكن ذلك بقـدر، كما أنّه لا يكون منه في كلّ حـال، وإنّمـا فـي مقـام مخصوص، وهو بصورة واضحة لا يلجأ إلى الأسلوب الحافل بالمحسنات إلا في مقدمة كتابه، أو مقدمات بعض أبحـاثه.

- **الأسلوب العلمي**: إن الأسلوب العلمي خاصية من خصائص أسـلوب ابـن القـيم ويظهر في مقام مخصوص في مقدمة كتابه، أو مقدمات بعض أبحاثه.

- **السجع:** إن السجع خاصية مـن خصائص أسلوب ابن القيم، وتبدو عباراته جزلـة قوية تمتاز بالوضوح والبعد عن الغرابة، ويتميز بطول النفس والمقـدرة الفائقـة فـي الإقناع، ونراه إذا تناول مسـألة صال فيها وجال، وذلك بأسـلوب مشـوق وجـذاب حافل بالسـجع.

- **المعرفة اللغوية:** كـان ابن القيم يتمتّع بمعرفة لغوية لا تضاهى؛ حيث يبـدو فـي أسلوبه أثر ثقافته الواسعة، وعلى الرغم من أنّه فقيه وأصولي، إلا أنّه على دراية حتى بأبسط الأمور؛ فلقد كان إذا عرضت له مسألة لغوية لم يتركها حتى يقتلـها بحثـا.

- **المعرفة النحوية**: كان ابن القيم يتمتع بمعرفة نحوية، فهو عالم موسوعي لما حبـاه ا من قوة البصيرة ونفاذ الذهن؛ حيث كان إذا عرض لمسألة متصـلة بالقـواعد النحوية، صال فيها وجال، كأنه عالم متخصص مع حـسن توجيه.

- الاقتباس من الشعر: كان ابن القيم يحفظ الكثير من الشعر، واستطاع أن يستحضر ما يتناسب مع الموضوع الذي يتكلم فيه، حتى يقع استشهاده في موضعه، ووضعه في مناسبات من عباراته توافقه وتليـق به، ولكنه شعرا علميا لا أدبيا، ويقع في موضعه.

<u>ثانيا: الخصائص اللغوية</u>: ومن خصائص لغة ابن القيم مـن خـلال مفتـاح دار السـعادة ما يلي:

أولا: النظام الصوتي والدلالي: وقد سجلت في هذا الجانب النقاط التالية:

- اتسمت الأبنية في مستواها الإفرادي، وفـي مسـتواها التركيبـي بحسـن التـأليف والانسجام بين الحروف والأصوات، وبين المفردات والتراكيب التي ترتبط بها.

فمن حيث المستوى الإفرادي، جاءت الكلمات حسنة التأليف؛ لأنهـا امتزجـت فيهـا الحروف المتباعدة التي تكون الجهاز الصوتي، وقد قسمناه إلى ثلاثة أقسام:

1- القسم الأعلى: والذي يضم حروف الحلق واللهاة.

2 – القسم الأوسط: ويضم الحروف الطبقية والحروف الغارية والحروف اللثوية.

3- القسم الأدنى: ويضم بقية المخارج.

- اتسمت الكلمات في مستواها الإفرادي بحسن التأليف؛ لأن أصواتها جمعت بين الشدة والرخاوة والقوة والضعف أو اللين تبعا لمدلول الكلمة..

- إن مصدر الإثارة والتأثير في الكلمات في مفتاح دار السعادة نابع من أمرين اثنين:

أ - إيحاءاتها الدلالية.

ب- إيحاءاتها الصوتية، وطبيعة الحروف المكونة لهذه الكلمات.

- اختيار ابن القيم للفواصل المتناسقة، والأوزان المتجانسة بين التراكيب؛ إذ تمتاز نصوصه بالتماثل بين تركيبين متتاليين أو أكثر من حيث طول النفس أو قصره، وهو ما يسمى عند علماء البلاغة بأسلوب السجع والازدواج.

ثانيا: النظام الصرفي: يلاحظ في هذا الفصل بجلاء أن ابن القيم كثير العناية بتوظيف كلمات القرآن الكريم في نصوصه، وتطعيم لغته بألفاظه، وتوظيف كلمات القرآن الكريم ظاهرة بارزة يدركها بسهولة كل متصفح لكتاب مفتاح دار السعادة، ويدركها بسهولة كل من كانت له دراسة في القرآن الكريم، أو كان يستظهره...

- لم يقتصر ورود هذه الألفاظ في نصوص معينة كالنصوص الدينية فحسب، بل إنها موظفة في كل المواضيع: الوصف...

- الترادف: ومن الظواهر التي سجلناها أيضا في البحث هي ظاهرة الترادف؛ حيث يورد ابن القيم العديد من المترادفات للمسمى الواحد رغبة منه في:

- إظهار براعته اللغوية، وتمكنه من أسباب البيان اللغوي...
- مراعاة السجع للتوسع في الكلام، وتلافي تكرار نفس اللفظ في الفقرة الواحدة.

- الاشتقاق: وهي ظاهرة أخرى من الظواهر الصرفية البارزة في مفتاح دار السعادة وقد سجلنا خاصتين من خصائص الاشتقاق في مفتاح دار السعادة:

- اشتقاق مصادر وأفعال من جواهر الألفاظ.
- اشتقاق الصيغ الدقيقة للمعاني الدقيقة.

ثالثا: نظام التراكيب: ما يسجل على هذا الجانب:

- التقديم والتأخير: فعناصر الإسناد قد يتقدم بعضها على بعض، فتارة يقدم ابن القيم المسند كركن أول، وتارة يقدم المسند إليه، وتارة أخرى يقدم المتمم (مم) ولكن ابن القيم في جميع هذه الحالات يقتضي في نظمها آثار المعاني، ويرتبها في كلامه على حسب ترتب المعاني في النفس، وتتبين قدرته في البلاغة والبيان، حين يستخدم هذه الغاية المعنوية للتقديم والتأخير في تحقيق هدف آخر، وهو روعة موسيقى العبارة واكتمال جمالها الفني، ومراعاة التناسق بين العبارات جميعا.

- **الذكـر والحذف**: فقد يحذف ابن القيم المبتدأ ويذكر الخبر، وقد يذكر المبتدأ (م إ) ويستغني عن ذكر الخبر (م) وقد يتناول الحذف المتمم (مم).

وفي أحيان أخرى يحذف ابن القيم (م) و(م إ) حينما يدل عليهما دليل أو قرينة من القرائن، وعلى قدر معرفة ابن القيم للأماكن التي يحـسن فيها الـذكر أو الحذف، تبين مكانته في الفصاحة، وامتلاك ناصية البيان.

- **الاستثناء والقصر**: ظاهرة أخرى جلية في مفتاح دار السعادة؛ إذ كثيرا ما يسـتهل معنى بأسلوب الاستثناء، ويعدل عن الأسلوب التقريـري المباشـر؛ أو العكـس؛ لأن الاستثناء يخدم المعنى من وجهين:

أ- أن يأتي معنى يريد توكيده والزيادة فيه فيستثنى بغيره، فتكون الزيادة التي قصدها.

ب- استقصاء المعنى والتحرز من دخول النقص فيه.

- **مشاكلة الأساليب القرآنية وتضمين تراكيبه**: وهي من الظواهر الأخرى التي يمكن أن نسجلها، وهي ظاهرة واضحة في مفتاح دار السعادة في مواضع كثيرة؛ حيث يقتبس ابن القيم من القرآن الكريم أساليبه العالية ويضمن تراكيبه؛ فأضفى على لغته مسـحة خاصة، وهـذه توحي بمدى تأثر ابن القيم ببيان القـرآن الكـريم، وتعلقـه بأسـاليبه وإعجازه.

رابعا: الخصائص البلاغية: وقد سجلنا في هذا الجانب ظاهرة، وهي**:**

أسلوب الالتفات: إن القارئ لمفتاح دار السعادة يلاحظ أن ابن القيم يكثر من الالتفات في نصوصه، ولعل السبب في ذلك التفنن والانتقال من أسلوب إلى آخر، لما في ذلـك من تنشيط السامع واستجلاب صفائه، واتساع مجاري الكلام، وتسهيل الوزن والقافيـة لأن الكلام إذا جاء على أسلوب واحد وطال، حسـن تغييـر الطريقـ ـة.

اقتراحات: وفي الختام، أوجه إلى طلبة هذا الشأن الاقتراحات التالية:

- متابعة الموضوع، وذلك باستخراج الكنـوز العلمية من بقيـّة مؤلفات ابـن القـيم رحمـه ا .
- اختـيار هذا اللّون من الدراسة في البحث، وذلـك باستقـ ـراء القواعـد الفقهيـة والمسائل العلميـة من أمـات الكتـب عامـة، ومـن مؤلفـات ابن القيـم خاصـة.

- إثـ ـراء هـذا الفـن، بإخـراج مخطوطات ابن القيـم من غياهـب الخـ ـزانات إلى نـور المطبوعات، وتحقيقها تحقيقـا علميا دقيقـا، حتى يعـم النّـفع، وتنشـ ـر الفـائدة.

وفـ ـي الختـام:

لا يسعني في هذا المقام إلاّ التضرع إلى ا عـز وجـلّ شاكرين له على ما من علينا من صواب وتوفيق، مستغفرينه على ما وقع لنا مـن زلـ ـة وخطأ بسبب عجزنا وتقصيرنا، وضعف قوتنا، وقلّة بضاعتنا.


فهرس الآيات القـرآنية

فهرس الآيات القرآنية الواردة في البحث:

135	1	38	قلنا اهبطوا منها جميعا	
479	1	38	فإما يأتينكم مني هدى	
479	1	46	الذين يظنون أنهم ملاقـو ربهم	
150	1	61	اهبطوا مصرا فإن لكم ما سألتم	
29	3	62	إن الذين آمنوا والذين هادوا	
344	1	67	أتتخذنا زهوا	
231	1	67	أعوذ با أن أكون من الجاهلين	
325	1	89	فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به	
325	1	90	بئسما اشتروا به أ نفسهم	
346	2	102	ويتعلمون ما يضرهم	
323	1	102	ولقد علموا لمن اشتراه	
318	1	105	وا يختص برحمته من يشاء	
318	1	118	وقال الذين لا يعلمون	
202	1	121	الذين أتيناهم الكتاب	
377	3	123	واتقوا يوما لا تجزي نفس	
510	1	143	لتكونوا شهداء على الناس	
381	2	143	وما جعلنا القبلة التي كنت عليها	
381	2	143	وإن كانت لكبيرة	
382	2	144	قد نرى تقلب وجهك	
351	1	145	وإن الذين أوتوا الكتاب	
323	1	146	الذين آتيناهم الكتاب	
454	1	150	لئلاّ يكون للناس حجة	
227	1	151	كما أرسلنا فيكم رسولا منكم	
23	2	164	إن في خلق السموات والأرض	
28	3	165	ومن الناس من يتخذ من دون ا أندادا	
294	1	171	ومثل الذين كفروا	

	صم بكم عمي فهم لا يعقلون	171	1	316
	ولكن البر من آمن با	177	1	481
	ولكم في القصاص حياة	179	2	526
	وتزودوا فإن خير الزاد التقوى	197	1	124
	ربنا أتنا في الدنيا حسنة	201	1	397
	وا يهدي من يشاء	213	1	235
	كتب عليكم القتال	216	2	346
	قل فيهما إثم كبير	219	2	345
	قال الذين يظنون أنهم ملاقو ا	249	1	479
	من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه	254	3	377
	ا ولي الذين آمنوا	257	1	232
	ربي الذي يحيي ويميت	258	3	169
آل عمران	شهد ا أنه لا اله إلا هو	18	1	219
	فإن حاجوك فقل أسلمت	20	1	453
	وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين	20	1	351
	وا بصير بالعباد	20	1	473
	ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا	23	1	351
	قل إن كنتم تحبون ا	31	1	488
	ويعلمه الكتاب والحكمة	48	1	240
	ذلك نتلوه عليك من الآيات	58	1	204
	يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات ا	70	1	323
	كونوا ربانيين	79	1	405
	ومن يبتغ غير الإسلام دينا	85	3	26
	كيف يهدي ا قوما كفروا	86	1	324
	إن أول بيت وضع للناس	98	1	458
	من أهل الكتاب أمة قائمة	113	1	352

السورة	الآية	رقمها	عدد	الصفحة
	وسارعوا إلى مغفرة	133	2	514
النســاء	إنّما التوبة على ا الذين	17	1	320
	وليست التوبة للذين	18	2	249
	ومن لمن يستطع منكم طولا	25	2	362
	وا يريد أن يتوب عليكم	27	2	362
	إن ا لا يظلم الناس مثقال ذرة	40	2	548
	ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا	44	1	351
	يا أيها الذين أوتوا الكتاب	47	1	351
	ولا يظلمون فتيلا	49	2	543
	بل طبع ا عليهم بكفرهم	55	1	341
	يا أيها الذين آمنوا أطيعوا ا	59	1	436
	ومن يطع ا والرسول	69	1	293
المــائدة	وإذا حللتم فاصطادوا	2	1	177
	اليوم أكملت لكم دينكم	3	1	366
	يسألونك ماذا أحلّ لهم	4	1	236
	يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم	6	2	367
	يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين	8	2	443
	قد جاءكم من ا نور	15	1	232
	يهدي به ا من اتبع رضوانه	16	1	415
	إنما يتقبل ا من المتقين	27	1	303
	فبعث ا غرابا	31	2	139
	ومن أحياها فكأنما	32	3	207
	سماعون للكذب	41	1	296
	لولا ينهاهم الربانيون	43	1	405
	يا عيسى ابن مريم اذكر نعمتي	110	1	240

545	2	118	إن تعذبهم فإنهم عبادك	
28	3	1	الحمد الذي خلق السموات	**الأنعـــام**
324	1	19	أئنكم لتشهدون أن مع ا آلهة	
328	1	27	يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا	
323	1	33	قد نعلم أنه ليحزنك الذي يقولون	
230	1	35	فلا تكونن من الجاهلين	
230	1	37	ولكن أكثرهم لا يعلمون	
317	1	39	والذين كذبوا بآياتنا	
5	3	54	وإذا جاءك الذين يؤمنون	
496	2	65	قل هو القادر على أن يبعث	
309	1	71	قل أندعو من دون ا ما لا ينفعنا	
6	3	6	فلنسألن الذين أرسل إليهم	**الأعـراف**
137	1	12	قال ما منعك أن لا تسجد	
167	1	13	أنا خير منه خلقتني من نار	
128	1	13	اهبط منها فما يكون لك	
130	1	20	ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة	
129	1	21	وقاسمهما	
130	1	22	ألم أنهكما عن تلكما الشجرة	
155	1	24	اهبطوا بعضكم لبعض عدو	
151	1	24	ولكم في الأرض مستقر ومتاع	
335	2	28	وإذا فعلوا فاحشة	
335	2	29	قل أمر ربي بالقسط	
481	1	33	قل إنما حرم ربي الفواحش	
31	3	33	وأن تشركوا با ما لم ينزل	
63	2	54	إن ربكم ا الذي خلق السموات	

198	2	54	ألا له الخلق والأمر	
224	1	2	إنما المؤمنون الذين إذا ذكر ا	**الأنفـ ـال**
230	1	22	إن شر الدواب عند ا	
295	1	23	ولو علم ا فيهم خيرا لأسمعهم	
108	1	37	ليميز ا الخبيث من الطيب	
26	2	42	ليهلك من هلك عن بينة	
207	1	50	ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا	
177	1	5	فإذا انسلخ الأشهر الحرم	**التـ ـوبة**
238	1	41	انفروا خفافا وثقالا	
435	1	46	ولو أرادوا الخروج لأعدوا له	
296	1	47	لو خرجوا فيكم ما زادوكم	
197	1	69	كالذين من قبلكم كانوا أشد	
271	1	73	يا أيها النبي جاهد الكفار	
328	3	80	استغفر لهم أو لا تستغفر	
328	3	84	ولا تصل على أحد منهم مات	
325	2	111	إن ا اشترى من المؤمنين	
526	1	120	ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ	
237	1	122	وما كان المؤمنون لينفروا كافة	
343	1	124	وإذا ما أنزلت سورة	
54	2	5	هو الذي جعل الشمس ضياء	**يـ ـونـ ـس**
34	2	22	هو الذي يسيركم في البر	
192	1	25	وا يدعو إلى دار السلام	
177	1	41	وإن كذبوك فقل لي عملي	
187	1	45	قد خسر الذين كذبوا بلقاء ا	
370	1	57	يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة	
347	1	20	ما كانوا يستطيعون السمع	**هـ ـ ـ ـود**

	إني أعظك أن تكون من الجاهلين	46	1	231
	يا هود ما جئتنا ببينة	53	1	326
	إني توكلت على ربي	56	2	485
	وأما الذين سعدوا ففي الجنة	108	1	164
	ولو شاء ربك لجعل الناس	118	2	292
يوسـف	ولما بلغ أشده آتيناه حكما	22	1	239
	كذلك لنصرف عنه السوء	24	1	277
	وإلا تصرف عني كيدهن	33	1	344
	إن النفس لأمارة بالسوء	53	3	7
	اجعلني على خزائن الأرض	55	1	439
	كذلك كدنا ليوسف	76	1	521
	وما أكثر الناس ولو حرصت	103	1	460
	إن هو إلا ذكر للعالمين	104	1	204
	وكأين من آية في السموات	105	2	109
	قل هذه سبيلي	108	1	293
	لقد كان في قصصهم	111	1	544
الـرعـد	ا الذي رفع السموات	2	2	64
	وفي الأرض قطع متجاورات	4	2	32
	إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون	4	2	66
	أنزل من السماء ماء	17	1	249
	أفمن يعلم أنما أنزل إليك	19	1	222
	سلام عليكم بما صبرتم	24	1	366
	قل كفى با شهيدا	43	1	349
إبـراهيم	أفي ا شك فاطر السموات	10	2	64
	ويضل ا الظالمين	26	3	6
	اجتثت من فوق الأرض	26	2	112

	يثبت ا الذين آمنوا بالقول الثابت	27	1	207
	وأنزل من السماء ماء	32	2	202
	وإن تعدوا نعمة ا	34	2	422
	إن الإنسان لظلوم كفار	34	2	209
	رب اجعلني مقيم الصلاة	40	2	302
	وقد مكروا مكرهم	46	3	277
الحجـر	فاخرج منها فإنك رجيم	34	1	154
	قال ربي فأنظرني إلى يوم يبعثون	36	1	322
	إن عبادي ليس لك عليهم سلطان	42	1	277
	لا يمسهم فيها نصب	48	1	126
	وإن كان أصحاب الأيكة	78	1	523
النحـل	وسخر لكم الليل والنهار	12	3	179
	إن في ذلك لآية لقوم يذكرون	13	2	66
الإسـراء	سبحان الذي أسرى بعبده	1	1	110
	إنه كان عبدا شكورا	3	2	302
	وجعلنا آية النهار مبصرة	12	1	326
	وكل إنسان ألزمناه طائره	13	3	275
	وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا	15	1	209
	وقضى ربك ألا تعبدوا إلاّ إياه	23	2	333
	ولا تقربوا الزنا	32	2	329
	إن السمع والبصر والفؤاد	36	1	320
الكهـف	ولا تطع من أغفلنا قلبه	28	1	312
	واضرب لهم مثلا رجلين	32	1	150
	ولولا إذا دخلت جنتك	39	1	140
	وحشرناهم فلم نغادر منهم أحدا	47	2	212
مـريم	وإني خفت الموالي من ورائي	5	1	263

200	3	9	وقد خلقتك من قبل		
536	1	30	إني عبد ا آتاني الكتاب		
210	1	38	أسمع بهم وأبصر يوم يأتونا		
6	3	68	فوربك لنحشرنهم والشياطين		
213	1	85	يوم نحشر المتقين إلى الرحمن		
377	3	87	لا يملكون الشفاعة		
456	1	5	الرحمن على العرش استوى	**طـــه**	
513	1	39	وألقيت عليك محبة مني		
308	1	49	فمن ربكما يا موسى		
105	3	50	الذي أعطى كل شيء خلقه		
81	2	53	الذي جعل لكم الأرض مهدا		
345	1	74	فإن له جهنم لا يموت فيها		
224	1	75	ومن يأته مؤمنا قد عمل الصالحات		
229	2	21	أم اتخذوا آلهة من الأرض	**الأنبيـاء**	
338	2	22	لو كان فيهما آلهة إلا ا		
545	2	23	لا يسأل عما يفعل		
26	3	25	وما أرسلنا من قبلك من رسول		
127	1	27	لا يسبقونه بالقول وهم بأمره		
377	3	28	ولا يشفعون إلا لمن ارتضى		
25	2	32	وجعلنا السماء سقفا محفوظا		
32	2	5	وترى الأرض هامدة	**الحـــج**	
323	2	31	حنفاء غير مشركين به		
20	2	46	أفلم يسيروا في الأرض		
346	1	46	فإنها لا تعمى الأبصار		
496	2	18	وأنزلنا من السماء ماء بقدر	**المؤمنون**	
201	3	24	ما هذا إلا بشر مثلكم		

336	1	47	أنؤمن لبشرين مثلنا وقومهما	
27	3	51	يا أيها الرسل كلوا من الطيبات	
544	1	68	أفلم يدبروا القول	
233	1	35	ا نور السموات والأرض	**النـــور**
356	1	37	يخافون يوما تتقلب فيه القلوب	
106	2	41	والطير صافات	
544	1	44	إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار	
210	1	22	يوم يرون الملائكة لا بشرى	**الفـرقان**
264	1	23	وقدمنا إلى ما عملوا من عمل	
115	1	8	إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين	**الشّعراء**
28	3	97	تا إن كنا لفي ضلال مبين	
323	1	13	فلما جاءتهم آياتنا مبصرة	**النّمــل**
263	1	15	ولقد آتينا داود وسليمان علما	
175	2	5	ونريد أن نمن على الذين استضعفوا	**القصص**
524	2	11	وقالت لأخته قصيه	
327	1	11	فبصرت به عن جنب	
240	1	14	ولما بلغ أشده واستوى	
33	2	47	ولولا أن تصيبهم مصيبة	
349	1	52	والذين آتيناهم الكتاب من قبله	
318	1	55	وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه	
308	1	56	إنك لا تهدي من أحببت	
50	2	71	قل أرأيتم إن جعل ا	
251	1	13	وليحملن أثقالهم وأثقالا	**العنكبـوت**
179	2	38	وعادا وثمود وقد تبين لكم	

المصـــادر والمـــــــراجع

المصادر والمراجع:

1- المعاجم:

1- ابن منظور، لسان العرب، ط 1. بيروت، د س، دار صادر للنشر والتوزيع.

2- إسماعيل بن حماد الجوهري، الصحاح في اللغة، تحقيـق أحمـد عبـد الغفـور عطار، د ط. بيروت، د س، دار العلم للملايين للنشر والتوزيع.

3- المعجم الوسيط، تحقيق مجمع اللغة العربية، ط 3. القاهرة: 1985.

4- الزمخشري، أساس البلاغة، تحقيق عبد الرحمن محمود، د ط. لبنان: 1979، دار المعرفة للنشر والتوزيع.

5 - ياقوت الحموي، معجم البلدان، تحقيق فريد عـبد العزيز الجندي، ط 3. بيـروت د س، دار الكتب العلمية للنشر والتوزيع.

2- المصادر والمراجع:

1- ابن جني، الخصائص، تح محمد علي النجار، د ط. بيـروت: 1957، دار الكتاب العربي للنشر والتوزيع، ج 1.

2- ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، د ط. بيـروت: 1993، دار الجيـل للنشـر والتوزيع، ج 4.

3- ابن رشيق القيرواني، العمدة، تحقيق محمد بن عبد القادر أحمد عطا، د ط. بيروت، د س دار الكتب العلمية للنشر والتوزيع، ج 2.

4- ابن عصفور، الممتع في التصريف، ط4. بيروت: 1979، دار الآفـاق الجديـدة للنشر والتوزيع، ج 1.

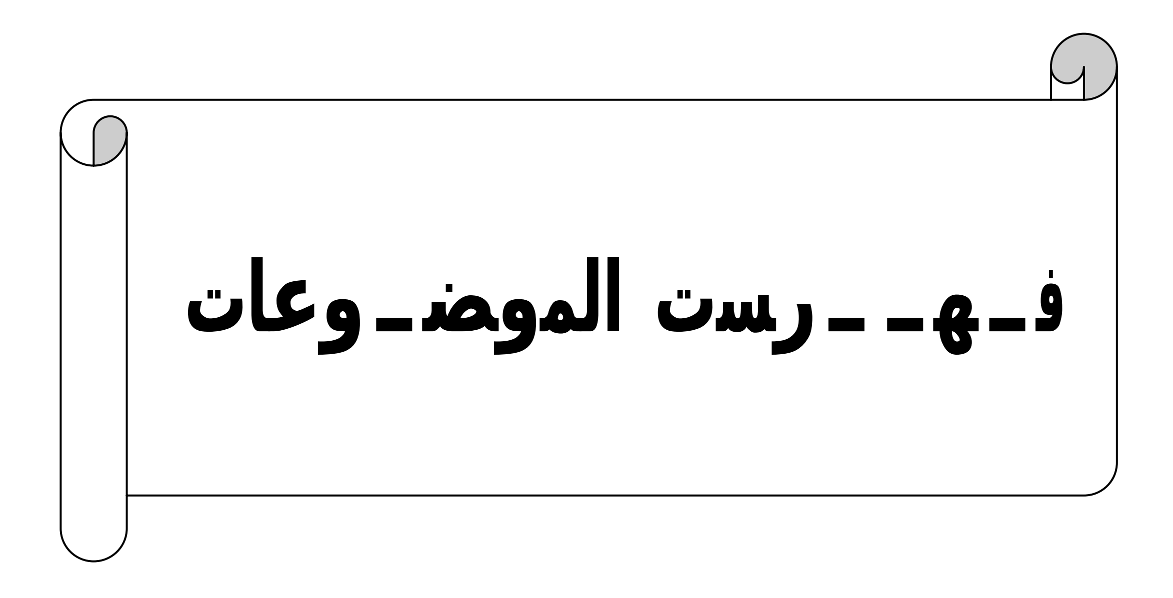
5- ابن قيم الجوزية، التفسير القيم، تحقيق محمد حامد الفقـي، د ط. بيروت: 1988 دار الفكر للنشر والتوزيع.

ـــــــ زاد المعاد في هـدي خير العباد، تحقيق الشيخ حسن محمد المسعودي د ط. بيروت، د س، دار الجيل للطباعة والنشر والتوزيع، ج 1.

ــــــــ مفتاح دار السعادة، تحقيق علي بن حسن بن علي بن عبد الحميد الحلبــي الأثري، ط 1. القاهرة: 2004، دار ابن القيم للنشر والتوزيع.
ــــــــ الفــوائد، د ط. بيروت، د س، المكتبة الثقــافية.
9- ابن هشام، أوضح المسالك، ط 5. بيروت، د س، دار الجيل للنشر والتوزيع.
ــــــــــ شرح شذور الذهب، د ط. بيروت، د س، دار الجــيل للنشر والتوزيع.
11- أبــو الفلاح عبد الحي بن عماد الحنبلي، شــذرات الذهب في أخبار من ذهــب د ط. بيروت، د س، المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، ج 6.
12- أبو عبد الرحمن عبد المجيد جمعة الجزائري، القواعد الفقهية المســتخرجة مــن كتاب إعلام ابن قيم الجوزية، ط 1. بيروت، د س، المكتبة الثقافية.
13- أبــو هلال العســكري، كتــاب الصــناعتين، د ط. بيــروت: 1986، المكتبــة العصرية.
ــــــــــ الفروق اللغوية، د ط. بيــروت: 1991، دار الآفــاق الجديــدة للنشــر والتوزيع.
15- أحمد العمري، بلاغة الحوار، د ط . المملكة المغربية: 2005، منشورات وزارة الأوقــاف والشؤون الإسلامية، ص 55.
16- إسماعيل ابن كثير الدمشقي، البداية والنهاية، تحقيق مكتب تحقيق التــراث، د ط. بيروت، د س، دار إحياء التراث العربي للنشر والتوزيع.
17- الحافظ زين الدين أبو الفرج ابن رجب، ذيل طبقات الحنابلــة، د ط. القــاهرة: 1952، الدار المحمدية للنشر والتوزيع، ج2.
18- الــزمخشري، الكشاف، تحقيق محمد عبد السلام شاهين، ط1. بيــروت: 1995 دار الكتب العلمية للنشر والتوزيع.
19- الســكاكي، مفتاح العلوم، ط1. بيــروت: 1983، دار الكتــب العلميــة للنشــر والتوزيع.
20- الشوكاني محمد بن علي، البدر الطالع، ط1. القاهرة، د س، مطبعة السعادة.
21- بكــر بن عبد ا أبو زيد، ابن القــيم حياتــه وآثــاره، ط1. المملكــة العربيــة السعودية، د س، دار العاصمة للنشر والتوزيع.

22- تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، د ط. المغـرب: 2001، دار الثقافـة للنشر والتوزيع، ص 79.
ـــــــ مناهج البحث في اللغة، د ط. المغـرب: 1986، دار الثقافـة للنشـر والتوزيع.
24- جلال الدين السيوطي، بغيـة الـوعاة في طبقات اللغـويين والنحـاة، تحقيـق محمد أبو الفضل إبراهيم، د ط. بيروت، د س، المكتبة العصرية، ج 1.
ـــــــ المزهر، ط 3. القاهرة، د س، دار التراث للنشر والتوزيع.
26- حـاجي خلـيفة، كشف الظنون، د ط. بيروت، د س، دار إحياء التراث العربي للنشر والتوزيع، مجل 2.
27- سيبويه، الكتاب، تحقيق محمد هارون، ط 4. بيروت: 1988، دار الكتب العلمية للنشر والتوزيع.
28- صالح بلعيد، اللغة العربية العلمية، د ط. الجزائر: 2003، دار هـومة للطباعـة والنشر والتوزيع، ص 38.
29- صبحي صالح، دراسات في فقه اللغة، ط 12. بيروت: 1989، دار العلم للملايين للنشر والتوزيع.
30- طاهر سليمان حمودة، ابن قيم الجوزية جهوده في الدرس اللغوي، د ط. القـاهرة د س، دار الجامعات المصرية للنشر والتوزيع.
ـــــــ ظاهرة الحذف في الدرس اللغوي، د ط. الإسكندرية: 1999، الـدار الجامعية للطباعة والنشر والتوزيع.
32- عباس حسن، النحو الوافي، ط 9. القاهرة، د س، دار المعارف للنشر والتوزيـع ج.2
33- عبد الرحمن ابن خلدون، المقـدمة، تحقـيق حامد أحمد الطاهر، ط1. بيـروت: 2004، دار الفجر للتراث للنشر والتوزيع.
34- عبد العظيم عبد السلام شرف الدين، ابن قيم الجوزية، عصره منهجه وآراؤه في الفقه والعقائد والتصوف، ط 3. الكويت: 1984، دار القلم للطباعة والنشر والتوزيع.

35- عـبد الفتاح لاشين، ابن القيم وحسه البلاغي في تفسير القـرآن، ط1. بيـروت د س، دار الرائد العربي للنشر والتوزيع.
ـــــــــــ صفاء الكلمة، د ط. الرياض: 1983، دار المريخ للنشر والتوزيع.
37- عبد القادر عبد الجليل، الأسـلوبية، ط 1. عمـان: 2002، دار صـفاء للنشـر والتوزيع.
38- عبد القاهر الجرجـاني، دلائـل الإعجـاز، ط 8. القـاهرة: 1989، مكتبـة الخانجـي.
39- عبد المتعالي الصعيدي، بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة، ط 1. القاهرة: 1999، مكتبة الآداب للنشر والتوزيع، ج 4.
40- فارس محمد عيسى، علم الصرف منهج في التعليم الذاتي، ط 1. عمـان: 2000 دار الفكر للنشر والتوزيع.
41- محمد حسين آل ياسين، الـدراسات اللغوية عند العرب، ط1. بيـروت: 1980 دار مكتبة الحياة للنشر والتوزيع.
42- مصطفى صادق الرافعي، تـاريخ آداب العـرب، د ط. بيـروت:1974، دار الكتاب العربي للنشر والتوزيع.


فـهـ ـرست الموضـوعات

الفهرس التفصيلي للموضوعات:

البـاب الأول: الـدراسة النـظرية:
ابن القيم والحياة الفكرية في عصره

الفصل الثاني: ابن القيم ومفتاح دار السعادة:

المبـحث الأول: مفتاح دار السعادة: أهميته ومنهجه:

المبـ ـحث الثـ ـاني: أهمية الكتاب وقيمته العلمية:

البـاب الثـاني: الـدراسـة التطبيقـية:

خصائص لغة ابن قيم الجوزية من خلال مفتاح دار السعادة

الفصـل الأول: خصائص أسلوب ابن القيم من خلال مفتـاح دار السعادة:

الفصل الثاني: خصائص لغة ابن القيم من خلال مفتاح دار السعادة:

المبحث الأول: البنية الصـوتية والعـمق الدلالي:

المبحث الثاني: الخصائص الصرفية في مفتاح دار السعادة:

المبحـث الـثالث: نظام التراكيب في مفتاح دار السعادة:

المبحث الـرابع: الخصائص البلاغية في مفتـاح دار السعادة: